

مَا خُفِيَ
عَنِ الْحَيِّ الْعَالَمِ
بِأَنْحَاطِ الْمُسْلِمِينَ

تأليف العلامة
أَبُو الْحَسَنِ النَّدَوِي

المكتبة الوقفية
أمم الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧ - ٥٩٢٢٤١٠

مَاذَا خَسِرَ الْعَالَمُ

بِأَخِطَاطِ الْمُسْلِمِينَ

تأليف العلامة
أبو الحسن الندوي



أمام الباب الأخضر - سيلخا الحسين

٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لمكتبة التوفيقية (القاهرة-مصر) ويحظر طبع
أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً
أو مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله
على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية
إلا بموافقة الناشر خطياً .

Copyright ©

All Rights reserved

Exclusive rights by Al Tawfikia Bookshop
(Cairo-Egypt) No part of this publication may
be translated, reproduced, distributed in any
form or by any means, or stored in a data
base or retrieval system, without the prior
written permission of the publisher.

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر

العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt

Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen

Tel : (00202) 5904175 - 5922410

Fax : 6847957

إشراف

توفيق شعلان

كلمة تذكيرة

بقلم د. مصطفى أبو سليمان الندوي تلميذ المؤلف

على مدى ستين عاماً أو نحوها من الجهاد في ميدان الدعوة والإصلاح والتعليم والتربية، وعلى رأس العلماء والمجددين وبين صفوف الأسلاف الصالحين يقف سماحة الشيخ العلامة أبي الحسن على الحسنى الندوي، أعلم يقيناً أنه غنى عن تعريف أمثالي به، ولكنني من باب الوفاء بالندر اليسير من الدين، ومن باب العرفان بالفضل الجميل لأصحابه أحببت أن أصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب بعد أن سمح لي أستاذي ومربي عقلي المؤلف بطبعه ونشره في بلادنا المحروسة مصر أرض الكنانة التي يذكرها سماحة أستاذنا بكل خير ويكن لعلمائها وأدبائها كل احترام لما لهم من سابقة فضل في إثراء الدراسات العربية والإسلامية بجهود علمية عظيمة استفاد منها جهاذة علماء الديار الهندية.

أستاذنا العلامة الندوي ما ترك موضعاً في شبه القارة الهندية إلا وله فيه بصمات دعوية علمية، وما ترك دولة أو دويلة من المعمورة إلا وجابها ودعا فيها إلى الله تعالى، وله في كل ذلك صولات وجولات.

ولقد أثمر في خلال دعوته آثاراً عظيمة أرجو أن أوفق لذكر شيء منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: جامعة ندوة العلماء أخذت صفة العالمية منذ أن صار رئيساً عاماً لها ودخلت بل تفوقت على معظم جامعات العالم التي تهتم بشئون الدراسات الإسلامية والعربية لأنها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع.

ثانياً: تخرج على يديه نوابغ العلم والفكر في العصر الحديث وانتشروا في بقاع الأرض يعلمون ويدعون إلى الله تعالى على بصيرة.

ثالثاً: أسس سماحته معهداً عظيماً عالياً للدعوة والفكر الإسلامى فى الجامعة وعلى غرارہ أنشأ معهداً فى جامعة اكسفورد بالمملكة المتحدة البريطانية، ومعهداً آخر فى جزر دولة بروناى، وهكذا تنتشر الأفكار الإسلامية الصحيحة فى الأمة المحمدية.

رابعاً: أقام دعوة الإسلام بين غير المسلمين فى داخل شبه القارة الهندية وخارجها بطريقة أطلق عليها اسم «الدعوة الإنسانية» تشتمل على الاجتماعات للترغيب فى الإسلام بطريقة فكرية سهلة القبول عندهم، وكذلك على رسائل وأبحاث بمختلف اللغات الحية والقديمة.

خامساً: ترأس المجلس التعليمى لعموم الجامعات والمدارس الإسلامية فى شبه القارة الهندية.

سادساً: ترأس مجلس الأحوال الشخصية للمسلمين للدفاع عن حقوقهم وحفظ كياناتهم وتراثهم فى بلاد الهند.

سابعاً: اختير عضواً مؤسساً لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة، وعضواً للمجمع العربى بدمشق والقاهرة، وعضواً مؤسساً للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وغيرها من الجامعات والجامعات فى مختلف البلاد الإسلامية وحاضر فى أكثرها خدمة للإسلام والمسلمين وحسبة لوجه الله الكريم.

ثامناً: ألف ما يزيد على مائتى كتاب ورسالة باللغات العربية والأردية والهندية وترجمت أكثر مؤلفاته إلى اللغات الأوربية والتركية ولغة الملايو وغيرها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أيضاً:

١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؛

٢- رجال الفكر والدعوة فى الإسلام - أربع مجلدات.

٣- الأركان الأربعة فى ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات

الأخرى.

-
- ٤- السيرة النبوية .
 - ٥- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية .
 - ٦- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن .
 - ٧- روائع إقبال .
 - ٨- الطريق إلى المدينة .
 - ٩- التربية الإسلامية الحرة .
 - ١٠- إذا هبت ريح الإيمان .
 - ١١- العقيدة والعبادة والسلوك .
 - ١٢- روائع من أدب الدعوة في القرآن والسنة .
 - ١٣- حديث مع الغرب .
 - ١٤- أحاديث صريحة في أمريكا .
 - ١٥- مذكرات سائح في الشرق العربي .
 - ١٦- من نهر كابول إلى نهر اليرموك .
 - ١٧- أسبوعان في المغرب الأقصى .
 - ١٨- المسلمون وقضية فلسطين .
 - ١٩- إلى الإسلام من جديد .
 - ٢٠- المدخل إلى الدراسات القرآنية .
 - ٢١- الصراع بين الإيمان والمادية .
 - ٢٢- المسلمون في الهند .
 - ٢٣- التفسير السياسى للإسلام فى مرآة كتابات المودودى وسيد قطب .

-
- ٢٤- القاديانى والقاديانية - دراسة وتحليل .
 - ٢٥- العرب والإسلام .
 - ٢٦- نفحات الإيمان .
 - ٢٧- أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين .
 - ٢٨- صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثالى الأول عند أهل السنة والشيعة .
 - ٢٩- شخصيات وكتب .
 - ٣٠- الإسلام أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية .
 - ٣١- ربانية لا رهبانية .
 - ٣٢- قصص النبيين للأطفال - خمسة أجزاء .
 - ٣٣- فى مسيرة الحياة - مجلدان كبيران .
 - ٣٤- المد والجزر فى تاريخ الإسلام .
 - ٣٥- القرن الخامس عشر الهجرى فى ضوء التاريخ والواقع .
 - ٣٦- دور الحديث الشريف فى تكوين المناخ الإسلامى .
 - ٣٧- الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية .
 - ٣٨- فضل البعثة المحمدية على الإنسانية .
 - ٣٩- عاصفة يواجهها العالم الإسلامى .
 - ٤٠- الإسلام والمستشرقون .
 - ٤١- الدعوة الإسلامية فى الهند وتطوراتها .
 - ٤٢- الإمام الذى لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف .
 - ٤٣- مواساة أم مساواة .

-
- ٤٤ - نظامان إلهيان للغلبة والانتصار.
 - ٤٥ - الفتح للعرب المسلمين.
 - ٤٦ - كارثة العالم العربى.
 - ٤٧ - كيف دخل العرب التاريخ.
 - ٤٨ - العرب يكتشفون أنفسهم.
 - ٤٩ - نحو تكوين إسلامى جديد.
 - ٥٠ - خليج بين الإسلام والمسلمين.
 - ٥١ - وامعتصماه.
 - ٥٢ - حكمة الدعوة وصفة الدعاة.
 - ٥٣ - منهج أفضل فى الإصلاح للدعاة والعلماء.
 - ٥٤ - درس من الحوادث.
 - ٥٥ - بين نظرتين.
 - ٥٦ - بين الصورة والحقيقة.
 - ٥٧ - فى ظلال البعثة المحمدية.
 - ٥٨ - الإسلام والغرب.
 - ٥٩ - ردة ولا أبا بكر لها.
 - ٦٠ - الإسلام والغرب.
 - ٦١ - توضيحية شباب العرب.
 - ٦٢ - الدعوة إلى الله.
 - ٦٣ - أهمية الحضارة.
 - ٦٤ - ملة إبراهيم وحضارة الإسلام.

-
- ٦٥- نظرة مؤمن واع إلى المذنيات المعاصرة الزائفة .
 - ٦٦- ثورة في التفكير .
 - ٦٧- إلى الراية المحمدية .
 - ٦٨- اسمعى يا مصر .
 - ٦٩- اسمعى يا سورية .
 - ٧٠- اسمعى يا إيران .
 - ٧١- اسمعى يا زهرة الصحراء .
 - ٧٢- اسمعوها منى صريحة أيها العرب .
 - ٧٣- الإسلام والحكم .
 - ٧٤- نحن الآن فى المغرب .
 - ٧٥- تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا .
 - ٧٦- قارنوا بين الربح والخسارة .
 - ٧٧- إلى قمة القيادة العالمية .
 - ٧٨- فاستخف قومه فأطاعوه .
 - ٧٩- غارة التتار على العالم الإسلامى وظهور معجزة الإسلام .
 - ٨٠- الإسلام فى عالم متغير .
 - ٨١- كارثة التعصب اللغوى والثقافى .
 - ٨٢- مصادر العلوم الإسلامية .
 - ٨٣- مستقبل الأمة الإسلامية والعربية بعد حرب الخليج .
- والكثير من المؤلفات بالأردية أو الهندية ولم يترجم إلى اللغة العربية بعد، ونود أن تقوم جامعة ندوة العلماء بدورها فى ترجمة ما لم يكتب أصلاً بالعربية إلى العربية.

تاسعاً: كتب مقدمات فائقة لكثير من المؤلفات العلمية والشروح الحديثية والفقهية والأدبية لكبار العلماء من بلاد العجم والعرب كمقدماته لكتاب الشيخ العلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوى، تراجم أبواب البخارى وأوجز المسالك فى شرح موطأ مالك، وبذل المجهود فى شرح سنن أبى داود، ومقدمته لكتاب حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى الزائع الصيت والانتشار، ومقدمته لمذكرات الدعوة والداعية للشيخ البنا وغيرها الكثير مما فاق الوصف والتعليق وجعل لهذه الكتب مكانة عظمى بين المؤلفات الحديثة، ولقد أوصانى سماحته بجمع مقدماته للكتب فأسأل الله العلى القدير أن يوفقنى لذلك فى القريب إن شاء الله.

ولقد أشاد بجهوده ومؤلفاته جم غفير من علماء العصر ونوابغ الفكر والأدب فى العالمين العربى والإسلامى كالأستاذ الدكتور/ مصطفى السباعى فى مقدمته لكتاب رجال الفكر والدعوة فى الإسلام، والأستاذ الأديب/ السيد قطب فى تقديمه لقصص النبیین، وماذا خسر العالم وهى بين يدى القارئ والباحث، والأديب الكبير الأستاذ/ على الطنطاوى فى مقدمته لكتاب مختارات من أدب العرب، والمفكر الإسلامى الأستاذ/ أنور الجندى فى كتابه أعلام القرن الرابع عشر، والأستاذ/ محمد المجذوب والشيخ فاروق حمادة، وغيرهم وغيرهم نفع الله المسلمين بهم جميعاً.

وإن أحد إخواننا الباحثين بالجامعة الأزهرية قد ألف رسالة للدكتوراة فى شخصية أستاذنا الندوى ونالت إعجاباً عظيماً من أساتذة قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بالجامعة.

هذا.. وإن سماحة شيخنا متع الله الإسلام والمسلمين بأعماله وعلومه وجهوده لم ينل على ما أرى ولو جزءاً حقيقياً من حقه، وأرجو الله أن يوفق قادة الأمة الإسلامية وعلماءها ودعاتها وشبابها للانتفاع بالشيخ الندوى علماً وعملاً وفكراً وأدباً وخلقاً.

وإن من أبواب الخير الذى لا مزية فيه أن نقوم اليوم بإحياء عمل واحد عظيم من أعماله ليكون باكورة مكتبة إسلامية عظيمة للدعاة فى سلسلة مباركة من مؤلفاته، ولهذا قبلت منا مكتبة الإيمان بالمنصورة مشكورة الإذن بطبع الكتاب ونشره طبعاً ونشراً يليقان بمقام المؤلف والمؤلف مع مراعاة حسنة لأحوال طلاب العلم والدعوة ومحبى الشيخ الندوى ومؤلفاته وكذلك للظروف المعيشية والاجتماعية فى مصر حتى ييسر لكل أسرة اقتناء نسخة أو أكثر من هذا الكتاب فجزى الله المؤلف والناشر خيراً، والله الحمد والمنة وصلى الله على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد ﷺ .

مقدمة

بقلم الباحث الإسلامى الأستاذ/ سيد قطب

ما أحوج المسلمين اليوم إلى من يرد عليهم إيمانهم بأنفسهم وثقتهم بماضيهم ورجاءهم فى مستقبلهم . . وما أحوجهم لمن يرد عليهم إيمانهم بهذا الدين الذى يحملون اسمه ويجهلون كنهه، ويأخذونه بالورثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة.

وهذا الكتاب الذى بين يدي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لمؤلفه (السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى) من خير ما قرأت فى هذا الاتجاه، فى القديم والحديث سواء.

إن الإسلام عقيدة استعلاء، من أخص خصائصها أنها تبعث فى روح المؤمن بها إحساس العزة من غير كبر، وروح الثقة فى غير اغترار، وشعور الاطمئنان فى غير تواكل. وأنها تشعر المسلمين بالتبعية الإنسانية الملقاة على كواهلهم، تبعة الوصاية على هذه البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها، وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة، وهدايتها إلى الدين القيم، والطريق السوى، وإخراجها من الظلمات إلى النور بما آتاهم الله من نور الهدى والفرقان:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ . . . ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

وهذا الكتاب الذى بين يدي يثير فى نفس قارئه هذه المعانى كلها، وينفث فى روعه تلك الخصائص جميعها، ولكنه لا يعتمد فى هذا على مجرد الاستثارة الوجدانية أو العصبية الدينية، بل يتخذ الحقائق الموضوعية

أداته، فيعرضها على النظر والحس والعقل والوجدان جميعاً، ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات الحاضرة عرضاً عادلاً مستنيراً، ويتحاكم في القضية التي يعرضها كاملة إلى الحق والواقع والمنطق والضمير، فتبدو كلها متساندة في صفه وفي صف قضيته، بلا تمحل ولا اعتساف في مقدمة أو نتيجة. وتلك مزية الكتاب الأولى.

إنه يبدأ يرسم صورة صغيرة سريعة - ولكنها واضحة - لهذا العالم قبل أن تشرق عليه أنوار الإسلام الأولى. يرسم الصورة لهذا العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، من الهند والصين إلى فارس والروم، صورة المجتمع وصورة الضمير في هذه الدنيا العريضة، في الجماعات التي تظلمها الديانات السماوية، كاليهودية والمسيحية، والتي تظلمها الديانات الوثنية، كالهندوكية والبوذية والزرادشتية.. وما إليها..

إنها صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفاً بيناً، لا يعتسف المؤلف فيه، ولا يستبد به، إنما يشرك معه الباحثين والمؤرخين من القدامى والمحدثين، ممن يدينون بغير الإسلام، فلا شبهة في أن يكونوا مغرضين له، وللدور الذي أداه في ذلك العالم القديم.

إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية، ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت جامدة، لا حياة فيها ولا روح، وبخاصة المسيحية.

فإذا فرغ المؤلف من رسم صورة العالم بجاهليته هذه، بدأ يعرض دور الإسلام في حياة البشرية. دوره في تخليص روح البشر من الوهم والخرافة،

ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، ودوره في تخليص المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانحيار، ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان، ودوره في بناء العالم على أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة.

كل أولئك في إبان الفترة التي كانت القيادة فيها للإسلام في أي مكان، والتي كان الإسلام فيها يعمل، وهو لا يستطيع أن يعمل إلا أن تكون له القيادة، لأنه بطبيعته عقيدة استعلاء ومنهج قيادة، وشرعة ابتداع لا اتباع.

ثم تجيء الفترة التي فقد الإسلام فيها الزمام، بسبب انحطاط المسلمين، وتخليهم عن القيادة التي يفرضها عليهم هذا الدين، والوصاية التي يكلفهم بها على البشرية، والتبعات التي ينوطها بهم في كل اتجاه.

وهنا يستعرض المؤلف أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية، ويصف ما حل بالمسلمين أنفسهم عندما تخلوا عن مبادئ دينهم، ونكصوا عن تبعاتهم، وما نزل بالعالم كله من فقدانه لهذه القيادة الراشدة، ومن انتكاسه إلى الجاهلية الأولى، ويرسم خط الانحدار الرهيب الذي ترتكس فيه الإنسانية في ذات الوقت الذي تفتح فيه آفاق العلم الباهرة. يرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص، لا بالجمل النارية والتعبيرات المجنحة. فالحقائق الواقعة، كما عرضها المؤلف غنية عن كل بهرج وكل تزويق.

ومن خلال هذا الاستعراض، يحس القارئ، بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الإنسانية، وردها إلى الهدى الذي انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى المعرفة، ويشعر بالقيمة الكلية

لوجود هذه القيادة فى الأرض، وبمذى الخسارة التى حلت بالبشر جميعاً، لا بالمسلمين وحدهم فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل القريب والبعيد.

كذلك يثور فى نفس المسلم بصفة خاصة روح الندم، على ما فرط، وروح الاعتزاز بما وهب، وروح الاستشراف إلى القيادة التى ضيع.

ولعله مما يلفت النظر تعبير المؤلف دائماً عن النكسة التى حاقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة «الجاهلية».

وهو تعبير دقيق الدلالة على فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام، والروح المادى الذى سيطر على العالم قبله، ويسيطر عليه اليوم بعد تخلى الإسلام عن القيادة.. إنها (الجاهلية) فى طبيعتها الأصيلة، فالجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة، ولكنها طابع روحى وعقلى معين، طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية، كما أرادها الله، وتحل محلها قيم مصطنعة تستند إلى الشهوات الطارئة، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم فى حالة الارتقاء الأولى، كما كانت تعانيه من قبل فى أيام البربرية الأولى.

فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر. وجائزته هى الخروج من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. وقد ظهر فضل هذه الرسالة، وسهل فهمها فى هذا العصر أكثر من كل عصر، فقد افترضت الجاهلية، وبدأت سوائها للناس، واشتد تدمير الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام، لو نهض العالم الإسلامى، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماس وعزيمة، ودان بها «كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال»، كما يقول المؤلف الفاضل قرب نهاية الكتاب.

وأخيراً، فإن الخصيصة البارزة فى هذا الكتاب كله هى الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية فى محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الدينى والاجتماعى فحسب، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغى أن يكتب من الزاوية الإسلامية.

لقد مضى الأوروبيون يؤرخون للعالم كله من زاوية النظر الغربية، متأثرين بثقافتهم المادية، وفلسفتهم المادية، ومتأثرين كذلك بالعصبية الغربية والعصبية الدينية - شعروا بذلك أم لم يشعروا - ومن ثم وقعت فى تاريخهم أخطاء وانحرافات، نتيجة إغفالهم لقيم كثيرة فى هذه الحياة، لا يستقيم تاريخ الحياة ولا يصح تفسير الحوادث والنتائج بدونها، ونتيجة عصبيتهم التى تجعل أوربا فى نظرهم هى محور العالم ومركزه دائماً، ولإغفالهم العوامل الأخرى التى أثرت فى تاريخ البشرية، أو التهوين من شأنها إذا لم يكن مصدرها هو أوربا.

ولقد درجنا نحن على أن نتلقف التاريخ من أيدي أوربا كما نتلقف كل شىء آخر نتلقفه بأخطائه تلك، وهى أخطاء فى المنهج بإغفال قيم كثيرة وعوامل كثيرة، وأخطاء فى التصوير نتيجة النظر من زاوية واحدة للحياة البشرية، وأخطاء فى النتائج تبعاً للأخطاء المنهجية والتصويرية.

وهذا الكتاب الذى بين يدي نموذج للتاريخ الذى ينظر للأمور كلها، وللعوامل جميعها، وللقيم على اختلافها، ولعل القارئ لم يكن ينتظر من رجل مسلم، واثق بقوة الروح الإسلامى، متحمس لرد القيادة العالمية إليه، أن يتحدث عن مؤهلات القيادة، فلا ينسى بجوار (الاستعداد الروحى) أن يلح فى (الاستعداد الصناعى والحربى) و(التنظيم العلمى الجديد) وأن يتحدث عن (الاستقلال التجارى والمالى).

إنه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحياة البشرية، وبهذا الإحساس

المتناسق سار في استعراضه التاريخي، وفي توجيهه للأمة الإسلامية سواء، ومن هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ، كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثير بالطريقة الأوربية، التي ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة وهذا التحقيق.

وإنه ليسعدني أن أتحدث عن هذا الكتاب بذلك الإحساس ذاته، وأن أسجل هذه الظاهرة، وأنا مغتبط بهذه الفرصة التي أتاحت لي أن أطلع عليه في العربية.. اللغة التي أثر صاحبها أن يكتبه بها، وأن ينشره في مصر للمرة الثانية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

«سيد قطب»

صورة وصفية:

أخي أبو الحسن..

بقلم فضيلة الأستاذ/ أحمد الشرياصي

لقيت أخي أبا الحسن أول مرة في شتاء سنة ١٩٥١م، بدار (الشبان المسلمين) في القاهرة، عقب محاضرة لى من «محاضرات الثلاثاء» وقد أقبل على يطلب فى أدب جم وتواضع ظاهر ليلة من لىالى الثلاثاء، ليلقى فيها محاضرة عن «العالم فى مفترق الطرق».. فرأيت رجلاً نحيف البدن، نحيل العود، له لحية سمراء، وملابسه قليلة خفيفة الوزن والشم، ونظراته عميقة نفاذة، ونبراته دقيقة أخاذة فيها بحة، عرفت فيما بعد أنها ملازمة له من جهد وإجهاد، وبعد اللقاء الأول العاجل توثقت بينى وبينه أسباب الأخوة والمحبة، وعن خبر به أكتب هذه السطور.

هو العالم المؤمن الداعية المحتسب السيد أبو الحسن على الحسينى الهندى الندوى، من المنتسبين إلى عترة الحسن بن على رضوان الله عليهما، ووالده هو الشريف العلامة عبد الحى بن فخر الدين بن عبد العلى، ينتهى نسبه إلى عبد الله الأشر بن محمد ذى النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب، ولوالده كتب كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط أشهرها «نزهة الخواطر» فى ثمانية مجلدات^(١) وقد توفى سنة ١٣٤١ هجرية.

وقد ولد السيد أبو الحسن فى مديرية بالهند تسمى «راى بريلى»، وهى تبعد عن «لكهنؤ» سبعين كيلو متراً تقريباً، مد الله فى عمره وأدام به نفع الإسلام والمسلمين.

(١) ظهرت سبعة مجلدات من هذا الكتاب من دائرة المعارف فى حيدر أباد الهند، والكتاب يشتمل على خمسة آلاف ترجمة لأعيان الهند، وظهر للمؤلف كتاب «الثقافة الإسلامية فى الهند» طبعه المجمع العلمى العربى فى دمشق.

وأسرة أخى أبى الحسن من أصل عربى، لا تزال تحافظ على أنسابها إلى هذا اليوم وهى تحافظ على صلاتها بأصلها وإن كانت تتكلم الهندية وتعيش فى الهند منذ قرون، وتمتاز بالمحافظة على التوحيد والسنة والبعد عن البدع والدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله، وللسيد أبى الحسن أخ أكبر منه هو السيد الدكتور عبد العلى عبد الحى^(١) وهو طبيب، وقد تخرج فى ندوة العلماء ومعهد ديوبند، كما تخرج فى جامعة لكهنؤ بتفوق وإممتاز، فهو بذلك يجمع بين الثقافتين الدينية والعصرية، وله فضل كبير فى تربية السيد أبى الحسن وثقافته، ويدير ندوة العلماء خلفاً لأبيه الراحل. . وقد تزوج السيد أبو الحسن منذ عشر سنوات من الأسرة نفسها، لأن هذا تقليد محترم يعاقب من يخرج عليه.

بدأ السيد أبو الحسن تعلمه القرآن الكريم فى البيت تعاونه أمه، وأمّه من فضليات النساء والسيدات الفاضلات الصالحات، تحفظ القرآن، وتكتب، وتؤلف ثم تعلم اللغتين الأوردية والفارسية، ثم بدأ وهو فى الثانية عشرة من عمره يتعلم الإنجليزية والعربية معاً، وبدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد اليمنى، وتوفر سنتين كاملتين على دراسة الأدب العربى وحده، وقرأ كثيراً من كتب الأدب، وشغف بها على خلاف العادة يومئذ فى الهند، لأنهم يزهدون فى الأدب العربى، وعنى عناية خاصة بالعكوف على كتب ثلاثة هى: نهج البلاغة، ودلائل الإعجاز، والحماسة، ثم التحق بجامعة لكهنؤ، وهى جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية، وفيها قسم لآداب اللغة العربية التحق به السيد أبو الحسن، وكان يومئذ أصغر طلاب الجامعة سنًا، وضاق بدروس القواعد أولاً فأخره ذلك قليلاً، ثم سار فى تعلمه ممتازاً فائقاً سابقاً، ثم أتم دراسته الأدبية على الدكتور الشيخ تقى الدين الهلالى المراكشى رئيس تدريس الأدب العربى فى ندوة العلماء - وهى جمعية تشرف على دار العلوم هناك - ثم دخل الندوة، ومكث بها سنتين يدرس علوم

(١) توفى إلى رحمة الله فى ٢١ ذى القعدة ١٣٨٠هـ الموافق ٧ مايو ١٩٦١م.

الحديث، واستفاد كثيراً من شيخ الحديث الشيخ حيدر حسن خان، ومكث في دار العلوم ديوبند مدة شهور، وحضر دروس العالم الكبير المجاهد الشيخ حسين أحمد المدني في الحديث.

وسافر إلى لاهور، وقرأ التفسير على الشيخ أحمد على المفسر المشهور، ولم تكن دراسته في أغلب أدوارها دراسة نظامية بشهادات، بل كانت دراسة حرة لوجه العلم والمعرفة، ولما أتم دراسته رجع إلى لكهنؤ، وعين مدرساً في دار العلوم هناك ومكث فيها عشر سنوات يدرس علومًا مختلفة، واشتغل بجوار ذلك بالكتابة في مجلة «الضياء» العربية التي تصدرها ندوة العلماء، ورئيس تحريرها الأستاذ مسعود الندوي، واشتغل كذلك بالتأليف في الأوردية، وأظهر كتابه «سيرة السيد أحمد الشهيد»، فكان الإقبال عليه عظيمًا حتى طبع ثلاث مرات.

ثم انتقل إلى دلهي، والتقى بالداعية المجدد العظيم الشيخ محمد إلياس، وكان هذا اللقاء نقطة تحول في حياة أبي الحسن، لأن الشيخ محمد إلياس كان مرشدًا شعبيًا، له صلة عميقة وثيقة بال جماهير عن طريق الدعوة إلى الله. وأبو الحسن لم يكن متصلًا بالشعب قبل ذلك، بل كان مقتصرًا على الدراسة والتأليف. فأخذ يتصل بأهل القرى والداكر، ويقوم برحلات إسلامية قد تستغرق الواحدة منها شهرًا. لنشر الدعوة في قرى الهند ومدنها. وكان الشيخ إلياس - ولا يزال - هو مثل أبي الحسن الأعلى في الحكمة الدينية العميقة وفي قوة الإيمان لأن الشيخ إلياس - كما يقول أخونا - كان صورة من السلف الصالح، وكان مخلصًا غيورًا، يتألم لحال المسلمين، ويعمل من أجلهم، ويسير في شئونهم، ويحترق بروحه القوية الوثابة في سبيلهم^(١).

وتلقى التربية الروحية من العارف الجليل المربي الكبير الشيخ عبد القادر الرأى يورى واستفاد من صحبته ومجالسته.

(١) توفي إلى رحمة الله تعالى عام ١٣٦٣هـ - وللسيد أبي الحسن تأليف في سيرته في اردو وحديث عنه في محاضراته «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها».

ورأس أبو الحسن تحرير مجلة «الندوة» العلمية التي كانت تصدر بالأوردية، وكانت لسان حال الندوة، وكلفته الجامعة الإسلامية في (عليكره) بوضع منهاج لطلبة (البكالوريا) في التعليم الديني، فألف في ذلك كتاباً أسماه «إسلاميات» وقبلت الجامعة هذا الكتاب وأخذت به، وكافأت صاحبه عليه، ودعى لإلقاء محاضرات في الجامعة المليية الإسلامية بدلهي، فألقى محاضرة في موضوع: (الدين والمدنية) كانت موضع الاستحسان، ونشرت فكان لها تأثير واسع النطاق.

وألف في هذه الفترة كتباً لطلبة المدارس العربية في الهند، منها كتاب «مختارات في الأدب العربي» وقد قررت دار العلوم في الهند وبعض الجامعات تدريسه. ومنها كتاب «قصص النبيين» في ثلاثة أجزاء، وغير ذلك من الكتب، وأصدر مجلة (التعمير) التي كانت تصدر بالأوردية مرتين في الشهر، وأسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس، وأصدرت هذه الجمعية التبشيرية الإسلامية عدة رسائل وبحوث عن الملة الغراء باللغة الإنجليزية المنتشرة هناك. وأسس (المجمع الإسلامي العلمي) في لكهنؤ سنة ١٩٦٠ وله نشاط وإنتاج في اللغات الإنجليزية والهندية والأوردية والعربية، ومطبوعات قيمة.

وأخى المفضل أبو الحسن له غرام أصيل عميق باقتناء الكتب ومسامرتها والحديث عنها، وأعز ما يحرص عليه من عرض الحياة هو كتبه، وأغلى ما يهدي إليه كتاب يرضيه ويغذيه، ولا يقتنى أبو الحسن الكتب ليزين بها داره، بل ليضمها قراءة وبحثاً ونقداً. وكتاباتة المختلفة فيها دلائل واضحة على ذلك. وقد أفادته هذه المطالعات والمسامرات - بجوار الهبة والتجربة - قدرة على الارتجال بالعربية. فهو يتدفق كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل. وأغلب محاضراته يستعد لها. وكثيراً ما يكتبها. وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفي الملهب. ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع أيضاً. وهو كما عرفت عنه وكما حدثني مراراً لا يحب أن يهجم على الحديث في موضوع ذي بال إلا إذا احتفل به وتهياً له. وليس ذلك عن قلة بضاعة ولكنه احتراس العالم الذي يريد أن يستيقن ويتثبت!..

وقد غلب الشر على أبي الحسن فلم تطاوعه قريحته يوماً على نظم الشعر

وقد ظل الأستاذ أبو الحسن يمارس ألواناً من الألعاب الرياضية ككرة القدم والسباحة والصيد والهوكي والتنس ثم انقطع عنها أخيراً، وعلى الرغم من هذا أصابته أمراض استمرت مدة طويلة، وخاصة في الصدر، ثم عافاه الله منها، وبقي له سعال يعاوده من حين لآخر.

وهو يكره التصوير بجميع أنواعه، ويحرمه على نفسه في تشديد ملحوظ، ولقد زرت معه إحدى دور الطبع والنشر الكبرى بالقاهرة، ورغب مصور الدار أن يلتقط لنا صوراً تذكارية، فرفض أبو الحسن، وأصر على الرغم من طول المحاولة والرجاء، وذكر أن المسلمين في الهند (متفقون) على حرمة التصوير!!

ولقد سألته ذات مرة عن السابقين الذين تأثر بهم، فأجابني بأنهم الإمام أحمد بن حنبل صاحب الموقف المعروف في المحنة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ أحمد السرهندي (من سرهند، بلد في البنجاب) المتوفى سنة ١٠٢٤هـ صاحب الرسائل الخالدة في الشريعة والحقيقة ومحاربة البدع، والمجدد للملة، والشيخ ولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦هـ الباحث الإسلامي العظيم صاحب (حجة الله البالغة) والسيد أحمد الشهيد مؤسس أول دولة شرعية في الهند في القرن الثالث عشر الهجري^(١) وقد استمرت هذه الدولة عدة شهور، ثم ثار عليها الإنجليز بمؤامراتهم فأخذوا عليها الطريق.

وأعظم آمال أبي الحسن أن يرى الإسلام سائداً على الأرض، وأن يرى الدول الباغية معذبة مقهورة حتى يسلى نفسه ويستبشر ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلام وأذلوا المسلمين، وهو يعتقد ويرى أن بقاء القلة المسلمة في الهند من الخير، وفيه فائدة ترجى للهند، فلعل للإسلام مستقبلاً ذا بال هناك.

(١) هو من نفس أسرة السيد أبي الحسن ومن أشهر رجالها ورجال الهند. ولد سنة ١٢٠١هـ في راي بريلى (الهند) واستشهد في سبيل الله في بالاكوت (باكستان الآن) سنة ١٢٤٦هـ.

ولقد رحل أبو الحسن إلى الحجاز في سنتي ١٩٤٧-١٩٥٠ م. وقدم إلى مصر سنة ١٩٥١، وطوف بأغلب العالم الإسلامي، فرأى شواهد^(١) ودرس وكتب. وحاضر وخطب. وكان له في كل أرض نزل بها مجهود وجهود وعهود.

وقد اختير عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٧ م ودعى لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر في جامعة دمشق سنة ١٩٥٦ م^(٢).

وقد سأله وهو بيننا في مصر عن حسنات مصر، فقال موجزاً: الإيمان بالله والدين، والمحبة للمسلم خاصة إذا كان غريباً، ورقة القلب، وسلامة الصدر، وكثرة الأعمال المنتجة....

ثم سأله عن السيئات فتخرج ثم أجاب: السفور، وعدم التستر، والصور الخليعة في الصحف والمجلات، واستهانة بعض العلماء ببعض الحرمات، وعدم المحافظة على الجماعات في المساجد برغم كثرتها، والاندفاع في تقليد الحضارة الغربية بلا تبصر.

وأخى أبو الحسن بعد هذا كله عدو للمظاهر الكاذبة، يتخفف في ثيابه وطعامه وشرابه، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة، ولا يقيم للمال وزناً في حياته، وثقته بربه فوق كل شيء، ومثابرته على النضال في سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال، وإخلاصة العميق سر نجاحه بينما يفشل الآخرون.

لقد طال الكلام، ومع ذلك لم أقل كل شيء عن أخى أبى الحسن!

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

(١) طبعت مذكراته في القاهرة بعنوان «سائح في الشرق العربي».

(٢) ظهر مجموع هذه المحاضرات التي ألقاها الأستاذ أبو الحسن في مدرج الجامعة الكبير في دمشق وهي اثنتا عشرة محاضرة باسم «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» من طبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٠ م.

مقدمة الطبعة الثالثة عشرة القانونية

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة كتاب

يحكيها مؤلفه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلعل كثيراً من القراء الفضلاء لا يعلمون أن هذا الكتاب^(١) كان باكورة مؤلفاتي، وكان بداية تاريخ التأليف، وقد ألفت هذا الكتاب وأنا قد جاوزت الثلاثين من عمري قريباً^(٢) وكان أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السن المبكرة، وفي بلد بعيد عن مركز اللغة العربية وآدابها وثقافتها، وقد ولدت في الهند ونشأت وتعلمت فيها، ولم يقدر لي أي سفر خارج الهند، وكانت الرحلة الأولى المباركة التي وفقني الله لها هي الرحلة التي قمت بها لأداء فريضة الحج سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م)، يعني بعد تأليف هذا الكتاب بثلاث سنوات فكانت في الحقيقة مغامرة علمية لم أكن متهيئاً ولا مرشحاً لها، وكان من الجسارة أن أتناول هذا الموضوع الذي كان جديراً بقلم أكبر من قلمي، وبعقل أوسع من عقلي، وبتجربة أطول وأوسع من تجربتي كمؤلف، ولكن الله يفعل ما يشاء.

لقد كنت أشعر برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها، كأن سائقاً يسوقني إلى الكتابة في هذا الموضوع ولو استشرت العقل واعتمدت على تجارب المؤلفين، وعلى مقاديرهم ومكانتهم العلمية، لأحجمت، ولعدلت عن هذه الفكرة، ولو ذكرت ذلك لأحد من العقلاء العلماء والكتاب

(١) يعني به المؤلف كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

(٢) كان تأليفه بين سنة ١٣٦٣هـ - ١٣٦٤هـ (١٩٤٤م - ١٩٤٥م).

الفضلاء، لأشاروا على بالعدول عن خوض هذه المعركة العلمية العقلية، ولكنه كان من الخير أننى لم أستشر أحداً، كما يقول الدكتور محمد إقبال: «ليس من الخير أن تستشير عقلك دائماً، فنح عقلك جانباً فى بعض الأمور، فإن العقل يصور لك الخوف فى معارك خطيرة، ويشير عليك الابتعاد عن مثل هذه التجارب المريرة».

وكانت المراجع العربية التى كان لابد من أن أستشيرها فى هذا الموضوع قليلة، لأن ذلك العهد كان قريباً بالحرب العالمية الثانية، وكانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند والبلاد العربية، فكانت الهند تستورد قليلاً من البضاعة العلمية والمراجع التاريخية والثقافية باللغة العربية، التى كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة، ومصر بصفة خاصة، أما المراجع العلمية باللغة الإنجليزية والأردية فكانت متوفرة، وكانت فى لكهنؤ. مدينة العلم والثقافة - مكتبات غنية فيها أحدث المطبوعات الإنجليزية والموسوعات العلمية وكنت على اتصال بها، أستعير منها الكتب وأطالعها وأستفيد من بعض المكتبات الشخصية، وكان من تيسير الله تعالى والإرهاص لتأليف هذا الكتاب، أنى كنت طالعت قريباً تاريخ أوربا سياسة واجتماعاً وديانة وخلقاً، وحضارة وثقافة، بنهامة وفى توسع وعمق، وعنيت بموضوع الصراع بين الديانة والعلم، والبلاط والكنيسة، دراسة اختصاصية وتاريخ الأخلاق فى أوربا وتطورها، والعوامل التى صاغت صياغة خاصة، انتهت بها إلى هذا المصير المادى، الذى أثر فى مسيرة الشعوب الغربية والشرقية واتجاهاتها، تأثيراً عاماً وحاسماً.

هذا عدا تاريخ الأقطار الشرقية الإسلامية، وديانتها وحركاتها وفلسفاتها، وتاريخ الإسلام والمسلمين، وتاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام، من خلال الكتب المختصة بهذا الموضوع، ومن خلال الشعر والأدب فكان أيسر لى نسبياً بفضل ثقافتى الدينية والأدبية والتاريخية ولأن موادها كانت متوفرة فى مكتبة ندوة العلماء الكبيرة، ومكتبات شخصية،

وبفضل الاتصال الدائم بحركة الترجمة والنشر فى شبه القارة الهندية ومطالعة المجلات والصحف العلمية الراقية، وما تنشره من بحوث ودراسات علمية.

زد إلى ذلك التكوين العقلى والنفسى الممتاز، المؤمن بخلود رسالة الإسلام، وقيادة محمد عليه الصلاة والسلام وإمامته للأجيال البشرية عبر العصور، وبالنقص الواقع فى طبيعة الحضارة الغربية، ومزاج الأمم الغربية، الذى لا يفارقها فى حال من الأحوال، وظهوره - فى شكل مجسم فى قيادتها، وذلك نتيجة تربية أخى الأكبر الدكتور السيد عبد العلى الحسنى أمين ندوة العلماء العام، الذى كان مثلاً فريداً فى الجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية العصرية، وعمق فهمه للإسلام، واتزانه الفكرى البعيد عن كل غلو وتطرف، وقد جعلنى كل ذلك أنتفع من دراساته المتنوعة - المتناقضة أحياناً المشوشة لكثير من القراء الذين لا يزالون فى سن المراهقة الفكرية - وأستخرج منها نتائج إيجابية معينة، و«من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين» وتزداد بها ثقتى بصلاح الإسلام للقيادة والسيادة فى كل عصر، وإيمانى بأن محمداً ﷺ هو: «خاتم الرسل، وإمام الكل، ومنير السبل» وكنت أشعر بخطر الموضوع وأهميته، وبقلة بضاعتى وحادثة سننى، وقلة أعوانى، وجدة موضوع الكتاب وطرافته، ولكن لم أكن فى الحقيقة مخيراً، بل كنت مسيراً، كأن هاجساً يهيجس فى ضميرى، ويقول لى: لابد من وضع كتاب فى هذا الموضوع.

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس وإثارته لدهشة الكثير منهم، أن الموضوع كان طريفاً مبتكراً «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» أو ماذا سيربح العالم ويخسره من الفوائد، بتقديم المسلمين وتسليمهم لقيادة البشرية؟

كان الناس قد اعتادوا فى ذلك العصر، وقبل العصر الذى ألف فيه هذا الكتاب، أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العالمى، أو ينظروا إلى المسلمين كشعب عادى وكأمة من أمم كثيرة، ولكن تشجع مؤلف هذا الكتاب

وتخطى هذه الحدود المرسومة، وخرج من الإطار التقليدي الذي فرض على المؤلفين والكتاب في العرب والعجم، وأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين، وشتان بين النظرتين نظرة ينظر بها إلى المسلمين من خلال العالم ومن خلال الحوادث التي جرت في العالم، ومن خلال التطورات التي حدثت في التاريخ، المسلمون شعب من الشعوب يخضعون لما يجرى في العالم في إطار عالمي واسع، فكان المنهج الفكري العام وأسلوب البحث الدائم، ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلاني؟، وبسبب انقراض الحكومة الفلانية، ماذا خسر المسلمون بسبب نهضة الغرب الحديثة؟ ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرى التي حدثت في الغرب؟ ماذا خسر المسلمون بانقراض الخلافة العثمانية؟ ماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام والمسلمين؟ وماذا خسر المسلمون بفقرهم في الاقتصاد، وفي السياسة، وفي القوة الحربية؟

كان ذلك الطريق المرسوم التقليدي الذي اعتاده الناس، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمني وشرح صدرى لأن أكتب في موضوع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ كأن المسلمين هم العامل العالمي المؤثر في مجارى الأمور في العالم كله، ليس في بقعة جغرافية محدودة، أو منطقة سياسية خاصة، هل المسلمون حقاً في وضع يمكن أن يقال: إن العالم يخسر شيئاً بانحطاطهم، هل المسلمون على مستوى يجوز أن يقال: إن العالم قد خسر شيئاً بتقهقرهم وبتخلفهم عن مجال القيادة العالمية، إننى أخاف وأخشى أن كثيراً من الكتاب الإسلاميين الذين كانت لهم مواقف جليلة وكانت لهم سوابق عديدة، لم يفكروا هذا التفكير، إن تشويه التاريخ الإسلامى والنظر إليه من زاوية ضيقة، ومركب النقص الذى أصيب به الجيل الجديد المثقف، كان يعوق كثيراً من الباحثين عن أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم وبقضية الإنسانية، أين المسلمون من القيادة العالمية؟ المسلمون فقراء، المسلمون ضعفاء، المسلمون محكومون من الغرب، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة، فهل يصح أن يربط مصير العالم أن مصير الإنسانية بمصير

المسلمين وواقعهم؟، لا! إن كثيراً من الناس لم يكونوا يصدقون في ذلك الحين أن المسلمين لهم من الأهمية والخطر والتأثير ومن المكانة، ما يؤهلهم لهذا البحث، ويسوغ لمؤلف أن يؤلف كتاباً فيبحث عن مدى خسارة العالم الإنساني والعالم المعاصر بانحطاط المسلمين، إن الموضوع كان خطيراً، وكان البحث فيه شبه مجازفة ومغامرة علمية، ولكن الله سبحانه وتعالى أعان على ذلك.

ألفت هذا الكتاب على تردد وتخوف، لأننى كنت جديداً في مجال التأليف خصوصاً في اللغة العربية^(١) فقد كانت صلتى بها صلة دارس يولد بعيداً ويعيش بعيداً عن مركز الثقافة العربية وعن مركز العلوم الإسلامية الأصل، وكان يساورنى شك، هل ينال هذا الكتاب تقديراً في البيئات العربية والإسلامية البعيدة، فأرسلت قائمة محتوياته إلى الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر، ورئيس الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، وقد نالت كتبه خصوصاً سلسلة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام»، إعجاب القراء الباحثين، وكان لها دوى في الأوساط العلمية، وكنت معجباً بها، وقد درستها دراسة عميقة، وعلقت على آرائه بالموافقة في الغالب، وبالنقد والاختلاف في بعض الأمكنة، وأعجبت بأسلوبه المركز الذى يجرى مع الطبع، وآثرت أن يصدر هذا الكتاب من هذه المؤسسة العلمية التى كانت لها ولما يصدر منها قيمة علمية كبيرة في الشرق العربى، فيقبل على قراءته الشباب المثقف والمعنيون بالأبحاث العلمية والدراسات الموضوعية، وأنا لا أعلم مصير هذه الأوراق التى تعطى فكرة إجمالية عن الكتاب، ومؤلفه مجهول ليس له أثر علمى ولا شافع ولا مزك.

وفوجئت بكتاب تلقيته منه يطلب منى فيه نموذجاً من هذا الكتاب، فأرسلت إليه قطعة من الكتاب.

(١) سبق للمؤلف تأليف سلسلة «قصص النبیین للأطفال»، (١-٢) و«القراءة الرشيدة» (١-٣) و«مختارات من أدب العرب» وكلها كتب دراسية ألفت لأبناء المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية في المعاهد الدينية في الهند.

وقعت موضوعات الكتاب، والعناوين الجانبية التي كانت تدل على محتويات الكتاب، وما حوته من مادة وبحوث، من الدكتور موقعاً حسناً ولكنه تخوف أن يكون هذا الكتاب الذي صدر من قبل عالم ديني نشأ وتثقف بعيداً عن العالم العربي يغلب عليه الطابع الديني واللغوي - شأن علماء الأزهر والمعاهد الدينية القديمة - فسأل هل استفاد المؤلف من المراجع الأجنبية؟ فلما كان الجواب بالإيجاب وأرسل المؤلف ثبت المراجع الإنجليزية، اطمأن الدكتور وأخبر بأن اللجنة قررت طبع هذا الكتاب، وأبدى إعجابه بالكتاب سواءً من الناحية الأدبية أو الناحية المعنوية، وكان اليوم الذي تلقى فيه المؤلف هذه الرسالة من الدكتور، من أعظم أيام العمر فرحاً وسروراً، لا ينساه المؤلف حتى هذا اليوم.

ومضت على ذلك شهور وأنا لا أعلم مصير هذا الكتاب، وقد سافرت في أثناء هذه المدة إلى الحجاز للمرة الثانية، وذلك في سنة ١٢٢٩هـ (١٩٥٠م) وفوجئت بنسخة مطبوعة عند سفير سوريا الأستاذ جواد الم رابط عضو المجمع العلمي بدمشق، كان قد استصحبها من القاهرة، وكان يبدي إعجابه بعمق فكر علماء الهند وأصالته، مستشهداً بهذا الكتاب، الذي وقع إلى يده في زيارته القرية لمصر، وهو لا يعرف أنه يتحدث إلى مؤلفه.

ومن السهل الميسور تقدير فرح المؤلف الشاب المغمور الذي يفاجأ بأثره العلمي التأليف الأول الصادر من أكبر دور النشر، فاستعاره من سعادة السفير ليرده إليه بعد مطالعته، ولكنه فوجيء كذلك بأن المقدمة الصغيرة التي قدم بها الدكتور أحمد أمين هذا الكتاب، لم تكن فيها تلك القوة التي كان يتوقعها المؤلف من كاتب إسلامي كبير كالـدكتور أحمد أمين، وكان متحفظاً شديد التحفظ في إبداء انطباعاته عن الكتاب ومؤلفه.

ولم يكن الأمر غريباً - وإن كان ثقيلاً على المؤلف - فليس كل من يقدم كتاباً يتحمس للموضوع الذي كتب فيه، فلا يكون ذلك إلا إذا كان المقدم يتجاوب مع فكرة المؤلف ويؤمن بها إيماناً عميقاً، وليس كل باحث علمي وكاتب كبير - وإن كان في درجة الدكتور أحمد أمين بك - يرى أن العالم قد

خسر حقاً، والإنسانية قد نكبت نكبة كبيرة بانحطاط المسلمين، وانسحابهم عن ميدان القيادة والتوجيه العالمى، فذلك غلط خاص للتفكير والتفسير للتاريخ، ليس من اللازم أن يقتنع به كل مؤلف ودارس. وليست التبعة على الدكتور أحمد أمين - وفضله لا ينكر فى نشر هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر الموقرة - ولكن التبعة على مؤلف الكتاب الذى أمل فيه الآمال البعيدة، وحمله ما لم يتهيأ له فكرياً وعلمياً ولم تساعد ظروفه التربوية والدراسية الخاصة على انتهاج هذا المنهج، ثم لعل الدكتور أحمد أمين الذى كان يعتبر من أساتذة الجيل الجديد ومن كبار المؤلفين والأدباء، خاف - وله الحق - أن يعطى المؤلف الذى لا يعرفه معرفة شخصية ولم يتحقق مستواه العلمى والنظرة التى ينظر بها إليه مواطنوه وعلماء بلاده، أكثر مما يستحق، فيقال إنه كساه ثوباً سابغاً فضفاضاً أكبر من قامته وقيمته، وسامحه الله وجزاه عن المؤلف والقراء أحسن الجزاء، فقد كان السبب فى وصول هذا الكتاب إلى الأوساط العلمية المتنورة التى لا تعير كتاباً يصدر عن مؤسسة دينية، شيئاً من العناية والاهتمام.

واتفقت رجلة المؤلف إلى مصر فى يناير سنة ١٩٥١م بعد ما مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر، فوجد أن الكتاب قد شق طريقه إلى الأوساط العلمية والدينية وحل منها محلاً لم يكن يتوقعه المؤلف بل يحلم به، وقد قرئ فى نطاق واسع من المثقفين^١ والمعنيين بقضية الإسلام وانتفاضته، وصحوة المسلمين، وكان نشاط «الإخوان المسلمون» قد بدأ يدب، وخفف الخناق عليهم بعض التخفيف، وكأن هذا الكتاب قد جاء فى أوانه ومكانه وتناغم مع شعورهم وما يدعو إليه، وكان الجرح عميقاً ودامياً شهادة الإمام الشهيد وحل حركة الإخوان، فجاء هذا الكتاب مسلياً معزياً، بل كسلاح علمى يدافعون به عن فكرتهم، وشحنة جديدة وزاداً ومدداً «لبطارياتهم» فقرأوه فى المعتقلات، وقرروه فى منهج الدراسة والمطالعة، واستشهدوا ببعض عباراته فى المحاكم، واستقبلوا - بطبيعة الحال - مؤلفه بحماس وحب، وكان الكتاب خير معرف للمؤلف الزائر الجديد، وممهداً للثقة به والحديث معه.

وكان الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ سيد قطب فى مقدمة من رحب بهذا الكتاب، وعنى به، وشجع تلاميذه وإخوانه على مطالعته، وفى يوم من الأيام^(١) تلقى المؤلف دعوة من الأستاذ سيد قطب لحضوره ندوة تجتمع فى منزله بحلول كل جمعة، تبحث فى موضوع إسلامى، أو تستمع إلى تلخيص كتاب بقلم أحد الحاضرين وتتناول البحث فيه، وكان الموضوع ذلك اليوم كتاب «ماذا خسر العالم» وقد لخصه أحد تلاميذه من خريجى جامعة فؤاد الأول، فلبى المؤلف هذه الدعوة الكريمة الحسنة التى هى رمز لتقدير مجهوده العلمى الكتابى المتواضع وتشريف له، فحضر هذه الندوة وساهم فى البحث، وأجاب عن بعض الأسئلة الموجهة إليه كمؤلف.

وهناك بدت له فكرة الطلب من الأستاذ سيد قطب ليقدم هذا الكتاب بقلمه المؤمن القوى، وأسلوبه العلمى الهادف، وقبل الأستاذ سيد قطب هذه الدعوة بسرور وحماس، وكتب تلك المقدمة القوية التى زادت فى قيمة الكتاب وقوته^(٢).

وصادف ذلك طلب الأستاذ الفاضل والعالم المؤمن الدكتور محمد يوسف موسى، أستاذ كلية أصول الدين فى الأزهر، ورئيس جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر - الذى كان من كبار المعجبين بهذا الكتاب المنوّهين

(١) كان ذلك فى ١٩ / ٨ / ١٣٧٠ هـ (٢٥ / من نيسان ١٩٥١ م) (مذكرات سائح فى الشرق العربى).

(٢) وإلى القارئ مقتطف صغير من تقديم الأستاذ سيد قطب:
«إن الخصيصة البارزة فى هذا الكتاب كله هى الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية فى محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الدينى والاجتماعى فحسب، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغى أن يكتب من الزاوية الإسلامية».
ويقول:

«من هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ، كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثير بالطريقة الأوروبية، التى ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة وهذا التحقيق».

به ، والحافزين على قراءته - إصدار الطبعة الثانية المنقحة من جماعة الأزهر^(١) فسمح له المؤلف شاكرًا مسرورًا، أخذ الدكتور التصريح والموافقة من الدكتور أحمد أمين، وكتب مقدمة يتجلى فيها إخلاصه وحبّه، واستجابته للفكرة، حلى بها جيد الكتاب^(٢) وفاجأ المؤلف صديقه الدكتور أحمد الشرباصى أحد علماء الأزهر وأساتذته، فى إحدى زياراته، فاقتلس منه معلومات عن أسرته وبيئته ونشأته ودراسته وحياته، لا يعلم المؤلف ماذا سيصنع بها، فكون بها مقالاً عن المؤلف عنونه بـ «أخى أبو الحسن» (صورة وصفية) وضمه إلى الكتاب ولم يعلم به المؤلف إلا حين صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٥٣م وتلت هذه الطبعة طبعات، وترجمات فى لغات الشرق والغرب وها هى ذى الطبعة الثالثة عشرة القانونية.

وهذه قصة الكتاب فى إيجاز وصدق وصراحة ولله المن والفضل أولاً وآخرًا.

أبو الحسن على الحسنى الندوى

٢٠ رجب ١٤٠١هـ

٢٥ مايو ١٩٨١م

(١) وذلك فى ٣/ من حزيران (يونيه) ١٩٥١م.

(٢) ومما جاء فى هذه المقدمة قوله:

«وأشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى فى أقل من يوم، وأغرمت به غرامًا شديدًا، حتى لقد كتبت فى آخر نسختى وقد فرغت منه «إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام».

الباب الأول

العصر الجاهلي

الفصل الأول

الإنسانية في الاحتضار

كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدره منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردى، فقد زادت الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكأن الإنسان في هذا القرن قد نسى خالقه، فنسى نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصاييح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم أو بقيت، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلاً عن البيوت فضلاً عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فراراً بدينهم من الفتن وضناً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفراراً من تكاليف الحياة وجدها، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقى منهم في تيار الحياة اصطلع مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمتهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل... على حساب الضعفاء والمحكومين، وإن الإنسانية لا تشقى بتحول الحكم والسلطان والرفاهية والنعيم من فرد إلى فرد آخر من جنسه، أو من جماعة إلى جماعة أخرى مثلها في الجور والاستبداد وحكم الإنسان للإنسان، وإن هذا الكون لا يتفجع ولا يتألم فقط بانحطاط أمة أدركها الهرم وسرى فيها الوهن، وسقوط دولة تآكلت جذورها

وتفككت أوصالها، بل بالعكس تقتضى ذلك سنة الكون، وإن دموع الإنسان لأعز من أن تفيض كل يوم على ملك راحل وسلطان زائل، وإنه لفى غنى، وإنه لفى شغل عن أن يندب من لم يعمل يوماً لإسعاده، ولم يكدح ساعة لصالحه، وإن السماء والأرض لتقسوان كثيراً على هذه الحوادث التى تقع ووقعت كل يوم ووقعت ألوف المرات ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٩].

بل إن كثيراً من هؤلاء السلاطين والأمم كانوا كلاً على ظهر الأرض، وويلاً للنوع الإنسانى، وعذاباً للأمم الصغيرة والضعيفة، ومنبع الفساد والمرض فى جسم المجتمع البشرى يسرى منه السم فى أعصابه وعروقه، ويتعدى المرض إلى الجسم السليم، فكان لابد من عملية جراحية، وكان قطع هذا الجزء السقيم وإبعاده من الجسم السليم مظهراً كبيراً لربوبية رب العالمين ورحمته، يستوجب الحمد والامتنان من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية، بل من جميع أفراد الكون ﴿فَقَطَّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولكن لم يكن انحطاط المسلمين وزوال دولتهم وركود ريحهم - وهم حملة رسالة الأنبياء، وهم للعالم البشرى كالعافية للجسم الإنسانى - انحطاط شعب أو عنصر أو قومية، فما أهون خطبه وما أخف وقعه، ولكنه انحطاط رسالة هى للمجتمع البشرى كالروح، وانهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا.

فهل كان انحطاط المسلمين واعتزالهم فى الواقع مما يأسف له الإنسان فى شرق الأرض وغربها، وبعد قرون مضت على الحادث؟

وهل خسر العالم حقاً - وهو غنى بالأمم والشعوب - بانحطاط هذه الأمة شيئاً؟ وفيما كانت خسارته ورزقته؟

وماذا آل إليه أمر الدنيا، وماذا صارت إليه الأمم بعدما تولت قيادها

الأمم الأوروبية حتى خلفت المسلمين فى النفوذ العالمى ، وأسست دولة واسعة على أنقاض الدولة الإسلامية؟ وماذا أثر هذا التحول العظيم فى قيادة الأمم وزعامة العالم فى الدين والأخلاق والسياسة والحياة العامة وفى مصير الإنسانية؟

وكيف يكون الحال لو نهض العالم الإسلامى من كبوته وصحا من غفوته ، وتملك زمام الحياة؟

ذلك كله ما نحاول الإجابة عنه فى الصفحات الآتية! ..

أبو الحسن على الحسنى

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

لم يكن انحطاط المسلمين أولاً ، وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد ، وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيراً ، حادثاً من نوع ما وقع وتكرر فى التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم ، وانقراض الحكومات والدول ، وانكسار الملوك والفاطحين ، وانهزام الغزاة المنتصرين ، وتقلص ظل المدينيات . والجزر السياسى بعد المد ما أكثر ما وقع مثل هذا فى تاريخ كل أمة . وما أكثر أمثاله فى تاريخ الإنسان العام ! ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له فى التاريخ . مع أن فى التاريخ مثلاً وأمثلة لكل حادث غريب .

لم يكن هذا الحادث يخص العرب وحدهم ، ولا يخص الشعوب والأمم التى دانت بالإسلام ، فضلاً عن الأسر والبيوتات التى خسرت دولتها وبلادها . بل هى مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها . فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته ورزقته ، وانكشف عنه غطاء العصبية ، لاتخذ هذا اليوم النحس - الذى وقعت فيه - يوم عزاء ورثاء ، ونياحة وبكاء . ولتبادلت شعوب العالم وأمه

التعازى. ولبست الدنيا ثوب الحداد، ولكن ذلك لم يتم فى يوم. وإنما وقع تدريجياً فى عقود من السنين. والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث. ولم يقدره قدره وليس عنده المقياس الصحيح لشقائه وحرمانه. إن العالم لا يخسر شيئاً بانقراض دولة ملكت حيناً من الدهر. وفتحت مجموعاً من البلاد والأقاليم. واستعبدت طوائف من البشر. ونعمت وترففت.

● نظرة فى الأديان والأمم:

أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام، وعسف الحكام، وشغلت بنفسها، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، وأفلست فى معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشروعاً صافياً من الدين السماوى، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشرى.

● المسيحية فى القرن السادس المسيحى:

لم تكن المسيحية فى يوم من الأيام من التفضيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان، بحيث تقوم عليه حضارة، أو تسير فى ضوئه دولة، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط، فجاء بولس فطمس نورها، وطعمها بخرافات الجاهلية التى انتقل منها، والوثنية التى نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية اضمحلت فى جنبها تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة فى اليم، وعادت نسيجاً خشبياً من معتقدات وتقاليد لا تغذى الروح، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة، ولا تحل معضلات الحياة، ولا تنير السبيل، بل

أصبحت بزيادات المحرفين، وتأويل الجاهلين، تحول بين الإنسان والعلم والفكر، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية، يقول (زغ غا) مترجم القرآن إلى الإنكليزية عن نصارى القرن السادس الميلادى: «وأُسرف المسيحيون فى عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا فى ذلك الكاثوليك فى هذا العصر»^(١).

• الحرب الأهلية فى الدول الرومية:

ثم ثارت حول الديانة وفى صميمها مجادلات كلامية، وسفسة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة، واستهلكت ذكاءها، وابتلعت قدرتها العملية، وتحولت فى كثير من الأحيان حروباً دامية، وقتلاً وتدميراً وتعذيباً، وإغارة وانتهاكاً واغتيالاً، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة وأقحمت البلاد فى حرب أهلية، وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الدينى ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية، وبين نصارى مصر، أو بين (الملكانية) و (المنوفيسية) بلفظ أصبح فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة، وهى الإلهية التى تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية، كقطرة من الخل تقع فى بحر عميق لا قرار له، وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين فى القرنين السادس والسابع، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى، كل طائفة تقول للأخرى: إنها ليست على شىء.

يقول الدكتور ألفرد. ج. بتلر:

«إن دينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين، نضال يذكىه اختلاف فى الجنس واختلاف فى ذلك الدين، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس، إذ كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية، وكانت الطائفة الأولى -كما يدل عليها اسمها- حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد، وكانت تعتقد

العقيدة السنية الموروثة، وهى ازدواج طبيعة المسيح، على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفيين -أهل مصر- كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها، وتحاربها حرباً عنيفة فى حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون، بله يؤمنون بالإنجيل»^(١).

وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس سنة ٦٣٨ جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها، وأراد التوفيق، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد. وفى صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك وصار المذهب المنوثلئى مذهباً رسمياً للدولة، ومن تضمنهم من أتباع الكنيسة المسيحية، وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المختلفة له متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل، ولكن القبط نابذوه العداء وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف، وصمدوا له واستماتوا فى سبيل عقيدتهم القديمة، وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة، وأما المسألة الأخرى وهى نفاذ تلك الإرادة بالفعل، فأرجأ القول فيه، ومنع الناس أن يخوضوا فى مناظراتها، وجعل ذلك رسالة رسمية، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقى، ولكن الرسالة لم تهدىء العاصفة فى مصر ووقع اضطهاد فظيع على يد قيرس فى مصر استمر عشر سنين، وقع خلالها ما تقشعر منه الجلود، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون إغراقاً، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض، ويوضع السجين فى كيس مملوء من الرمل ويرمى به فى البحر، إلى غير ذلك من الفظائع.

(١) فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، ص ٣٧، ٣٨.

● الانحلال الاجتماعى والقلق الاقتصادى:

بلغ الانحلال الاجتماعى غايته فى الدولة الرومية والشرقية وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات، وتضاعفت الضرائب. حتى أصبح أهل البلاد يتدمرون من الحكومات، ويمقتونها مقتاً شديداً. ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية، وكانت الإيجارات والمصادرات ضغثاً على إباله، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات. وقد هلك عام ٥٣٢ فى الاضطراب ثلاثون ألف شخص فى العاصمة^(١)، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد فى الحياة أسرف الناس فيه، ووصلوا فى التبذل إلى أحط الدرجات، وأصبح لهم الوحيد اكتساب المال من أى وجه، ثم إنفاقه فى التظرف والترف وإرضاء الشهوات.

ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق. حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم فى حرية^(٢)، وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع. وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع^(٣).

يقول (جيبون): «وفى آخر القرن السادس وصلت الدولة فى ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة^(٤) وكان مثلها كمثلى دوحه عظيمة كانت أمم العالم فى حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف. ولم يبق منها إلا الجذع الذى لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً^(٥)» ويقول مؤلفو (تاريخ العالم والمؤرخين): «إن المدن العظيمة التى أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية فى هذا العهد من الانحطاط الهائل الذى كانت

(١) Encyclopeadia Britanica. See Justin

(٢) The History of Decline and Fall of the Roman Empire by Edward

Gippon V.3 p.

(٣) Sale's Translation p. 72 "1896"

(٤)، (٥) The History of Decline and Fall of the Roman Empire V. Y. p.

نتيجته المغالاة فى المكوس والضرائب والانحطاط فى التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران فى البلدان»^(١).

• مصر فى عصر الدولة الرومية ديانة واقتصاداً:

أما مصر ذات النيل السعيد، والخصب المزيّد، فكانت فى القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانية، وبالدولة الرومية معاً، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات فى طبيعة المسيح، وفى فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية. وقد ظهرت فى القرن السابع فى شر مظاهرها، وأنهدكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العملية، وأما الأخرى فلم تلق منها إلا اضطهاداً دينياً فظيماً واستبداداً سياسياً شنيعاً تجرعت فى سبيلهما من المرائر فى عشر سنين ما ذاقته أوربا فى عهد التفتيش الدينى فى عقود من السنين، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة، وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح، فلا هى تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية، ولا هى تتمتع بالحرية الدينية والعقلية رغم كونها نصرانية.

يقول الدكتور غوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب):

«ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذى لم ينتشلها منه سوى الفتح العربى، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التى كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة فى ذلك الزمن وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات وكانت مصر التى أكلتها الانقسامات الدينية، وأنهدكتها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على ساداتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين»^(٢).

ويقول الدكتور الفرد. ج. بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر):

(١) Historian's History of the World V. VII p. 175

(٢) حضارة العرب، تعريب عادل زعير، الفصل الرابع «العرب فى مصر» صفحة ٣٣٦.

«فالحق أن أمور الدين في القرن السابع كانت في مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة، فلم تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب، واختلف بعضها عن بعض فيها، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانات، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح، بل كان الدين في نظرهم هو الاعتقاد المجرد في أصول معينة.

«فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات، وكانوا يخاطرون بحياتهم في سبيل أمور لا قيمة لها، وفي سبيل فروق في أصل الدين وفي فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها، ويشق إدراكها»^(١).

هذا، وقد اتخذها الروم شاة حلوباً يريدون أن يستنزفوا مواردها، ويمتصوا دمها، يقول ألفرد:

«إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد.. مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل»^(٢).

ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين):

«إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعاً كبيراً من حاصلها ومنتجاتها، وكانت طبقات الفلاحة المصرية -مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ- مرغمة على أداء الخراج للدولة الرومية ككراء الأرض فضلاً عن الضرائب، وكانت ثروة مصر في هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط»^(٣).

(١) فتح العرب لمصر، ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Historian's History of the World, V. VII p. 173

وهكذا اجتمع لمصر من الاضطهاد الدينى، والاستبداد السياسى والاستغلال الاقتصادى ما شغلها بنفسها، وكدر عليها صفو حياتها، وألهاها عن كل مكرمة.

• الحبشة:

أما جارتها الحبشة فكانت على المذهب (المونوفيسى) كذلك، وكانت مع ذلك تعبد أوثاناً كثيرة استعارت بعضها من الهمجية، ولم يكن التوحيد إلا ضرباً راقياً من الوثنية خلعت عليها لباساً من علم ومصطلحات نصرانية، ولم تكن فى الدين بذات روح، ولا فى الدنيا بذات طموح، وقد قضى مجمع (نيقية) أن ليس لها استقلال بأمورها الدينية، وإنما هى تابعة للكرسى الإسكندرى.

• الأمم الأوروبية الشمالية الغربية:

أما الأمم الأوروبية المتوغلة فى الشمال والغرب فكانت تتسكع فى ظلام الجهل المطبق، والأمم الفاشية، والحروب الدامية، لم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم بعد، ولم تظهر على مسرحها الأندلس لتؤدى رسالتها فى العلم والمدنية، ولم تصهرها الحوادث، وكانت بمعزل عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية بعيدة عنها، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلاً، ولم تكن -مما يجرى فى الشرق والغرب مما يغير وجه التاريخ- فى غير ولا نفير، وكانت بين نصرانية وليدة، ووثنية شائبة، ولم تكن بذات رسالة فى الدين، ولا بذات راية فى السياسة.

يقول هـ. ج. ويلز:

«ولم تكن فى أوروبا الغربية فى ذلك العهد أمارات الوحدة والنظام»^(١).

ويقول (Robert Briffault):

(لقد أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً. قد كانت همجية ذلك العهد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب»^(١)).

● اليهود:

وكانت في أوروبا وآسيا وإفريقيا أمة هي أغنى أمم الأرض مادة في الدين، وأقربها فهمًا لمصطلحاته ومعانيه، أولئك هم اليهود، ولكن لم يكونوا عاملاً من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر في غيرهم، بل قضى عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء والعذاب والبلاء، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء والقومية، والاءدلال بالنسب، والجشع وشهوة المال وتعاطى الربا، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة، وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الأعصار والأجيال، منها الخنوع عند الضعف، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله، وقد وصفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً عميقاً يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خلقى، وانحطاط نفسى، وفساد اجتماعى، عزلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم.

● بين اليهود والمسيحيين:

وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم إلى المسيحيين، وبغض المسيحيين إليهم وشوه سمعتهم، ففي السنة الأخيرة من

حكم فوكاس (٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحيين فى أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائده «أبنوسوس» ليقضى على ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل الناس جميعاً، قتلاً بالسيف، وشنقاً وإغراقاً وتعذيباً، ورمياً للوحوش الكاسرة.

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة. قال المقرئى فى كتاب الخطط: «وفى أيام فوقا ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر فى طلبهم، وقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم. وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل، وقرية الناصورية صور، وبلاد القدس، فنالوا من النصارى كل منال، وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيسة بالقدس، وأحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه»^(١).

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح الفرس لمصر:

«فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور وأرسلوا بقيتهم فى بلادهم وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر، ويجدد ما خربه الفرس، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا له الهدايا الجميلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خراباً، فسأه ذلك وتوجع له، وأعلمه

(١) كتاب الخطط المقرئية، ج ٤ ص ٣٩٢.

النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى وتخريب الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيراً فى قتلهم من آخرهم، وحثوا هرقل على الوقعة بهم، وحسنوا له ذلك فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم، فإنهم عملوا حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على عمر الزمان والدهور، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى إلخ».

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان، اليهود والنصارى، من القسوة والضرارة بالدم الإنسانى وتحين الفرص للنكاية فى العدو، وعدم مراعاة الحدود فى ذلك، وبهذه الأخلاق المنحطة والاستهانة بحياة الإنسان لا يمكن لطائفة أو أمة أن تؤدى رسالة الحق والعدل والسلام، وتسعد البشرية فى ظلها وتحت حكمها.

● إيران والحركات الهدامة فيها:

أما فارس التى شاطرت الروم فى حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذى عرفهم العالم، كان أساس الأخلاق متزعزعا مضطربا منذ عهد عريق فى القدم، ولم تزل المحرمات النسبية التى تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش، حتى إن يزدجرد الثانى الذى حكم فى أواسط القرن الخامس الميلادى تزوج بنته ثم قتلها^(١)، وأن بهرام جوين الذى تملك فى القرن السادس كان متزوجا بأخته^(٢).

(١) Historian's History of the World V. 8. p. 84

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٨.

يقول البروفسور «أرتھر كرستن سين» أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة كوينهاجن بالدنمارك المتخصص في تاريخ إيران في كتابه (إيران في عهد الساسانيين):

«إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساساني مثل (جاتهياس) وغيره يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرمات، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج، فقد تزوج بهرام جوبين وتزوج جشتاسب قبل أن يتنصر بالمحرمات^(١)، ولم يكن يعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين، بل كان عملاً صالحاً يتقربون به إلى الله، ولعل الرحالة الصيني (هوان سوئنج) أشار إلى هذا الزواج بقوله: إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء»^(٢).

ظهر «مانى» في القرن الثالث المسيحي، وكان ظهوره رد فعل عنيف غير طبعى ضد النزعة الشهوية السائدة في البلاد، ونتيجة منافسة النور والظلمة الوهمية فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه، فحرم النكاح استعجالاً للفناء وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل، وقتله بهرام سنة ٢٧٦م قائلاً إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيا له شيء من مراده، ولكن تعاليمه لم تمت بموته بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامى.

ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم مانى المجحفة، وتقمصت دعوة مزدك الذى ولد ٤٨٧م فأعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم، فينبغى أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك.

(١) إيران في عهد الساسانيين. ترجمة الدكتور محمد إقبال من الفرنسية إلى الأردية ص ٤٣٩.

(٢) «إيران في عهد الساسانيين» ص ٤٣٠.

قال الشهرستاني^(١): «أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلاء» وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين وصادفت من قلوبهم هوى، وسعدت كذلك بحماية البلاط فأخذ قباذ يناصرها ونشط فى نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها فى الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات، قال الطبرى: «افترض السفلة ذلك واغتموا وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا قباذ على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك شيئاً مما يتسع به»^(٢) إلى أن قال: «ولم يزل قباذ من خيار ملوكهم حتى حمله مزدك على ما حمله عليه فانتشرت الأطراف وفسدت الثغور»^(٣).

● تقديس الأكاسرة:

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجرى فى عروقهم دم إلهى، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، ويعتقدون أن من طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً فكانوا يكفرون لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر، لا يجرى اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحد فى مجلسهم، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة، وخصصوا بيتاً معيناً- وهو البيت الكيانى فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج، وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر وأباً عن جد لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ولا

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٨٦.

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٨٨.

(٣) المصدر السابق.

ينافسهم إلا دعى نذل، فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة فى البيت المالك لا ييغون به بدلاً ولا يريدون عنه محيصاً، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً، وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أزدشير وهو ابن سبع سنين وملك فرح زاد خسرو ابن كسرى أبرويز وهو طفل وملكوا بوران بنت كسرى، وملك كذا ابنة كسرى ثانية يقال لها أزمى دخت^(١) ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائداً كبيراً أو رئيساً من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكى.

• التفاوت بين الطبقات:

وكذلك اعتقادهم فى البيوتات الروحية والأشراف من قومهم، فيرونهم فوق العامة فى طيبتهم، وفوق مستوى الناس فى عقولهم ونفوسهم. ويعطونهم سلطة لا حد لها، ويخضعون لهم خضوعاً كاملاً - يقول البروفسور أرتهرسين مؤلف تاريخ (إيران فى عهد الساسانيين):

«كان المجتمع الإيرانى مؤسساً على اعتبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة^(٢)، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير^(٣)، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه^(٤)، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة^(٥) غير الحرفة التى خلقه الله لها^(٦)، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من

(١) راجع تاريخ الطبرى ج ٢، وتاريخ إيران لمكارىوس.

(٢) «إيران فى عهد الساسانيين» ص ٥٩٠.

(٣) أيضاً ص ٤٢٠.

(٤) أيضاً ٤١٨.

(٥) أيضاً ص ٤١٨.

(٦) أيضاً ص ٤٢٢.

وظائفهم^(١)، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع^(٢).

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر لك جلياً في مجالس الأمراء والأشراف، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ويجلسون مزجر الكلب، وقد أكبر ذلك رسول المسلمين وأنكره، ويتبين مما روى الطبري ما وصل إليه الفرس من الاستكاثرة والخضوع لسادتهم جرياً على عاداتهم، قال:

«عن أبي عثمان النهدي قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع صفائر يمشى حتى جلس معه على سريريه ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغشوه، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسي، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتوني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول^(٣)».

• تمجيد القومية الفارسية:

ثم يبالغون في تمجيد القومية الفارسية ويرون أن لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحداً،

(١) أيضاً ص ٤٢٢.

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ٤٢١.

(٣) الطبري ج ٤ ص ١٠٨.

وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية.

• عبادة النار وتأثيرها في الحياة:

كانوا في الزمن القديم يعبدون الله ويسجدون له، ثم جعلوا يمجّدون الشمس والقمر والنجوم وأجرام السماء مثل غيرهم من الأوثان، وجاء زرادشت صاحب الديانة الفارسية فيقال: إنه دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام، وقال: إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة لأن النور رمز إلى الإله وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء، وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار فاقترضوا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرج الناس إلى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عيناً ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجهلت الحقيقة ونسى التاريخ^(١).

ولما كانت النار لا توحى إلى عبادها بشريعة ولا ترسل رسولاً، ولا تتدخل في شؤون حياتهم، ولا تعاقب العصاة والمجرمين أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة في ساعات خاصة. أما في خارج المعابد، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم، وفي السياسة والاجتماع، فكانوا أحراراً يسيرون على هواهم وما تملى عليهم نفوسهم. أو ما يؤدي إليه تفكيرهم، أو ما توحى به مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر ومصر.

وهكذا حرمت الأمة الفارسية في حياتها ديناً عميقاً جامعاً يكون تربية للنفس وتهذيباً للخلق، وقامعاً للشهوات، وحافظاً على التقوى وفعل

(١) انظر تاريخ إيران تأليف شاهين مكاريوس ص ٢٢١ - ٢٢٤.

الخيرات، ويكون نظاماً للأسرة وتديراً للمنزل، وسياسة للدولة، ودستوراً للأمة، ويحول بين الناس وطغيان الملوك، وعسف الحكام، ويأخذ على يد الظالم، ويتصف للمظلوم وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين فى الأخلاق والأعمال.

● الصين: ديانتها ونظمها:

وكانت تسود الصين فى هذا القرن ثلاث ديانات. ديانة «لاوتسو» وديانة «كونفوشيوس» والبوذية، أما الأولى ففضلاً عن أنها تحولت وثنية فى عهد قريب فهى تعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات، وكان أتباعها متقشفين زاهدين، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالاً، فلم يكن لها أن تكون أساً لحياة سديدة أو حكومة رشيدة، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره.

وأما «كونفوشيوس» فقد كان يعنى بالعمليات أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه فى شؤون هذه الدنيا وتدير الأمور المادية والسياسية والإدارية، وقد كان أتباعه لا يعتقدون - فى بعض الأزمنة - بعبادة إله معين، فيعبدون ما يشاءون من الأشجار والأنهار، وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوى، وإنما هو حكمة حكيم وتجارب خبير، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء.

● البوذية - تطوراتها وانحطاطها:

أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة فتحولت وثنية تحمل معناها الأصنام حيث سارت، وتبنى الهياكل. وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت. وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التى ظهرت فى عهد ازدهار البوذية^(١). يقول الأستاذ

(١) الزائر لمتحف تكسلا فى غربى بنجاب «باكستان» يندهش من رؤية كثرة التماثيل البوذية التى استخرجت من حفائر المدن البوذية المطمورة ويعرف أن هذه الديانة والمدنية أصبحتا وثنيتين تماماً.

«إيشوراتوبا» أستاذ تاريخ الحضارة الهندية فى إحدى جامعات الهند: «لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيط العلاقات الأخوية البوذية، وظهرت فيها البدع^(١). ولاحظ ذلك أيضاً أحد الكتاب العصريين، وكبار السياسيين فى الهند فقال:

«جعلت البرهمية بوذا مظهراً للآلهة، وقلدتها فى ذلك البوذية نفسها، وأصبحت الرابطة الأخوية البوذية تملك ثروة هائلة، وأصبحت مركزاً لمصالح جماعات خاصة، وفقدت النظام، وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام، وبدأت الديانة تتقهقر وتنحط بعدما سادت فى الهند وازدهرت ألف سنة، وقد ذكرت لحن رضى حى سخ ط من صؤن من لح ما أصيبت به الديانة البوذية فى هذا العهد من الوهن والاعتلال فقال كما نقل عنها «سير رادها كرشن» فى كتابه «الفلسفة الهندية»:

«لقد أظلت الأفكار العلييلة تعليم بوذا الخلقى حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة، لقد نشأ مذهب جديد فى الديانة وازدهر، وملك على الناس القلوب، ثم اضمحل وخلفه مذهب آخر، وهلم جرا، حتى تراكمت هذه الأوهام الخلابة، وحجبت الجو وساد الظلام، وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات^(٢).

لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط، ودخلت فيها العادات الساقطات وأصبح من العسير التمييز بينهما، لقد اندمجت البوذية فى البرهمية وذابت فيها^(٣).

ولم يزل وجود الإله والإيمان به فى البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخى هذه الديانة ومترجمى مؤسسها، حتى يحار بعضهم ويتساءل: كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيق من الآداب التى ليس فيها الإيمان

(١) الهند القديمة «أردو» للأستاذ إيشوراتوبا.

(٢) Jawahar Dal Nehru: The Discovery of India p. 201 202

(٣) أيضاً.

بالله (١) . فلم تكن البوذية إلا طرقًا لرياضة النفس وقمع الشهوات، والتحلى بالفضائل، والنجاة من الألم، والحصول على العلم.

إذن فلم تكن عند الصينيين رسالة دينية للعالم يحلون بها مشاكله، وكانوا فى أقصى شرق العالم المتمدن محتفظين بتراثهم الدينى والعلمى، لا يزدون فى ثروتهم ولا فى ثروة غيرهم.

• أمم آسيا الوسطى:

أما الأمم الأخرى فى آسيا الوسطى وفى الشرق، كالمغول والترك واليابانيين، فقد كانت بين بوذية فاسدة، ووثنية همجية، لا تملك ثروة علمية، ولا نظامًا سياسيًا راقياً، إنما كانت فى طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة ومنها شعوب لا تزال فى طور البداوة والطفولة العقلية.

• الهند: ديانة، واجتماعاً، وأخلاقاً:

أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخها على أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذى يتبدى من مستهل القرن السادس الميلادى، قد ساهمت الهند جاراتها وشقيقاتها فى التدهور الخلقى والاجتماعى، الذى شمل الكرة الأرضية فى هذه الحقبة من الزمن، وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذى مد رواقه على المعمورة، وامتازت عنها فى ظواهر واخلال يمكن أن نلخصها فى ثلاث: (١) كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة. (٢) الشهوة الجنسية الجامحة. (٣) التفاوت الطبقي والمجحف والامتيار الاجتماعى الجائر.

• الوثنية المتطرفة:

قد بلغت الوثنية أوجها فى القرن السادس، فقد كان عدد الآلهة فى «ويد» ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت فى هذا القرن ٣٣٠ مليون، وقد أصبح كل شىء رائع وكل شىء جذاب وكل مرفق من مرافق الحياة إلها

(١)، (٢)، (٣) اقرأ مقالة «بوذا» فى دائرة المعارف البريطانية.

يعبد، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلهات الحصر، وأريت على العد، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله - زعموا- في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها الإله، ومنها نهر الكنج الذى خرج من رأس «مهاديو» الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم فى زمن من الأزمان.

وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل فى هذا العهد، وبلغت أوجها فى القرن السادس والسابع، حتى فاق هذا العصر فى هذه العصور الماضية، وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام، حتى لم تجد الديانة البوذية والجينية منها بدءاً، وتذرعت هاتان الديانتان بهذه الوسيلة للاحتفاظ بحياتهما وانتشارهما فى البلاد، ويدل على ما وصلت إليه الوثنية والتماثيل فى هذا العصر ما حكاه الرحالة الصينى الشهير «هوئن سوئنج» الذى قام برحلته بين عام ٦٣٠ وعام ٦٤٤ عن الاحتفال العظيم الذى أقامه الملك هرش الذى حكم الهند من عام ٦٠٦ إلى ٦٤٧: «وأقام الملك احتفالاً عظيماً فى قنوج اشترك فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات السائدة فى الهند، وقد نصب الملك تمثالاً ذهبياً لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً وقد خرج بتمثال آخر لبوذا أصغر من التمثال الأول فى موكب حافل قام بجنبه الملك «هرش» بمظلة وقام الملك الحليف «كامروب» يذب عنه الذباب^(١).

ويقول هذا الرحالة عن أسرة الملك ورجال بلاطه: «إن بعضهم كان من عباد «شو» وبعضهم من أتباع الديانة البوذية، وكان بعضهم يعبد الشمس

(١) رحلة هوئن سوئنج «فو كوى كى» الدولة الغربية.

وبعضهم يعبد «وشنو» وكان لكل واحد أن يخص من الآلهة أحداً بعبادته أو يعبدهم جميعاً^(١).

• الشهوة الجنسية الجامحة:

وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم، فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل في صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت في صميم الديانة في البلاد الهندية، وقد تناقلت الكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسيين من الآلهة وغارة بعضها على البيوتات الشريفة تستك منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء، وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المردددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح، زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر «مهاديو»، وتصويرها في صورة بشعة، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات، زد إليه كذلك ما يحدث به بعض المؤرخين أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدون الرجال العراة^(٢) وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيته، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين فما ظن القاريء ببلاط الملوك وقصور الأغنياء؟! فقد تنافس فيها رجالها في إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة فتواري الأدب وتبرقع الحياء.. هكذا أخذت البلاد موجة طاغية من الشهوات الجنسية والخلاعة، وأسفت أخلاق الجنسيين إسفاً كبيراً.

(١) أيضاً.

(٢) ستيارته برকাশ لدينالد سرسرتى الهندكى ص ٣٤٤.

• نظام الطبقات الجائر:

أما نظام الطبقات فلم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظام طبقى أشد قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي فى آخر العهد الوبدى بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجاتها، وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمنية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى، وألف فيه قانون مدنى وسياسى اتفق عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ «منو شاستر».

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهى (١) البراهمة، طبقة الكهنة ورجال الدين (٢) شترى رجال الحرب (٣) ويش رجال الزراعة والتجارة (٤) شودر رجال الخدمة، ويقول «منو» مؤلف هذا القانون:

«إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه، وشترى من سواعده، ويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصالح العالم. فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور للآلهة وتعاطى الصدقات، وعلى الشترى حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة «ويد» والعزوف عن الشهوات، وعلى ويش رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث» (١).

● امتيازات طبقة البراهمة:

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق، وأن ما فى العالم هو ملك لهم، فإنهم فضل الخلائق وسادة الأرض^(١) ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر - من غير جريرة - ما شاءوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده^(٢).

وإن البرهمى الذى يحفظ زك ويد «الكتاب المقدس» هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله^(٣)، ولا يجوز للملك حتى فى أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبى من البراهمة جباية أو يأخذ منهم إتاوة، ولا يصح لبرهمى فى بلاده أن يموت جوعاً^(٤) وإن استحق برهمى القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل^(٥).

أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين «ويش وشودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير فيقول «منو»: إن البرهمى الذى هو فى العاشرة من عمره يفوق الشترى الذى ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده^(٦).

● المنبوذون الأشقياء:

أما شودر «المنبوذون» فكانوا فى المجتمع الهندى - بنص هذا القانون المدنى الدينى - أحط من البهائم وأذل من الكلاب، فيصرح القانون بأن «من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك»^(٧). وليس لهم أن يقتنوا مالا أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذى البراهمة^(٨)، وإذا

(١) أيضاً.

(٢) الباب الثامن.

(٣) الباب التاسع.

(٤) الباب التاسع.

(٥) الباب الثانى.

(٦) منوشاستر الباب الحادى عشر.

(٧) أيضاً.

(٨) الباب العاشر.

مد أحد من المنبوذين إلى برهمى يداً أو عصاً ليطش به قطعت يده، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله^(١)، وإذا هم أحد المنبوذين أن يجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوى استه وينفيه من البلاد^(٢)، وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتاً فائراً^(٣)، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء^(٤).

• مركز المرأة في المجتمع الهندي:

وقد نزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء^(٥)، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج^(٦) فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء، وقد تحرق نفسها على إثر زوجها تفادياً من عذاب وشقاء الدنيا، وهكذا صارت هذه البلاد المخصصة أرضاً وعقولاً، وهذه الأمة - التي وصفها بعض مؤرخي العرب بكونها معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة^(٧) بعد عهدها عن الدين الصحيح وضياع مصادره وتحريف رجال الدين وإمعان الناس في القياس والتخمين واتباع هوى النفوس ونزعات الشهوات. . أصبحت هذه البلاد مسرحاً للجهل الفاضح والوثنية الوضيعة والقسوة الهمجية والجور الاجتماعي الذي ليس له مثيل في الأمم ولا نظير في التاريخ.

(١) أيضاً.

(٢) الباب الثامن.

(٣) منوشاستر.

(٤) R.C. Dutt 342 - 343

(٥) اقرأ استهلال قصة مها بهارات (الملحمة الهندية الكبرى).

(٦) R. C. Dutt 331

(٧) صاعد الأندلسي م ٤٦٢، طبقات الأمم ص ١١.

• العرب: خصائصهم ومواهبهم:

أما العرب فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقدح المعلن، كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة والصراحة في القول وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة.

ولكن ابتلوا في العصر الأخير -بعد عهدهم من النبوة والأنبياء وانحصارهم في شبه جزيرتهم وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليدهم أمتهم بانحطاط ديني شديد ووثنية سخيفة قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة، وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق فاسدة المجتمع متضععة الكيان حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية وبعيدة عن محاسن الأديان.

• وثنية الجاهلية:

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة، كانوا يعتقدون في الله أنه إله أعظم، خالق الأكوان ومدبر السماوات والأرض، بيده ملكوت كل شيء فلئن سئلوا: من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم، ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِهِمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١) ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي تسع توحيد الأنبياء في خلوصه وصفائه وسموه، وما كانت أذهانهم البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تسيغ أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السموات العلى ويحظى عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة، قياساً على هذا العالم القاصر وعاداته وأوضاع الملوكية الفاسدة، ومجاري الأمور فيها، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء، وقاموا نحوهم ببعض العبادات ورسخت في أذهانهم

(١) الزخرف: ٨٧.

فكرة الشفاعة حتى تحولت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر، ثم ترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون، وقدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والإعطاء والمنع، فإذا كان الأولون يعترفون لله بالألوهية والربوبية الكبرى، ويكتفون بالشفعاء والأولياء كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والإيجاد والإفناء مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب^(١).

• أصنام العرب في الجاهلية:

ولم يزل هذا الفريق الثانى يقوى أمره ويستفحل مع إمعان القوم فى الجاهلية وقرب هذه النزعة الوثنية إلى الحواس والمحسوسات، واتفاقه مع ضعف التفكير حتى أصبحت هذه العقيدة السائدة، وأصبح الذين يميزون بين الآلهة والوسطاء شواذ فى الأمة، ومن رجال الطبقة المثقفة، وهكذا انغمست الأمة فى الوثنية وعبادة الأصنام بأشنع أشكالها، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصى: قال الكلبي: كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً^(٢). واستهترت العرب فى عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم، وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب^(٣)، وكان فى جوف الكعبة -البيت الذى بنى لعبادة الله وحده- وفى فنائها ثلاثمائة وستون صنماً^(٤)، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة.

(١) راجع كتاب «بيئة النبي ﷺ من القرآن» - للأستاذ محمد عزت دروزة.

(٢) كتاب الأصنام ص ٣٣.

(٣) كتاب الأصنام ص ٣٣.

(٤) الجامع الصحيح للبخارى كتاب المغازى باب فتح مكة (٤٢٨٧).

روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به^(١).

وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر فتزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذها رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه^(٢).

● الآلهة عند العرب:

وكان للعرب - شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان - آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم، ويتوسلون بهم عند الله. واتخذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم^(٣).

قال الكلبي: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن^(٤).

وقال صاعد: كانت حمير تعبد الشمس، وكنانة القمر وقيم الدبران، ولخم وجذام المشتري، وطىء سهيلاً، وقيس الشعرى العبور، وأسد عطارداً^(٥).

● اليهودية والنصرانية في بلاد العرب:

وانتشرت اليهودية والنصرانية في بلاد العرب. ولم تستفد منها العرب كثيراً من المعانى الدينية، وكانتا نسختين من اليهودية في الشام، والنصرانية في بلاد الروم والشام قد طرأ عليها من التحريف والزيغ والوهن ما شرحناه من قبل.

(١) الجامع الصحيح للبخارى كتاب المغازى باب وفد بنى حنيفة (٤٣٧٦).

(٢) كتاب الأصنام.

(٣) كتاب الأصنام ص ٤٤.

(٤) أيضاً ص ٣٤.

(٥) طبقات الأمم لصاعد ص ٤٣٠.

• الرسالة والإيمان بالبعث:

أما الرسالة فقد تصور العرب للنبي صورة خيالية، وتمثلوه في ذات قدسية، لا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يلد ولا يمشی في الأسواق. وكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هنالك بعثًا بعد الموت، وحياة بعد هذه الحياة، فيها الحساب، والثواب والعقاب، وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١) وقالوا: ﴿أَنذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَنَّنَا لَمَبْعُوْثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾^(٢).

قال صاعد: كان جمهورهم ينكر ذلك «الميعاد» لا يصدق بالمعاد ولا يقول بالجزاء، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبید، وإن كان مخلوقًا مبتدعًا، وكان فيهم من يقر بالمعاد، ويعتقد إن نحرت ناقتة على قبره يحشر راكبًا ومن لم يفعل ذلك يحشر ماشيًا^(٣).

• الأدواء الخلقية والاجتماعية:

أما من جهة الأخلاق، فكانت فيهم أدواء وأمراض متأصلة، وأسبابها فاشية، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم، تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وشغلت جانبًا كبيرًا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب^(٤) وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائمًا، يرفرف عليها علم يسمى غاية.

قال لبید^(٥):

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

(١) من آية ٢٤ الجاثية.

(٢) من آية ٤٩ من الإسراء.

(٣) أيضا ص ٤٤.

(٤) اقرأ كتاب المخصص لابن سيده ج ١١ ص ٨٢ - ١٠١.

(٥) السبع المعلقة، معلقة لبید.

وكان من شريع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفًا لبيع الخمر، كما قال لبيد: وغاية تاجر، وقال عمرو بن قميئة^(١):

إذا سحب الريط والمروط إلى أدنى تجارى وأنقض اللما

وكانت القمار من مفاخر الحياة الجاهلية، قال الجاهلي^(٢):

أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يابن ربطة ظاهر

نحاسبى بها أكفاءنا ونهينا ونشرب فى أثمانها ونقامر

وكان عدم المشاركة فى مجالس القمار عارًا، يقول الشاعر^(٣):

وإذا هلكت فلا تريدى عاجزاً غساً ولا برماً ولا معزالا

قال قتادة: كان الرجل فى الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزينا سلبيا ينظر إلى ماله فى يد غيره، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضا^(٤).

وكان أهل الحجاز، العرب واليهود، يتعاطون الربا وكان فاشيا فيهم، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة، قال الطبرى: كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السنين، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له: تقضىنى أو تزيدنى؟ فإن كان عنده شىء يقضيه قضى وإلا حوله إلى السن التى فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية، ثم حقة ثم جذعة ثم رباعيا هكذا إلى فوق. وفى العين يأتيه، فإن لم يكن عنده أضعفه فى العام القابل وإن لم يكن عنده أضعفه أيضا فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه^(٥).

(١) ديوان الحماسة.

(٢) ديوان الحماسة.

(٣) ديوان الحماسة.

(٤) تفسير الطبرى: تفسير آية «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء» الآية.

(٥) تفسير الطبرى «ج ٤ ص ٥٩».

وقد رسخ الربا فيهم وجرى منهم مجرى الأمور الطبيعية التي صاروا لا يفرقون بينه وبين التجارة الطبيعية وقالوا إنما البيع مثل الربا، وقال الطبري إن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم لغريم الحق: «زدني في الأجل وأزيدك في مالك» فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: هذا ربا لا يحل، فإذا قيل لهما ذلك قالا: سواء علينا زدنا في أول البيع أو عند محل المال^(١).

ولم يكن الزنى نادراً وكان غير مستنكر استنكاراً شديداً، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد، وكانوا قد يكرهون بعض النساء على الزنى، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنى يأخذون أجورهن^(٢).

قالت عائشة: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع مما جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاظه ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك^(٣).

(١) تفسير الطبري، ص ٦٩.

(٢) تفسير الطبري ج ١٨ ص ٤٠١.

(٣) الجامع الصحيح للبخاري كتاب النكاح باب من قال: لا نكاح إلا بولي (٥١٢٧).

• المرأة في المجتمع الجاهلي:

وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحييف، وتؤكل حقوقها وتبتز أموالها وتحرم إرثها وتعزل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه وتورث كما يورث المتاع أو الدابة، عن ابن عباس قال: «كان الرجل إذا مات أبوه أو حميه فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها أو تموت فيذهب بمالها!» وقال عطاء بن أبي رباح: إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم، وقال السدي: إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهي أحق بنفسها^(١) وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها، يؤخذ مما تؤتى من مهر وتمسك ضراراً للاعتداء^(٢)، وتلاقى من بعلمها نشوزاً أو إعراضاً وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة^(٣)، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد^(٤).

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد، ذكر الهيثم بن عدي -على ما حكاه عنه الميداني- أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة، فجاء الإسلام، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن، ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء

(١) تفسير الطبري ج ٤ ص ٣٠٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣١.

(٣) النساء آية ١٣٩.

(٤) الأنعام ١٤٠.

(سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه الصفات، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب فكان العرب يشتريهم بعض سراة العرب وأشرافهم^(١). قال صعصعة بن ناجية: جاء الإسلام وقد فديت ثلاثمائة موءودة^(٢) ومنهم من كان ينذر -إذا بلغ بنوه عشرة- نحر واحداً منهم كما فعل عبد المطلب، ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله -سبحانه عما يقولون- فألحقوا البنات به تعالى، فهو عز وجل أحق بهن^(٣).

وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبيكات، وقد كان بعضهم يلقي الأثني من شاهق^(٤).

• العصبية القبلية والدموية في العرب:

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، وكان أساسها جاهلياً تمثله الجملة الماثورة عن العرب: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين.

وكانت في المجتمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها، وامتيازاً، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج، فلا تقف بعرفات وتتقدم على الناس في الإفاضة والإجازة^(٥)، وتنسأ الأشهر الحرم، وكان النفوذ والمناصب العليا والنسب

(١) اقرأ بلوغ الأرب في أحوال العرب للآلوسي.

(٢) كتاب الأغاني.

(٣) بلوغ الأرب.

(٤) أيضاً.

(٥) سورة البقرة آية ١٩٩.

متوارثًا، يتوارثه الأبناء عن الآباء، وكانت طبقات مسخرة، وطبقات سوقة وعوام، فكان التفاوت الطبقي من مسلمات المجتمع العربى.

وكان الحرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية، وألهمتهم إياه معيشتهم البدوية، حتى صارت الحرب مسلاة لهم وملهى فقال قائلهم^(١):

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر، فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابنى وائل ومكثت أربعين سنة أريقَت فيها دماء غزيرة، وما ذاك إلا لأن كلياً -رئيس معد- رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها وقتل جساس بن مرة كلياً، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب، وكان كما قال المهلهل أخو كليب: «قد فنى الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد، دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن»^(٢).

كذلك حرب داحس والغبراء فما كان سببها إلا أن داحساً فرس قيس ابن زهير كان سابقاً فى رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة فلطم وجهه وشغله، ففاته الخيل، وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثار ونصر القبائل لأبنائها، وأسر ونزح للقبائل، وقتل فى ذلك ألوف من الناس^(٣).

وكانت الحياة كلها شبكة محبوكة من تراث وثارَات فشت حبائلها فى القبائل وأوصى بها الآباء الأبناء، وحملت العيشة البدوية وقلة أسباب الحياة، والطمع والجشع، والأحقاد والاستهانة بحياة الإنسان على الفتك والسلب والنهب، حتى كانت أرض الجزيرة كفة حابل لا يدرى الإنسان متى يغتال وأين ينهب. وكان الناس يتخطفون من بين عشيرتهم فى القوافل، حتى احتاجت الدول القوية إلى الخفارة الساهرة، والبذرة القوية^(٤)، فكانت غير

(١) ديوان الحماسة.

(٢)، (٣) انظر أيام العرب.

(٤) البذرة: الخفارة والحراسة.

كسرى تبذرق من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة، والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى تدفع إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة فيبذرقها حتى تخرج من أرض بنى حنيفة، ثم تدفع إلى تميم وتجعل لهم جعالة فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن وتسلم إلى عمال كسرى باليمن^(١).

• ظهر الفساد فى البر والبحر:

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح ماثور عن الأنبياء.

• لمعات فى الظلام:

وكان النور الضعيف الذى يترأى فى هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة والكنائس أشبه بالحباحب الذى يضىء فى ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام، ولا ينير السبيل، وكان الذى يخرج فى ارتياد العلم الصحيح، وانتجاع الدين الحق يهيم على وجهه فى البلاد، ترفعه أرض وتخفضه أخرى، حتى يأوى إلى رجال شواذ فى الأمم والبلاد، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مكسرة، هشمها الطوفان، يدل على ندرتهم خبر سلمان الفارسي أكبر الرواد الدينين فى القرن السادس الذى شرق وغرب فى الفحص عنهم، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل، ومن الموصل إلى نصيبين، ومن نصيبين إلى عمورية، ويوصى به بعضهم إلى بعض، حتى أتى على آخرهم فلم يجد لهم خامساً، وأدركه الإسلام فى هذا الظلام، قال سلمان:

«لما قدمت الشام، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف فى الكنيسة! قال فجئته، فقلت: إني قد رغبت فى هذا الدين، وأحببت أن

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٣٣.

أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل، فدخلت معه، قال فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزها لنفسه، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً، قالوا: وما علمك بذلك؟ قال قلت: أنا أدلكم على كتزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً، قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة، ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه، قال: فأحببته حباً لم أحبه من قبل وأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له يا فلان: إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصى بي، وما تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان، فهو على ما كنت عليه فالحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى، فإلى من توصى بي وما تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر

قلت له: يا فلان إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما نعلم أحداً بقى على أمرنا آمرك أن تأتیه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبرى، فقال: أقم عندى، فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت كان لى بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له: يا فلان، إنى كنت مع فلان، فأوصى بى فلان إلى فلان، وأوصى بى فلان إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى، والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتیه، ولكنه قد أظلك زمان نبى هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل» . . إلخ^(١).

(١) رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس عن سلمان، ورواه الحاكم فى مستدركه، والرواية لاتصال سندها وعدالة رواتها من أصح الوثائق التاريخية عن الجاهلية وحالتها الدينية.

الفصل الثاني

النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي

• الملكية المطلقة:

كان العصر الجاهلي مسرحاً للحكم الجائر المستبد، فقد كانت السياسة في هذا العصر ملكية مطلقة، قد تقوم على تقديس البيوتات الخاصة، كما كان في فارس، فقد كان آل ساسان يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله، وقد عملوا كل ما في استطاعتهم للتأثير في رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكي المقدس وصارت لهم عقيدة يدينون بها، وقد تقوم على تقديس الملوك مطلقاً، فكان الصينيون يسمون ملكهم الإمبراطور ابن السماء، ويعتقدون أن السماء ذكر، والأرض أنثى، وقد ولد الكائنات، وكان الإمبراطور ختاً الأول هو بكر هذين الزوجين^(١)، وكان الإمبراطور يعتبر كالأب الوحيد للأمة، له أن يفعل ما يشاء، وكانوا يقولون له: «أنت أبو الأمة وأمها». ولما مات الإمبراطور «لى يان» أو «تاي تسونغ» لبست الصين ثوب الحداد، وحزنت الأمة حزناً شديداً، فمنها من أثخن وجهه بالإبر، ومن قطع شعره، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش، وقد تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان في المملكة الرومية، فكان المبدأ هو تقديس الوطن الرومى، والشعب الرومى ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروفاً يجرى منها الدم إلى مركزها، كانت الدولة تستهين في ذلك بكل حق ومبدأ، وتدوس كل شرف وكرامة، وتستحل كل ظلم وشناعة، ولا يمنع بلاداً من هذا الحيف والظلم اشتراك في دين وعقيدة ولا إخلاص ووفاء للمملكة، ولا يعترف لها في زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها في أرضها إنما هي ناقة ركوب في بعض الأحيان، حلوب في بعضها، لا يقدم لها العلف إلا ما يقيم صلبها ويدر ضرعها.

(١) تاريخ الصين لجميز كاركرن.

يقول (Robert Briffault) عن الدولة الرومية:

«لم يكن سبب انقراض الدولة الرومية وسقوطها الأساسى الفساد الزائد (كالرشوة وغيرها) بل كان الفساد والشر وعدم المطابقة بالواقع مما صحب نشوء هذه الدولة من أول يومها وتغلغل فى أحشائها. إن كل مؤسسة بشرية تقوم على أساس زائف منها ولا تستطيع أن تنقذ نفسها بذكاء أو نشاط، ولما كان الفساد مما قامت عليه هذه الدولة فكان لا بد أن تبيد يوماً وتنهار، لقد رأينا أن الدولة الرومية إنما كانت وسيلة لرفاهية طبقة صغيرة على حساب الجماهير الذين كانت هذه الطبقة تستغلهم وتمتص دماءهم، لقد كانت التجارة تسير فى رومة بأمانة وعدل وقد كان ذلك مما طبعت عليه هذه الدولة، وقد كانت فائقة فى قوة الحكم والقضاء، وفى الكفاءة، ولكن هذه المحاسن كلها لم تكن لتحفظ الدولة من عواقب الزيف الأساسى والخطأ^(١).

• الحكم الرومانى فى مصر والشام:

يقول الدكتور الفرد . ج. بتلر عن الحكم الرومانى فى مصر:

«إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم»^(٢).

ويقول مؤرخ عربى شامى عن الحكم الرومانى فى الشام:

«كانت معاملة الرومانى للشاميين بادئ بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم فى داخليتها من المشاغب والمتاعب. ولما شاخت دولتهم انقلبت

(١) The Making of Humanity, by Robert Briffault p. 159.

(٢) فتح العرب لمصر للدكتور الفرد . ج. بتلر، تعريب محمد فريد أبو حديد.

إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، ولم تضاف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضاً رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام»^(١).

«حكم الرومان الشام سبعمائة سنة بدأ معهم في البلاد النزاع والشقاق والاستبداد والأثنية وقتل الأنفس، وحكم اليونان الشام ٣٦٩ سنة سادت في عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم وظهرت المطامع اليونانية بأعظم مظاهرها وكان حكمهم من أشد الويلات وأشأم النكبات على الأمة الشامية»^(٢).

وبالاختصار كانت الولايات الرومية والفارسية غير مرتاحة في حكم الأجانب وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية مضطربة حتى في مراكز الدولة وعواصمها.

● نظام الجباية والخراج في إيران:

ولم يكن النظام المالي والسياسة المالية في إيران عادلة مستقرة بل كانت جائرة مضطربة في كثير من الأحوال، تابعة لأخلاق الجباة العاملين وأهوائهم والأحوال السياسية والحربية.

يقول مؤلف «إيران في عهد الساسانيين»:

«كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال، ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجها مقدرين مضبوطين، وقد كانت الحرب تنشب في بعض الأحيان وليست عند الدولة أموال تنفقها على الحرب، فكان

(١) خطط الشام للأستاذ كرد علي ج ١ ص ١٠١.

(٢) أيضاً ج ١ ص ١٠٣.

يلجئها ذلك إلى ضرائب جديدة، وكانت المقاطعات الغربية الغنية - وخاصة بابل - هدف هذه الضرائب دائماً»^(١).

• كنوز الملوك ومد خراتها:

ولم يكن ما ينفق على أهل البلاد في إيران من مالية الدولة شيئاً كثيراً، وقد اعتاد ملوك إيران من القديم أن يكتنزوا النقود ويدخروا الطرف والأشياء الغالية^(٢)، ولما نقل خسرو الثاني في المدائن إلى بناية أحدثها سنة ٦٠٧ - ٦٠٨ م وكان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين مثقال ذهب وذلك ما يساوي ٣٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبي، وفي العام الثالث عشر من جلوسه على العرش كان في خزائنه ٨٠٠ مليون مثقال ذهب^(٣).

• الفصل التاسع بين طبقات المجتمع:

كان الغنى لأفراد معدودين والفقير لمعظم الأهلين، يقول مؤلف «إيران في عهد الساسانيين» عن أخصب عهد من عهود إيران وعن أعدل ملك من ملوكها وهو كسرى أنوشروان:

«إن ما قام به كسرى من إصلاح النظام المالي كان من مصلحة مالية المملكة أكبر منه في مصلحة الرعية، فلم تزل العامة يعيشون في الجهل والضنك كما كانوا في السابق، وما شاهد الفلاسفة البيزنطيون من فوارق نسبية بين طبقات المجتمع والفصل الشاسع بينها والبؤس الذي كان يعيش فيه رجال الطبقات المنحطة أقلق خاطرهم وانتقدوا المجتمع الفارسي بقولهم: إن الأقوياء فيه يقهرون الضعفاء ويعاملونهم بظلم وبقسوة شديدة»^(٤).

وكانت المناصب وقفاً على بعض البيوتات والسلائل ذات الثروة والجاه والنفوذ عند الحكام.

(١) إيران في عهد الساسانيين ص ١٦١.

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ١٦٢.

(٣) إيران في عهد الساسانيين ص ٦١١.

(٤) إيران في عهد الساسانيين ص ٥٩٠.

ويقول (Robert Briffault) عن النظام الطبقي فى الدولة الرومية:

«مما جرت العادة أنه إذا أصيبت مؤسسة اجتماعية بالزوال والانحطاط لا يرى القائمون عليها حيلة إلا أن يمنعوها من الحركة والتطور، لذلك كان المجتمع الرومى (فى عهد الانحطاط) خاضعاً لنظام طبقي جائر يروح تحته، وما كان لأحد فى هذا المجتمع أن يغير حرفته، وكان لابد للابن أن يتخذ حرفة أبيه»^(١).

● الفلاحون فى إيران؛

أثقلت الضرائب المتنوعة المتجددة كاهل الجمهور حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية لأمة لا يحبونها أو لغرض لا يتحمسون له، وفشت فى الناس البطالة والجنايات وطرق غير مشروعة للكسب.

يقول مؤلف «إيران فى عهد الساسانيين»:

«كان الفلاحون فى شقاء وبؤس عظيم وكانوا مرتبطين بأراضيهم، وكانوا يُستخدمون مجاناً ويكلفون كل عمل، يقول المؤرخ «إميان مارسيلينوس» إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجره^(٢) وكانت علاقة الفلاحين بالملك أصحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالسادة»^(٣).

● الاضطهاد والاستبداد؛

واضطهد اليهود فى الشام والعراق واليعقوبيون فى مصر اضطهاداً كبيراً واستبد الحكام استبداداً شديداً وعاثوا فى البلاد والدماء والأموال والأعراض،

(١) The Making of Humanity p. 160

(٢) أيضاً ص ٤٢٤.

(٣) أيضاً ص ٤٢٤.

وتصام أهل الحل والعقد عن شكواهم حتى صار الناس يعدون هذه الأوضاع الفاسدة ضربة لازم وقضاء محتوماً، وصاروا في بعض الأيام يفضلون الموت على الحياة.

• المدنية المصطنعة والحياة المترفة:

استحوذت على الناس في الدولتين -الفارسية والرومية- حياة الترف والبذخ وطغى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزورة، وغرقوا فيه إلى أذقانهم. فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين في غفلتهم لا هم لهم إلا اللذة والتهام الحياة، وبذخوا بذخاً عظيماً تخطى القياس، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشى الحياة تدقيقاً عظيماً جداً، فكان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسون ألف جواد وشيء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة، وقصره مثال في الأبهة والغنى^(١)، يقول مكاريوس:

«لم يرو في التاريخ، أن مليكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجرايات من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى^(٢) ولما خرجوا من العراق في الفتح الإسلامي تركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطف والأدهان ما لا يدرى ما قيمته».

وقد وجد العرب قباًباً تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص، قال العرب: فما حسبتها إلا طعاماً فإذا هي آنية الذهب والفضة^(٣).

ووصف المؤرخون العرب بهار كسرى الذى أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا:

(١) تاريخ إيران لشاهين مكاريوس طبع ١٨٩٨ ص ٩٠.

(٢) أيضاً ص ٢١١.

(٣) تاريخ الطبرى.

«هو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً، بساط واحد مقدار جريب، أرضه بذهب ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء الذهب فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدير وفي حافته كالأرض المزروعة، والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك، وكانوا يعدونه للشتاء، إذا ذهب الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكانهم في رياض»^(١)، وهذا يدل على ما وصل إليه البذخ والترفة في المدنية الفارسية.

كذلك كان الشام في الدولة الرومية وحواضرها، وكانت الدولتان والمدنيتان الفارسية والرومية . . كفرسى رهان في البذخ والترفة في دقائق المدنية، وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم في الشام بذخاً عظيماً وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم ولهوهم من آلات الترف وأسباب الرفاهية شيئاً كثيراً، وبلغت من الترف والأناقة شأواً بعيداً، وقد وصف حسان بن ثابت الشاعر المخضرم مجلس جبلة بن الأيهم الغساني فقال: لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين غناء أهل الحيرة أهدهن إليه إياس بن قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً، وإن صائفاً بطن بالثلج، وأتى هو وأصحابه بكسى صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه^(٢).

وكان الأمراء والأقوال والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة وأفراد الطبقة الوسطى على آثار الملوك يحاولون أن يقلدوهم في لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم، وارتفع

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٧٨.

(٢) الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني ج ١٤، ص ٢.

مستوى الحياة ارتفاعاً عظيماً، وتعددت المدنية تعقداً عظيماً، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة، وكان لا بد منه لكل شريف أو وجيه، حتى إذا أخل به وأغفله أشير إليه بالبنان وتفادته العيون، حتى صار ذلك واجباً من واجبات الحياة وشرعية من شرائع المجتمع التي لا يحل العدول عنها. عن الشعبي قال: كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائهم، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف، وكان هرمز ممن تم شرفه فكانت قيمتها مائة ألف وكانت مفصصة بالجوهر^(١)، وتما شرف أحدهم أن يكون من بيوتات السبعة ومن الأزدية، كان مرزبان الخيرة أزمان كسرى، وكان قد بلغ نصف الشرف، وكانت قيمة قلنسوته خمسين ألفاً^(٢) وبيع ما على رستم بسبعين ألفاً وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف^(٣).

درج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ورضعوا بلبانها ونشأوا عليها حتى أصبحت لهم الطبيعة الثانية، وعز عليهم الفصال وشق عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى في ساعة عصيبة وفي فاقة واضطرار، ذكروا أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما فر من المدائن أخذ معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم للنمر وألف قيم للبراة وآخرين وكان يستقل هذا العدد^(٤)، واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر فأتى به في قدح غليظ، فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا. فأتى به في إناء يرضاه^(٥).

• الزيادة الباهظة في الضرائب.

كانت نتيجة هذا البذخ والترف الطبيعية الزيادة الباهظة في الضرائب

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٦.

(٢) أيضاً ص ١١.

(٣) أيضاً ص ١٣٤.

(٤) «إيران في عهد الساسانيين» لأرتھر كرستن: ص ٦٨١.

(٥) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦١.

ومن القوانين الجديدة لابتزاز الأموال من طبقات الفلاحين والصناع والتجار وأهل الحرف حتى وصلت إلى حد الإرهاق وأثقلت كاهل الأهلين وأنقضت ظهرهم.

يقول مؤلف «إيران في عهد الساسانيين» :

وقد جرت عادة ملوك إيران بقبول الهدايا والتقديمات من الرعية وكانوا يسمون ذلك «آين» وكان ذلك علاوة على الضرائب الرسمية، وكانوا يأخذون من الناس الهدايا جبراً يوم نوروز والمهرجان وكانت مناجم الذهب في أرمينيا ملكاً للملك ولنفقاته الخاصة^(١).

ويقول المؤرخ العربى الشامى :

«كان يقضى على الشعب الشامى أن يؤدى الجزية وعشر غلاته وأتاوة من المال ورسمًا على كل رأس، وللشعب الرومانى موارد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقوق الصالحة لزراع الحنطة والمراعى يؤجرونها من شركات المتعهدين يسمونهم العشارين، يتعاونون من الحكومة حق جباية الخراج، وفى كل ولاية عدة شركات من العشارين، يتعاونون من الحكومة حق جباية الخراج، وفى كل ولاية عدة شركات من العشارين، ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون فى مظهر السادة، ويتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه، ويسلبون نعمة الأهلين، وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق»^(٢).

«أوجز أحدهم السياسة الإمبراطورية فى الرومان بقوله :

«الراعى الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفه» فمضى القرنان وأباطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيراً من الأموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجى»^(٣).

(١) «إيران فى عهد الساسانيين» لأرتھر كرستن: ص ١٦١.

(٢) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ٥ ص ٤٧.

(٣) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ٥ ص ٤٧.

● شقاء الجمهور:

وهكذا أصبح أهل البلاد في كلتا المملكتين طبقتين متميزتين تمام التمييز: طبقة الملوك والأمراء ورجال البلاط الملكي وأسراهم وعشائرتهم والمتصلون بهم والأغنياء، فكانوا يعيشون بين الأزهار والرياحين ويتقلبون في أعطاف النعيم، وينعلون أفراسهم عسجداً، ويكسبون بيوتهم حريراً وسندساً. وطبقة الفلاحين والصناع والتجار الصغار وأهل الحرف والأشغال، كانوا في جهد من العيش: يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات ويرسفون في القيود والأغلال ويعيشون عيشة البهائم، لاحظ لهم في الحياة إلا العمل لغيرهم والشقاء لنعيمهم ولا هم لهم إلا الأكل والعلف، فإذا سئموا هذا العيش المر تعللوا بالمسكرات والملهيات، وإذا تنفسوا من هذا العناء رتعوا في المحرمات، ورغم هذا الجهد في المعيشة يجهدون أنفسهم في تقليد رجال الطبقة العليا في كثير من أساليب حياتهم، فكان ذلك أشد من الجهد في سبيل الكفاف من الرزق والبلغة من العيش، فتنغص حياتهم، ويتكدر صفوهم ويشغل بالهم.

● بين غنى مطغ وفقر منس:

وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء، والأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية في العالم المتمدن المعمور بين غنى مطغ وفقر منس، وأصبح الغنى في شغل عن الدين والاهتمام بالآخرة والتفكير في الموت وما بعده بنعيمه وترفه، وأصبح الفلاح أو العامل في شغل عن الدين كذلك لهمومه وأحزانه وتكاليف حياته، وأصبحت الحياة ومطالبها هم الغنى والفقير وشغلها الشغل، وكانت رحي الحياة تدور حول الناس في قوة لا يرفعون فيها إلى الدين والآخرة رأساً، ولا يفرغون لما يتصل بالروح والقلب والمعاني السامية ساعة.

● تصوير الجاهلية:

وقد صور أحد كبار علماء الإسلام^(١) هذه الحال فأجاد التصوير، قال:

(١) وهو شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٦هـ).

«اعلم أن العجم والروم لما تورثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان، وتعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن^(١) وحمام وبساتين، ولا يكون له دواب فارهة وغلمان حسان، ولا يكون له توسع في المطاعم وتجميل في الملابس، وذكر ذلك يطول، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع، وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدنية وآفة عظيمة، ولم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلايبه، وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرحاء لها، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر تستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تقتنى إلا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمله دينه»^(٢).

(١) فسقية.

(٢) حجة الله البالغة «باب إقامة الارتفاقات إصلاح الرسوم».

الباب الثاني
من الجاهلية إلى الإسلام
الفصل الأول
منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير

● العالم الذي واجهه محمد ﷺ :

بعث محمد بن عبد الله ﷺ والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً، فإذا كل شيء فيه في غير محله، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر، ومنه ما التوى وانعطف، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكاناً آخر، ومنه ما تكس وتكوم.

نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل مالا يملك لنفسه النفع والضرر.

رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته، فلم تعد تسبخ البديهيّات، وتعقل الجليّات، وفسد نظام فكره، فإذا النظريّ عنده بديهيّ وبالعكس، يستريب في موضع الجزم، ويؤمن في موضع الشك، وفسد ذوقه فصار يستحلى المر ويستطيب الخبيث، ويستمرىء الوخيم، وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم، ولا يحب الصديق الناصح.

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله، قد أصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظياً، والصالح محروقاً شقيّاً ولا أنكر في هذا المجتمع من المعروف ولا أعرف من المنكر. ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية، وتسوقها إلى هوة الهلاك.

رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار، وتعاطى الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنهامة. ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد.

رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله خولاً. ورأى أحباراً

ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة ، لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح فعادت وبالأعلى أصحابها وعلى الإنسانية ، فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية ، والجود تبذيراً وإسرافاً ، والأنفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلة لابتكار الجنيات ، والإبداع فى إرضاء الشهوات .

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق ، ينتفع بها فى هيكل الحضارة ، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة .

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، والسلطان كسيف فى يد سكران يجرح به نفسه ، ويجرح به أولاده وإخوانه .

• نواحي الحياة الفاسدة:

إن كل ناحية من نواحي هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح وتشغل باله ، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفر على إصلاح ناحية من نواحيها ، وظل طول عمره يعالج عيباً من عيوب المجتمع ويعانيه ، ولكن نفسية الإنسان معقدة التركيب دقيقة النسيج كثيرة المنافذ والأبواب . . . ، خفية التخلص والتنصل ، وإنها إذا زاغت أو اعوجت لا يؤثر فيها إصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها ، حتى يغير اتجاهها من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الإصلاح ، وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التى قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية فى أرض كريمة ، وتحسم مادة الشر ويغرس فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عز وجل .

وكل داء من أدواء المجتمع الإنسانى ، وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب إصلاحه حياة كاملة ، ويستغرق عمر إنسان بطوله ، وقد

يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول، فإذا ذهب أحد يطارد الخمر في بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة، أعياه أمرها وحبطت جهوده، لأن شرب الخمر ليس إلا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى في السم، وتبتغي النشوة حتى في الإثم، فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية ومفاسدة الخلقية، وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة^(١) لا تهجره إلا بتغيير نفس عميق، وإذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسلفت إلى غيره من أنواع الجريمة أو استباحته بتغيير الأسماء والصور.

• لم يكن الرسول رجلاً إقليمياً أو زعيماً وطنياً؛

وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحاً إذا كان الرسول ﷺ رجلاً إقليمياً وسار في قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين، كان له أن يعقد للأمة العربية لواء تنضم إليه قريش والقبائل العربية، ويكون إمارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها، ولا شك أن أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهما كانوا في مقدمة من ينضم إلى هذا اللواء القومي، ويقاثلون تحته ويقلدونه الزعامة، أما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته؟ أما حكموه في أكبر حادث من حوادث حياتهم المكية ومنحوه أكبر شرف، إذ حكموه في وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت؟ أما قالوا له على لسان عتبة، وهم ما

(١) منعت حكومة أمريكا الخمر، وطاردها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدرّون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ ملايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس، وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفس، وبلغت الغرامات إلى ١٦ مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر وعناداً في تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣م إلى سحب القانون وإباحة الخمر في مملكتها بإباحة مطلقة «من كتاب تنقيحات للأستاذ أبي الأعلى المودودي».

عرفوا الإغراء السياسى : «إن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأساً ما بقيت»^(١)، وإذا صار له ذلك كان يمكنه أن يرمى الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم، ويتنصر للعروبة المهضومة، ويتنصر من العجم الظالمين، ويغرز علم الفتوح العربى والمجد القومى على هضاب الروم وفارس، وإذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز إحدى الإمبراطوريتين فى ذلك الحين، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة أو جارة أخرى ويضمها إلى الإمارة العربية الوليدة.

وكانت فى الحياة العربية نواح اجتماعية واقتصادية كثيرة تحتاج إلى حنكة سياسى وكفاية إدارى وعزيمة عصامى وابتكار عقبرى، فلو قيض لها رجل من هؤلاء الرجال لكان للعرب شأن كبير وتاريخ جديد.

● لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل؛

ولكن محمداً ﷺ لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل ويبدل عدواناً بعدوان، ويحرم شيئاً فى مكان ويحله فى مكان آخر، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى، لم يبعث زعيماً وطنياً أو قائداً سياسياً، يجر النار إلى قرصه ويصغى الإناء إلى شقه ويخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان. وإنما أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، إنما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم.

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن دون وطن، ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنسانى، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها

(١) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى ص ٤٣ ج ٣.

أحق من يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافي واستقلالها السياسى خير مركز لرسالته، وكانت الأمة العربية بخصائصها ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته.

● قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها:

ولم يكن ﷺ من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها، أو يتسللون إليها من نوافذها، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتا فى بعض نواحي البلاد، ومنهم من يموت ولم ينجح فى مهمته^(١).

أتى النبى ﷺ بيت الدعوة والإصلاح من بابه، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، ذلك القفل المعقد الذى أعيا فتحه جميع المصلحين فى عهد الفترة، وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه، ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده، ورفض الأوثان والعبادات والكفر بالطاغوت بكل معانى الكلمة، وقام فى القوم ينادى: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا!» ودعاهم إلى الإيمان برسالته، والإيمان بالآخرة.

(١) إن غاندى الزعيم الهندى الكبير هدف من أول حياته السياسية والروحية إلى مبدأين عظيمين حصر فيهما زعامته السياسية وشخصيته الروحية القوية النادرتين فى هذا العصر جعلهما شعاراً لمبدئه: الأول: «لا عنف ولا مقاومة» وقد دعا إلى هذا المبدأ كديانة وفلسفة، وظل سنين طويلاً يدعو إليه بخطبه ومقالاته وصحفه، واستنفذ فى ذلك جهوده ولما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسى وعن طريق الدعوة الدينية الأساسية لم تؤثر دعوته فى نفسية أمته تأثيراً عميقاً، وقد جعلت هذه الأمة دعوته هباء منثوراً فى الاضطرابات الطائفية العظيمة التى وقعت فى بنجاب الشرقية ودلهى عاصمة الهند فى سبتمبر سنة ١٩٤٧م التى قتل بها من المسلمين أكثر من نصف مليون، وكانت مجزرة هائلة وقع فيها من القسوة والهمجية والاعتداء على الأطفال والنساء والأعراض ما لا يكاد يصدق المؤرخون، حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذى بلغت به أمته حد التقديس والتأليه.

والمبدأ الثانى: نسخ اللمس المنبوذ ولم ينجح فى مهمته هذه كذلك نجاحاً يعتد به، فكان ذلك برهاناً ساطعاً على أن طريق الأنبياء هو الطبيعى الصحيح فى الإصلاح والتغيير.

الفصل الثاني

رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام

● دفاع الجاهلية عن نفسها:

ما أخطأ المجتمع الجاهلى فهم هذه الدعوة ومراميها، وما غم على أهله أمرها، وأدركوا عندما قرع أسماعهم صوت النبى ﷺ أن دعوته إلى الإيمان بالله وحده سهم مسدد إلى كبد الجاهلية ونعى لها، فقامت قيامة الجاهلية ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير، وقاتلت فى سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت، وأجلبت على الداعى ﷺ بخيلها ورجلها، وجاءت بحدها وحديدتها: ﴿وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا لشيء يراد﴾ ووجد كل ركن من أركان هذه الحياة ومن أثافى الجاهلية نفسه مهدداً وحياته منذرة، وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب، وكان ذلك آية توفيق النبى ﷺ لأنه أصاب الغرض، وضرب على الوتر الحساس، وأصاب الجاهلية فى صميمها وفى مقتلها، وثبت النبى ﷺ على دعوته ثبوتاً دونة ثبوت الراسيات، لا يشيه أذى، ولا يلويه كيد، ولا يلتفت إلى إغراء، ويقول لعمه: «يا عم لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه»^(١).

● فى سبيل الدين الجديد:

مكث رسول الله ﷺ ثلاث عشرة حجة يدعو إلى الله وحده والإيمان برسالته واليوم الآخر فى كل صراحة، لا يكنى ولا يلوح ولا يلين، ولا يستكين ولا يحابى ولا يدهن، ويرى فى ذلك دواء لكل داء، وقامت قریش وصاحوا به من كل جانب، ورموه عن قوس واحدة، وأضرموا البلاد عليه

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٣.

ناراً ليحولوا بينه وبين أبنائهم وإخوانهم فأصبح الإيمان به والانحياز إليه جد الجد، لا يتقدم إليه إلا جاد مخلص هانت عليه نفسه، وعزم على أن يقتحم لأجله النيران، وتمشى إليه ولو على حسك السعدان، فتقدم فتية من قريش لا يستخفهم طيش الشباب، ولا يستهويهم مطمع من مطامع الدنيا، إنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة، سمعوا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وقلقت بهم مضاجعهم، فكأنهم على الحسك، ورأوا أنهم لا يسعهم إلا الإيمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا إلى النبي ﷺ، وهو في بلدهم وبين سمغهم وبصرهم، فكانت رحلة طويلة شاقة لما أقامت قريش بينه وبين قومه من عقبات، ووضعوا أيديهم في يديه، وأسلموا أنفسهم وأرواحهم إليه، وهم من حياتهم على خطر، ومن البلاء والمحنة على يقين، سمعوا القرآن يقول:

﴿الْم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾﴾

وسمعوا قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٣﴾﴾ فما كان من قريش إلا ما توقعوه، قد نثرت كنانتها، وأطلقت عليهم كل سهم من سهامها، فما زادهم كل هذا إلا ثقة وتجلداً، وقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٣﴾﴾ ولم يزدتهم هذا البلاء والاضطهاد في الدين إلا متانة في عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتاً للكفر وأهله، وإشعالاً لعاطفتهم وتمحيصاً لنفوسهم فأصبحوا كالتمر المسبوك واللجين الصافي، وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف بعد الجلاء.

(١) العنكبوت: ١-٣.

(٢) البقرة: ٢١٤.

(٣) الأحزاب: ٢٢.

• التربية الدينية:

هذا والرسول ﷺ يغذى أرواحهم بالقرآن ويربى نفوسهم بالإيمان، ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات في اليوم عن طهارة بدن، وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل، فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحسراً من سلطان الماديات ومقاومة للشهوات ونزوعاً إلى رب الأرض والسموات، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس، لقد رضعوا حب الحرب وكأنهم ولدوا مع السيف، وهم من أمة، من أيامها حرب بسوس وداحس والغبراء وما يوم الفجار ببعيد، ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية ويقول لهم: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(١) فانقهروا لأمره وكفوا أيديهم، وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس في غير جن وفي غير عجز، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم في مكة عن نفسه بالسيف مع كثرة الدواعي الطبيعية إلى ذلك وقوتها، وذلك غاية ما روى في التاريخ من الطاعة والخضوع، حتى إذا تعدت قريش في الطغيان وبلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة: وهاجروا إلى يثرب وقد سبقهم إليها الإسلام.

• في مدينة الرسول ﷺ:

والتقى أهل مكة بأهل يثرب، لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد. فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ، وكان الأوس والخزرج لم ينفصوا عنهم غبار حرب بعاث. ولا تزال سيوفهم تقطر دمًا. فألف الإسلام بين قلوبهم. ولو أنفق أحد ما في الأرض جميعاً ما ألف بين قلوبهم. ثم آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين. فكانت أخوة تزرى بأخوة الأشقاء. وتبذ كل ما روى في التاريخ من خلة الأخلاء.

كانت هذه الجماعة الوليدة -المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأئصار- نواة للأمة الإسلامية الكبيرة التي أخرجت للناس ومادة للإسلام،

فكان ظهور هذه الجماعة في هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذي كان يهدده، وعصمة للإنسانية من الفتن والأخطار التي أهدقت بها. لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (١).

• انحلت العقدة الكبرى:

ولم يزل الرسول ﷺ يربيهم تربية دقيقة عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكرى جمرة قلوبهم، ولم تزل مجالس الرسول ﷺ تزيدهم رسوخاً في الدين وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في سبيل المروضة، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم وفقهاً في الدين ومحاسبة للنفس، يطيعون الرسول في المنشط والمكروه، وينفرون في سبيل الله خفاً وثقلاً. قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعاً وعشرين مرة في عشر سنين. وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة. فهان عليهم التخلي عن الدنيا وهانت عليهم رزية أولادهم ونسائهم في نفوسهم. ونزلت الآيات بكثير مما لم يألوه ولم يتعودوه. وبكل ما يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامثال أمرها. وانحلت العقدة الكبرى - عقدة الشرك والكفر - فانحلت العقد كلها وجاهدتهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى. وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى - فكان النصر حليفه في كل معركة، وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى. حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد - نزل تحريم الخمر والكئوس المتدفقة على راحتهم، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدمة، وكسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة.

حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم. وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة وفي اليوم رجال الغد. لا تجزعه مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة. ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم. قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين. وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية إلى دين الله. واستخلفهم الرسول ﷺ في عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته.

• أغرب انقلاب وقع في تاريخ البشر:

لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه ﷺ في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر، وقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء: كان غريباً في سرعته وكان غريباً في عمقه وكان غريباً في سعته وشموله، وكان غريباً في وضوحه وقربه إلى الفهم. فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة، ولم يكن لغزاً من الألغاز. فلندرس هذا الانقلاب عملياً، ولنتعرف مدى تأثيره في المجتمع الإنساني والتاريخ البشري.

• تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول:

كان الناس -عرباً وعجماً- يعيشون حياة جاهلية، يسجلون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم، لا يثيب الطائع بجائزة ولا يعذب العاصي بعقوبة ولا يأمر ولا ينهى، فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية. فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر وتولوا إدارة المملكة وتدير شؤونها وتوزع أرزاقها، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة، فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية، وكان

إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السموات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له: من بنى هذا القصر العتيق؟ فيسمى ملكًا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له، فكان دينهم عاريًا عن الخشوع لله ودعائه، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحبه إليهم، فكانت معرفتهم مبهمّة غامضة، قاصرة مجملّة، لا تبث في نفوسهم هبة ولا محبة.

وهذه الفلسفة اليونانية قد عرفت بواجب الوجود في سلوب، ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنع والرحمة، ولم تثبت له إلا الخلق الأول، ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة، ونفت الصفات وقررت كليات كلها حط من قدر الخالق وقياس على الخلق، والسلوب إذا اجتمعت لم تفد فائدة إيجاب واحد، ولم نعلم مدينة واحدة ولا مجتمعًا ولا نظامًا ولا عملاً ولا بناء قامت على مجرد سلوب، فتجردت الديانة في أوساط الفلسفة الإغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والالتجاء إليه في الحوادث ومحبته بكل القلب، وهكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها وأصبحت طقوسًا وتقاليدها وأشباهًا للإيمان.

انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العلية الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها، آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق الباري المصور، العزيز الحكيم، الغفور الودود، الرؤوف الرحيم، له الخلق والأمر، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه، إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه، يثيب بالجنة ويعذب بالنار، ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر، يعلم الخبء في السماوات والأرض، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه، فانقلبت نفسياتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابًا عجيبًا، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهرًا لبطن،

تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره، وجرى منه مجرى الروح والدم واقتلع جرائم الجاهلية وجذورها، وغمر العقل والقلب بفيضانه وجعل منه رجلاً غير الرجل، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد، وعجز العلم عن تعليقه بشيء غير الإيمان الكامل العميق.

● وخز الضمير:

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملئ على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة وإرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها، وكان أقوى وأزاع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية، حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان وسقط الإنسان سقطة، كان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالاً مروعاً، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة.

وقد حدثنا المؤرخون الثقات في ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا في التاريخ الإسلامي الديني. فمنها ما روى مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي، أتى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله إني ظلمت نفسي وزنيت وإنني أريد أن تطهرني» فردّه، فلما كان الغد أتاه فقال: «يا رسول الله إني قد زنيت» فردّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: «أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم.

قال فجاءت الغامدية فقالت: «يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني» وأنه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردني؟ لعلك أن تردني كما

رددت ماعزًا، فوالله إنى لحبلى، قال: أما لا فاذهبى حتى تلدى. قال: فلما ولدت أخته بالصبي فى خارقة قالت: هذا قد ولدته. قال: فاذهبى فأرضعيه حتى تطعميه. فلما فطمته أخته بالصبي، فى يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله سبه إياها فقال: «مهلاً يا خالد، فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت^(١).

• الثبات أمام المطامع والشهوات؛

وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته. يملك نفسه التزع أمام المطامع والشهوات الجارفة وفى الخلوة والوحدة حيث لا يراها أحد. وفى سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً. وقد وقع فى تاريخ الفتح الإسلامى من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات إلى أهلها والإخلاص لله، ما يعجز التاريخ البشرى عن نظائره، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ومراقبة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان.

حدث الطبرى قال: لما هبط المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط. ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس^(٢).

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود؛ باب: من شهد على نفسه بالزنا رقم ١٦٩٢.

(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦.

• الأنفة وكبر النفس:

وكأن هذا الإيمان بالله رفع رأسهم عالياً وأقام صفحة عنقهم فلن تحنى لغير الله أبداً لا لملك جبار ولا لحبر من الأحرار، ولا لرئيس ديني ولا دنيوي، وملاً قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى وعظمته، فهانت وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفة، فإذا نظروا إلى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف، فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس الإنسان.

عن أبي موسى قال: انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسييسون جلوس سباطين، وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسييسين والرهبان: اسجدوا للملك. فقال جعفر: لا نسجد إلا لله^(١).

• الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء:

أرسل سعد قبل القادسية ربيع بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت والآلئ الثمينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربيع بشياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتمكم حين دعوتكموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام^(٢).

(١) البداية ج ٣ ص ٦٧.

(٢) البداية ج ٧ ص ٤٠.

● الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة:

ولقد بعث الإيمان بالآخرة في قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحينئذ غريباً إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأى عين فطاروا إليها طيران حمام الزاجل لا يلوى على شيء.

تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب الكعبة، إني أجد ريحها من دون أحد، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه^(١).

قال رسول الله ﷺ يوم بدر: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض؟ فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض. قال: نعم، قال: بخ بخ قال: فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حيث حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل^(٢).

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي رُوَيْحَةَ وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليك السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب حتى قتل^(٣).

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الجهاد رقم (٢٨٠٥) والمغازي (٤٠٤٨).

(٢) رواه مسلم في الإمارة باب: ثبوت الجنة للشهيد.

(٣) رواه مسلم في الإمارة باب: ثبوت الجنة للشهيد.

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد، وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً^(١).

قال شداد بن الهاد: جاء رجل من الأعراب إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه فقال: أهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسمه، وقسم للأعرابى فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبى ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال قسم قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله ليصدقك، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به النبى ﷺ وهو مقتول فقال: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه^(٢).

● من الأنانية إلى العبودية:

وكانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع، لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام ولا ينخرطون فى سبلك، يسировن على الأهواء ويركبون العمياء ويخطبون خبط عشواء، فاصبحوا الآن فى حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها، واعترفوا لله بالملك والسلطان والأمر والنهى، ولأنفسهم بالرعية والعبودية

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٣٥.

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٩٠.

والطاعة المطلقة، وأعطوا من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهي استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالاً ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ولا يرضون ولا يسخطون ولا يعطون ولا يمنعون ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره. ولما كان القوم يحسنون اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول ﷺ وعرفوا الجاهلية ونشأوا عليها، وعرفوا معنى الإسلام معرفة صحيحة وعرفوا أنه خروج من حياة إلى حياة، ومن مملكة إلى مملكة، ومن حكم إلى حكم، أو من فوضوية إلى سلطة، أو من حرب إلى استسلام وخضوع، ومن الأنانية إلى العبودية وإذا دخلوا في الإسلام فلا افتيات في الرأي ولا نزاع مع القانون الإلهي ولا خيرة بعد الأمر ولا مشاقة للرسول ولا تحاكم إلى غير الله ولا إصدار عن الرأي، ولا تمسك بتقاليد وعادات ولا ائتمار بالنفس، فكانوا إذا أسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها وعاداتها وتقاليدها إلى الإسلام بخصائصه وعاداته وأوضاعه، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث على أثر قبول الإسلام من غير تأن.

هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ، وهو يطوف بالبيت. فلما دنا منه. قال رسول الله ﷺ: أفضالة؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله! قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، وكان فضاله يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلى منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: يا بى الله عليك والإسلام^(١).

• المحكمات والبيّنات فى الإلهيات:

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله، وعن بداية هذا العالم ومصيره، وما يهجم عليه الإنسان بعد موته، وآتاهم علم ذلك كله بواسطة علمهم عفوياً بدون تعب، وكفّوهم مؤونة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التى ينبون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة، لا تعمل فيهما حواسهم، ولا يؤدى إليها نظرهم، وليست عندهم معلوماتها الأولية.

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعاً، وأبدوا البحث أنفاً وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خريّناً، وكانوا فى ذلك أكثر ضللاً، وأشدّ تعباً وأعظم اشتغالاً بالفضول من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الإنسانى فى الجغرافية، وما حدد وضبط فى الخرائط على تعاقب الأجيال، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره، وضعف قوته، وفقدان آله، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته وخانته عزيمته، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة، وكذلك الذين خاضوا فى الإلهيات من غير بصيرة، وعلى غير هدى، جاءوا فى هذا العلم بآراء فجّة، ومعلومات ناقصة، وخواطر ساذجة، ونظريات مستعجلة، فضلوا وأضلوا.

وكذلك منحهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة ومحكمات هى أساس المدنية الفاضلة، والحياة السعيدة فى كل زمان ومكان، فحرموها على تعاقب الأعصار، فبنوا مدنيّتهم على شفا جرف هار، وأساس منهار، وعلى قياس واختبار فراغ أساس المدنية وتداعى بناؤها، وخر عليهم السقف من فوقهم.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم سعداء موفقين جداً، إذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله ﷺ، فكفّوا المؤنة وسعدوا بالثمرة، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم فى غير جهاد، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعينهم من الدين والدنيا وتمسكوا بالعروة الوثقى، وأخذوا فى الدين بلب الباب.

الفصل الثالث

المجتمع الإسلامي

• طاقة زهر:

إن هذا الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، والإسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ورد كل فرد في المجتمع البشري إلى موضعه، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها، أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى، يقول النبي ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، وليتتهين قوم يفخرون بأبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان»^(١)، ويسمعه الناس يقول: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بأبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقى كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى»^(٢)، ويقول: «إن أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد، كلكم بنو آدم، طف الصاع لم يمنعوه ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى»^(٣)، وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله»^(٤) ويسمعه الناس يقول فيما يناجي به ربه في آخر الليل: «وأنا شهيد أن العباد كلهم أخوة»^(٥).

• ليس منا من دعا إلى عصبية:

واقطلع ﷺ جذور الجاهلية وجراثيمها، وحسم مادتها وسد كل نافذة من نوافذها، فقال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل

(١) رواه الترمذي: كتاب المناقب، رقم: ٣٩٥٠.

(٢) رواه أبو داود: الأدب رقم: ٥١١٦، وفي المسند: ٣٦١/٢.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ١٤٥/٤ و١٥٨.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ١٥٨/٥.

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند ٢٦٩/٤.

عصبية، وليس منا من مات على عصبية^(١)، وعن جابر بن عبد الله قال: «كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصارى: يا للأنصار، فقال للمهاجرين: يا للمهاجرين. فقال النبي ﷺ دعوها إنها متنة»^(٢) وحرمة الجاهلية، وقيد ذلك التناصر الذي جرت الجاهلية العربية على إطلاقه، فكان من الأمثال السائرة وشرائع الجاهلية الثابتة. «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، قال النبي ﷺ: «من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي ردى فهو ينزع بذنبه»^(٣) وتغيرت بذلك نفسية العربى وعقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربى لا يسيغ ذلك المثل العربى السائر، فلما قال النبي ﷺ مرة: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» لم يملك نفسه، فقال: يا رسول إذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه»^(٤).

• كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته:

وأصبحت الطبقات والأجناس فى المجتمع الإسلامى متعاونة متعاونة لا يبغي بعضها على بعض، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، لهن مثل الذى عليهن بالمعروف، وأصبح كل واحد فى المجتمع راعياً ومسئولاً عن رعيته. الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته^(٥)، وهكذا كان المجتمع الإسلامى مجتمعاً رشيداً عاقلاً مسئولاً عن أعماله.

(١) رواه الإمام مسلم: الإمارة رقم ١٨٤٨ و ١٨٥٠، والنسائى: تحريم الدم رقم ٤١١٩ و ٤١٢٠، وأبو داود: الأدب، رقم ٥١٢١.

(٢) رواه البخارى تفسير رقم ٤٩٠٥، ومسلم: بر رقم ٦٤، والمسند ٣/٣٣٨ و ٣٨٥ و ٣٩٣، وعبد الرزاق ٩/٤٦٨ رقم ١٨٠٤١، والترمذى: تفسير رقم ٣٥٣٤.

(٣) رواه البخارى مظالم رقم ٢٤٤٣ و ٢٤٤٤، إكراه رقم: ٦٩٥٢، ومسلم: بر ٦٤، والترمذى: فتن ٦٨، والدارمى من رقائق رقم ٢٧٥٣ والمسند ٣/٩٩ و ٣٠١ و ٣٢٤.

(٤) رواه أبو داود: أدب رقم ٥١١٧، من قول ابن مسعود فهو موقوف.

(٥) مأخوذ من الحديث الذى رواه البخارى فى النكاح رقم ٥١٨٨، ومسلم، إمارة ٢٠، والمسند ٥/٢، وعبد الرزاق ١١/٣١٩، وابن حبان ١١/٧، والبيهقى ٦/٢٨٧ و ٧/٢٥١.

• لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

وأصبح المسلمون أعواناً على الحق، أمرهم شورى بينهم يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم. فإن عصى الله فلا طاعة له عليهم وأصبح شعار الحكم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١)، وأصبحت الأموال والخزائن التي كانت طعمة للملوك والأمراء ودولة بين الأغنياء مال الله الذي لا ينفق إلا في وجهه ولا يخرج إلا في حقه وأصبح المسلمون مستخلفين فيه، والخليفة كولى اليتيم إن استغنى استعفى وإن افتقر أكل بالمعروف، وأصبحت الأرض التي اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاؤون ويضيقونها على من يشاؤون، ويقطعها بعضهم بعضاً كما يقطع الثوب، أصبحت أرض الله التي من ظلم قيد شبر منه طوقه من سبع أرضين.

• حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع:

وكان المجتمع البشرى قد فقد نشاطه وأريحته في الحياة وفي كل ما يأتى ويذر وكان مجتمعاً مرهقاً مخنوقاً، فكان مدفوعاً إلى ساحة الحرب من غير أن ينشط أو يتحمس لأغراض أولى الأمر، وكان مدفوعاً إلى الصلح ولم يقض من الحرب وطراً ولم يشف نفسه، وكان الرجال في هذا المجتمع يرغمون على التضحية والإيثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الأمور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة، لا يحبون القادة ولا يحبهم القادة، فكانوا مرغمين على أن يطيعوا من لا يحبونه ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من يبغضونه. فانطفأت جمره القلوب وبردت العواطف، ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل. ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار.

كانت العاطفة القوية - التي يرجع إليها الفضل في غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ، تلك التي يسميها الناس (الحب) - تائهة ضائعة لم يظهر منذ قرون من يشغلها ويستثمرها. فضاعت في ألوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلافة الفانية مما تغنى به الشعراء قديماً وحديثاً.

(١) رواه عبد الرزاق ٣٣٥/١١، ومعناه في البخارى، مغازى ٤٣٤٠، وأحكام ٧١٤٥، وأحمد كما في المجمع ٢٢٦/٥.

فى هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد ﷺ فحل عقاله وفك إيساره ثم حل منه محل الروح والنفس وشغل منه مكان القلب والعين. وهو المبشر الذى جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال، وأبلغ معانى الحسن والإحسان. من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه. يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله، فاندفع إليه الحب الصادق كما يندفع الماء إلى الحدور. وانجذبت إليه النفوس والقلوب انجذاب الحديد إلى المغناطيس. كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد. وأحبه رجال أمته وأطاعوه حباً وطاعة لم يسمع بمثلهما فى تاريخ العشاق والمثيمين. ووقع من خوارق الحب والتفانى فى سبيل طاعته وإيساره على النفس والأهل والمال والولد ما لم يحدث قبله ولن يحدث بعده.

• نوادر الحب والتفانى:

وطىء أبو بكر بن أبى قحافة فى مكة يوماً بعد ما أسلم، وضرب ضرباً شديداً ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أباً بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألستهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لى علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أباً بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، قالت: ما أعرف أباً بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أباً بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع! قال: فلا شىء عليك منها. قالت: سالم صالح! قال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم، قال: فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله ﷺ،

فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتا على رسول الله ﷺ» (١).

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين! قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رآته قالت: كل مصيبة بعدك جلل (٢).

رفعوا خيلاً نحو رسول الله ﷺ على الخشبة ونادوه يناشدونه: أتحب أن محمداً مكانك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه، فضحكوا منه (٣).

وقال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجددك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بأخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية سهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجددك؟ فقال: على رسول الله ﷺ السلام: قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته (٤).

وترس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله ﷺ بظهره والنبيل يقع فيه وهو لا يتحرك (٥)، ومضى مالك الخدري جرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه قال له: مجه. قال: والله ما أمجه أبداً (٦).

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠.

(٢) رواه ابن إسحاق إمام المغازي، ورواه البيهقي مرسلاً، والجلل: الحقيرة.

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٦٣.

(٤) زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٤.

(٥) أيضاً ص ١٣٠.

(٦) أيضاً ص ١٣٦.

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني. قال: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس^(١).

قال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعدما رجع من الحديبية: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيماً له^(٢).

• عجائب الانقياد والطاعة:

ولم يزل الانقياد والطاعة من جنود «الحب» المتطوعة، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قواهم، يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر: «إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطعن حيث شئت وصل حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئت سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك^(٣).

وكان من شدة طاعتهم له ﷺ أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب. يقول كعب: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه

(١) سيرة ابن هشام، ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة، ج ٤ ص: ٢٧.

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٢٥.

(٣) أيضاً ص ١٣٠.

قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى نفس الأرض، فما هى الأرض التى أعرف، إلى أن قال: حتى إذا طال على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه فوالله ما رد علىّ السلام فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيني وتوليت حتى تسورت الجدار.

وكان من طاعته أيضاً وهو فى موضع عتاب وجفوة أن رسول الله ﷺ يأتيه ويقول له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقال: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها فلا تقربنها. فقال لامرأته: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر.

وكان من حبه للرسول ﷺ وإيثاره على كل أحد فى الدنيا أن ملك غسان يخطب وده ويستلحقه بنفسه، وتلك محنة عظيمة فى حال الجفوة والعتاب، ولكنه يرفض ذلك، قال: «بينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلنى على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له إلىّ حتى جاءنى فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فتيمنت بها التنور فسجرتها^(١).

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهى عن الخمر فى مجلس شرب، فعن أبى بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا وعندنا باطية^(٢) لنا، ونحن نشرب الخمر حلاً إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر ﴿يا أيها الذين آمنوا

(١) رواه البخارى: مغازى ٤٤١٨، ومسلم: توبة ٥٣ والمسند ٤٤٥٧/٣ و ٤٨٧/٦.

(٢) الباطية: إناء من رجاج يملأ من الشراب.

إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ﴿١﴾ - إلى قوله: «فهل أنتم متتهون». فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: ﴿فهل أنتم متتهون﴾. قال: وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا. انتهينا ربنا^(١).

ومن غرائب الطاعة للرسول وإيثاره على النفس والأهل والعشيرة ما روى عن عبد الله بن عبد الله بن أبي، روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله بن أبي قال: ألا ترى ما يقول أبوك؟ قال: ما يقول بأبي أنت وأمي؟ قال: يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال: فقد صدق والله يا رسول الله، أنت والله الأعز وهو الأذل، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به، فقال رسول الله ﷺ: لا فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال: أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله. فقال: يا للخزرج، ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي!! فقال: والله لا يأويه أبداً، إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فقال: اذهبوا إليه فقولوا له: خله ومسكنه. فأتوه فقال: أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم^(٢).

(١) رواه ابن جرير بسنده في التفسير عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر﴾ الآية،

تفسير الطبري ٧ الآية (٩٠) المائدة.

(٢) تفسير الطبري ج ٢٨ الآية (٨) المنافقون.

الفصل الرابع

كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية

بهذا الإيمان الواسع العميق، والتعليم النبوي المتقن، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضى عجائبه ولا تخلق جدته، بعث رسول الله ﷺ في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة.

عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غنائها، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر، والإخلاد إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً. وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملأ على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (١).

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة، ولا يتبوأ منها المكانة العليا، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً، إذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر.

(١) آية: ١٢٢ الأنعام.

وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته الحرية في نطاق محلى ضيق يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم، ولم يحرز الشهرة الفائقة في نواحي الجزيرة، إذ به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شيء إلا حصده، وينزل كصاعقة على الروم والفرس ويترك ذكراً خالداً في التاريخ.

وهذا أبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقى عليها الوداع ويقول: سلام على سورية سلاماً لا لقاء بعده.

وهذا عمرو بن العاص كان يعد من عقلاء قريش وترسله في سفارتها إلى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة.

وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة، إذا به يتقلد مفاتيح المدائن، وينيط باسمه فتح العراق وإيران.

وهذا سلمان الفارسي كان ابن موبدان في إحدى قرى فارس لم يزل ينتقل من رق إلى رق ومن قسوة إلى قسوة إذا به يطلع على أمتة كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كان بالأمس أحد رعاياها، وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن في كوخ ويحمل على رأسه الأثقال.

وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقيه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد.

وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر موضعاً للخلافة يقول: لو كان حياً لاستخلفته.

وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤته وفيه مثا ..

ابن أبى طالب وخالد بن الوليد، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه مثل أبى بكر وعمر.

وهذا أبو ذر والمقداد وأبو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وأبى ابن كعب، تهب عليهم نفحة من نفحات الإسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين والعلماء الراسخين.

وهذا على بن أبى طالب وعائشة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس قد أصبحوا فى أحضان النبى الأُمى ﷺ من علماء العالم، يتفجر العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم، أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً، يتكلمون فينصت الزمان، ويخطبون فيسجل قلم التاريخ.

● كتلة بشرية متزنة:

ثم لا يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التى استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة وسخرت منها البلاد المجاوزة، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشرى أحسن منها اتزاناً، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها أو كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره، كتلة فيها الكفاية التامة فى كل ناحية من نواحي الإنسانية، كتلة هى فى غنى عن العالم، وليس العالم فى غنى عنها، وضعت مدنيّتها وأسسست حكومتها وليس لها عهد بها، فلم تضطر إلى أن تستعير رجلاً من أمة أو تستعين فى إدارتها بحكومة، أسست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين، وملأت كل ثغر وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة، تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف فأنجدها هذه الأمة الوليدة التى لم يمض عليها إلا بعض العقود - كله جهاد ودفاع ومقاومة وكفاح - برجل من الرجال الأكفاء، فكان منها الأمير العادل والخازن الأمين والقاضى المقسط، والقائد العابد والوالى المتورع والجندى المتقى، وكانت بفضل التربية الدينية التى لا تزال مستمرة، وبفضل الدعوة

الإسلامية التي لا تزال سائرة، مادة لا تنقطع ومعيناً لا ينضب، لا تزال تسند الحكومة برجال يرجحون جانب الهداية على الجباية، ولا يزالون يجمعون بين الصلاح والكفاية، وهنا ظهرت المدنية الإسلامية بمظهرها الصحيح، وتجلت الحياة الدينية بخصائصها التي لم تتوفر لعهد من عهود التاريخ البشرى.

لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب. أصاب الجاهلية في مقتلها أو صميمها، فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحواً جديداً ويفتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامى الذى لا يزال غرة فى جبين التاريخ.

الباب الثالث

العصر الإسلامي

الفصل الأول

عهد القيادة الإسلامية

• الأئمة المسلمون وخصائصهم:

ظهر المسلمون وتزعموا العالم وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها، وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا، وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم:

أولاً: أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم، لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم، ولا يخطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء، قد جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾^(١) وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

ثانياً: أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد ﷺ وإشرافه الدقيق يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها. يقول: «إنا والله لا نولى هذا العمل

(١) آية: ١٢٢ الأنعام.

(٢) آية: ٨ المائدة.

أحدًا سألَه، أو أحدًا حرص عليه^(١)، ولا يزال يقرع سمعهم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب تهافت الفراش على الضوء، بل كانوا يتدافعون في قبولها ويخرجون من تقلدها، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ويزكوا أنفسهم وينشروا دعاية لها وينفقوا الأموال سعيًا وراءها، فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس لم يعدوه مغنماً أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد، بل عدوه أمانة في عنقهم وامتحاناً من الله، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومسئولون عن الدقيق والجليل، وتذكروا دائماً قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾^(٤).

ثالثاً: أنهم لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصالحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده، كما قال ربى بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد: «الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»^(٥). فالأمم عندهم سواء، والناس عندهم سواء، الناس كلهم من

(١) رواه البخارى: أحكام رقم ٧١٤٩، ومسلم: إمارة رقم ١٤.

(٢) آية: ١٨٣ القصص.

(٣) آية: ٥٨ النساء.

(٤) آية: ١٦٥ الأنعام.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير، ج ٧ ص ٤٠.

آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١).

وقد قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص عامل مصر - وقد ضرب ابنه مصرياً، وافتخر بآبائه قائلاً: خذها من ابن الأكرمين، فاقتص منه عمر -: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً (٢). فلم ييخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد، وغواذى مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد، على قدر قبولها وصلاحتها (٣).

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتى المضطهدة منها في القديم - أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة، أن تساهم العرب في بناء العالم الجديد، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين، حتى قال ابن خلدون: «من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية» (٤)، إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته، فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة

(١) آية: ١٣ الحجرات.

(٢) القصة بتمامها في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

(٣) عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه البخاري: العلم رقم ٧٩.

(٤) يعنى سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية.

عربية، وصاحب شريعته عري^(١)، ونبغ من هذه الأمم فى عصور الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء، هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية وحسنات العالم، فضيلة ومروءة وعبقريّة ودينًا وعملاً، لا يحصّيهم إلا الله.

رابعاً: أن الإنسان جسم وروح، وهو قلب وعقل وعواطف وجوارح، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيّاً متزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نمواً متناسباً لائقاً بها، ويتغذى غذاء صالحاً، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسدى يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة، ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة، وعلوم صحيحة نافعة، فإذا كان فيهم نقص فى عقيدتهم أو فى تربيتهم عاد ذلك النقص فى مدنيّتهم، وتضخم وظهر فى مظاهر كثيرة، وفى أشكال متنوعة، فإذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة وما إليها من لذة ومنفعة محسوسة، ولا تؤمن إلا بهذه الحياة ولا تؤمن بما وراء الحس أثرت طبيعتها ومبادئها وميولها فى وضع المدنية وشكلها، وطبعتها بطابعها، وصاغتْها فى قالبها، فكمّلت نواح للإنسانية واختلت نواح أخرى أهم منها، عاشت هذه المدنية وازدهرت فى الجص والآجر، وفى الورق والقماش، وفى الحديد والرصاص، وأخصبت فى ميادين الحروب وساحات القتال، وأوساط المحاكم ومجالس اللهو ومجامع الفجور، وماتت فى القلوب والأرواح وفى علاقة المرأة بزوجه، والولد بوالده والوالد بولده، والأخ بأخيه والرجل بصديقه، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورم يملأ العين مهابة وروء، ويشكو فى قلبه آلاماً وأوجاعاً، وفى صحته انحرافاً واضطراباً.

وإذا تغلبت جماعة تجحد المادة أو تهمل ناحيتها ولا تهتم إلا بالروح وما وراء الحس والطبيعة، وتعاذى هذه الحياة وتعاندها، ذبلت زهرة المدنية وهزلت القوى الإنسانية وبدأ الناس - بتأثير هذه القيادة - يؤثرون الفرار إلى

الصحارى والخلوات على المدن، والعزوبة على الحياة الزوجية، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها فتتطهر الروح، يؤثرون الموت على الحياة، ليتقلوا من مملكة المادة إلى إقليم الروح ويستوفوا كمالهم هنالك، لأن الكمال فى عقيدتهم لا يحصل فى العالم المادى، ونتيجة ذلك أن تحتضر الحضارة وتخرب المدن ويختل نظام الحياة، ولما كان هذا مضطاداً للفطرة لا تلبث أن تثور عليه، وتتقم منه بمادية حيوانية ليس فيها تسامح لروحانية وأخلاق، وهكذا تتكس الإنسانية وتخلفها البهيمية والسبعية الإنسانية المسموخة، أو تهجم على هذه الجماعة الراهبة جماعة مادية قوية فتعجز عن المقاومة لضعفها الطبيعى، وتستسلم وتخضع لها، أو تسبق هى - بما يعترىها من الصعوبات فى معالجة أمور الدنيا - فتمد يد الاستعانة إلى المادية ورجالها وتسند إليهم أمور السياسة وتكتفى هى بالعبادات والتقاليد الدينية، ويحدث فصل بين الدين والسياسة فتضمحل الروحانية والأخلاق ويتقلص ظلها وتفقد سلطانها على المجتمع البشرى والحياة العملية حتى تصبح شبحاً وخيالاً أو نظرية علمية لا تأثير لها فى الحياة، وتؤول الحياة مادية محضة، وقلما خلت جماعة من الجماعات التى تولت قيادة بنى جنسها من هذا النقص، لذلك لم تزل المدنية متأرجحة بين مادية بهيمية وروحانية ورهبانية ولم تزل فى اضطراب.

يمتاز أصحاب النبى ﷺ بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم، وكان يمكن لهم - بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية واعتدالهم الغريب الذى قلما اتفق للإنسان، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن واستعدادهم المادى الكامل وعقلهم الواسع، أن يسيروا بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية والخلقية والمادية.

● دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة:

وكذلك كان، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر فى جميع هذه النواحي من هذا الدور، دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه

قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية فى تنشئة الإنسان الكامل. وفى ظهور المدنية الصالحة. كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسة مادية تفوق كل قوة فى عصرها، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة فى حياة الناس ونظام الحكم، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ويساير الرقى الخلقى والروحى اتساع الفتوح واحتفال الحضارة فتقل الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها، وتحسن علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد، وهو دور كمالى لم يحلم الإنسان بأرقى منه ولم يفترض المفترضون أزهى منه، ولم يكن إلا بسيرة الرجال الذين يتولون الحكم ويشرفون على المدنية ربيعيتهم وتربيتهم وخطتهم فى الحكم وسياستهم، فكانوا أصحاب دين وأخلاق عالية أينما كانوا، كانوا أعفة أمناء خاشعين متواضعين، حكاماً كانوا أو رعايا أو شرطة أو جنوداً. يصف شيخ من عظماء الروم جنود المسلمين فيقول: إنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم^(١) وقال الآخر: «هم فرسان بالنهار رهبان بالليل، لا يأكلون فى ذمتهم إلا بثمر، ولا يدخلون إلا بسلام، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه^(٢)». ويقول الثالث: «أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا، لو حدثت جليتك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر^(٣)». ويغنم الجند فى المدائن تاج كسرى وبساطه وهو يساوى مئات الألوف من الدنانير فلا تعبث به يد ولا تشح عليه نفس، ثم يسلمونه إلى الأمير ويرسله الأمير إلى خليفة المسلمين فيتعجب ويقول: إن الذين أدوا هذا لأمناء^(٤).

(١) رواه أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة.

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣.

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦.

(٤) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى.

• تأثير الإمامة الإسلامية في الحياة العامة:

إن هذا الرعيل من أتباع محمد ﷺ كان خليقًا بأن يسعد النوع الإنساني في ظله وتحت حكمه، وأن يسير بقيادته سديد الخطى رشيد الغاية مستقيم السير، وأن يعمر ويطمئن العالم في دوره، وتخصب الأرض وتأخذ زخرفها، فإنهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها، ولا ينظرون إلى هذه الحياة كقفص من حديد أو غل في عنق فيعادونه ويكسرونه، ولا ينظرون إليها كفرصة من لهو ونعيم ومتعة لا تعود أبدًا فينتهزونها ويهتبلونها، ولا يضيعون منها ساعة ولا يدخرون من طيباتها، وكذلك لا يعدونها عذابًا وعقوبة بجريمة فيتخلصون منها، ولا ينظرون إلى الدنيا كمائدة ممدودة فيتهاكون عليها، وإلى ما في الأرض من نعماء وخزائن وخيرات كأنها مال سائب يتقاتلون عليه، وإلى الأمم الضعيفة كفريسة يتسابقون في اقتناصها بل يعدون هذه الحياة نعمة من الله هي أصل كل خير وسبب كل بر، يتقربون فيها إلى الله ويصلون إلى كمالهم الإنساني الذي قدر لهم، وفرصة من عمل وجهاد لا فرصة بعدها: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٢). ويعدون هذا العالم مملكة لله استخلفهم فيها - أولاً - من حيث أصل الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٤) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٥)، و - ثانيًا - من حيث إنه إنسان أسلم لأمر الله وانقاد لحكمه فاستخلفه في الأرض واسترعاها أهلها ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ

(١) آية: ٢ الملك.

(٢) آية: ٧ الكهف.

(٣) آية: ٣٠ البقرة.

(٤) آية: ٢٩ البقرة.

(٥) آية: ٧٠ الإسراء.

الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيَدَلَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿١﴾ ومنحهم حق التمتع بخيرات الأرض من غير إسراف وتبذير ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٢)، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٤)، وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها وسيرتها وأخلاقها ورغباتها، فيرشدون الضال ويردون الغاوى ويصلحون الفاسد ويقيمون الأود، ويرأبون الصدع ويأخذون للضعيف من القوى، وينتصفون للمظلوم من الظالم، ويقيمون فى الأرض القسط ويبسطون على العالم جناح الأمن ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٥)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ (٦).

وقد وصف عالم ألمانى مسلم ميزة المسلم وصفاً دقيقاً. قال:

«إن الإسلام لا ينظر -كالنصرانية- إلى العالم بمنظار أسود، بل هو يعلمنا أن لا نسرف فى تقدير الحياة الأرضية، وأن لا نغالى فى قيمتها مغالاة الحضارة الغربية الحاضرة. إن المسيحية تدم الحياة الأرضية وتكرهها، والغرب الحاضر -خلاف الروح النصرانى- يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه، هو يبتلعه ولكن ليس عنده كرامة له، والإسلام بالعكس ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام، هو لا يعبد الحياة بل يعدها كمرحلة نجتازها فى طريقنا إلى حياة عليا، وبما أنها مرحلة ومرحلة لا بد منها ليس للإنسان أن يحتقرها أو يقلل

(١) آية: ٥٥ النور.

(٢) آية: ٢٩ البقرة.

(٣) آية: ٣١ الأعراف.

(٤) آية: ٣٢ الأعراف.

(٥) آية: ١١٠ آل عمران.

(٦) آية: ١٣٥ النساء.

من قيمة حياته الأرضية. إن مرورنا بهذا العالم في سفر الحياة لا بد منه، وقد سبق به تقدير الله، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى، ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة «إن مملكتي ليست إلا هذا العالم» ولا بالنظرية المسيحية التي تزدرى الحياة وتقول «ليس هذا العالم مملكتي» وطريق الإسلام طريق وسط بينهما، القرآن يرشدنا أن ندعو: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾^(١) فالتقدير لهذا العالم وأشياءه ليس حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحية الخصبة، والرقى المادى مرغوب فيه مع أنه ليس غاية في نفسه، إن غاية جهودنا ينبغي أن تكون إيجاد أحوال وظروف شخصية واجتماعية - والمحافظة عليها إن وجدت - تساعد في ارتقاء القوة الخلقية في الإنسان، مطابقة لهذا المبدأ. الإسلام يهدى الناس إلى الشعور بالمسئولية الخلقية في كل عمل يعمل به كبيراً كان أو صغيراً. إن نظام الإسلام الدينى لا يسمح أبداً بمثل ما أمر به الإنجيل قائلاً: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا ما لله لله»، لأن الإسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا إلى خلقية وعملية، ليس هناك إلا خيرة فقط، خيرة بين الحق والباطل وليس شىء وسطاً بينهما، لذلك هو يلح على العمل لأنه جزء لازم للأخلاق لا غنى عنه، ينبغي لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسئولاً شخصياً عن المحيط الذى يحيط به وكل ما يقع حوله، ومأموراً بالجهاد لإقامة الحق ومحقق الباطل فى كل وقت وفي كل جهة، فإن القرآن يقول ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٢)، هذا هو المبرر الخلقى للحركة الإسلامية الجهادية والفتوح الإسلامية الأولى والاستعمار الإسلامى، فالإسلام استعمارى إن كان لابد من هذا التعبير، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعاً بحب الحكومة والاستيلاء، وليس من الأثرة الاقتصادية للقومية فى شىء، ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين إلى

(١) آية: ٢٠١ البقرة.

(٢) آية: ١١٠ آل عمران.

الجهاد طمع في خفض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين، ولم يقصد منه إلا بناء إطار عالمي لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحى، كما أن العلم بالفضيلة حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل. الإسلام لا يوافق أبداً على الفصل الأفلاطونى والتفريق النظرى البحت بين الفضيلة والرديلة، بل يرى أنه من الوقاحة والرديلة أن يميز الإنسان نظرياً بين الحق والباطل، ولا يجاهد لارتقاء الحق وإزاحة الباطل، فإن الفضيلة - كما يقول الإسلام - تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطاتها على الأرض وتموت إذا خذلها وتقاعد عن نصرتها»^(١).

● المدنية الإسلامية وتأثيرها فى الاتجاه البشرى:

كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها فى القرن الأول لهجرة محمد ﷺ فصلاً جديداً فى تاريخ الأديان والأخلاق، وظاهرة جديدة فى عالم السياسة والاجتماع، انقلب به تيار المدنية، واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً، فكانت الدعوة الإسلامية لم يزل يأتى بها الأنبياء ويبشر بها المبشرون ويجاهد فى سبيلها المخلصون، ولكن لم يكن يتمكن دعايتها من إقامة حكومة قائمة على أساسها ومنهجها متشعبة بمبادئها، ومن إقامة مدنية مطبوعة بطابعها مبنية على أحكامها مثل ما تمكنوا فى هذه المرة، ولم تنل هذه الدعوة والجهود من النجاح فى هذا السبيل مثل ما نالت أخيراً على يد محمد ﷺ وخلفائه الراشدين، فكان هذا الفتح المبين للإسلام محنة جديدة للجاهلية لم تعهدها من قبل، ولم تعرف كيف تخرج منها، عهدتها بها دعوة دينية روحية فإذا هى تصبح نجاة وسعادة وروحاً ومادة وحياة وقوة ومدنية واجتماعاً وحكومة وسياسة. دين سائغ معقول، كله حكمة وبداهة إزاء أوهام وخرافات وأساطير، وشرع إلهى ووحى سماوى إزاء أقيسة وتجارب إنسانية وتشريع بشرى، ومدنية فاضلة قوية البنيان والحكمة

الأساس، يسود فيها روح التقوى والعفاف والأمانة. وتقدر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه، والروح فوق المظاهر الجوفاء، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى، ويهتم الناس بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة، ويقل التنافس في أسباب هذه الحياة والتكالب على جطام الدنيا، ويقل التباغض والتشاحن، كل ذلك إزاء مدنية صاخبة مضطربة متناحرة. متداعية البنيان متزلزلة الأركان، يظلم الكبير فيها الصغير، ويأكل القوى فيها الضعيف، ويتسابقون في اللهو والفجور، يتنافسون في الجاه والأموال وأسباب الترف والنعيم، حتى تصبح الدنيا كلها حرباً في حرب، وتصبح المدنية جحيماً على أهلها. ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١). حكومة عادلة تساوى بين رعيتهما وتأخذ للضعيف من القوى، وتحرس للناس أخلاقهم كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم، خيارهم أمراؤهم، وأزهدهم في العيش أملكهم لأسبابه وأقدرهم عليه، إزاء حكومة عم فيها الجور والعسف، وتواضع رجالها على الخيانة والظلم، وتسابق أهلها في أكل أموال الناس وهتك أعراضهم وسفك دمائهم، تفسد على الناس أخلاقهم بما تضرب لهم مثلاً بأخلاقها شرارهم أمراؤهم وملوكهم، تشبع دوابهم وكلابهم وتجوع رعيته، وتكسى بيوتهم ويعرى الناس.

فأصبح الناس لا يجدون عائناً عن الإسلام، ولا يواجهون صعوبة وعنتاً في سبيل قبول الإسلام، ولا يرون للجاهلية مرجحاً ومصلحة، ويدخل الرجل في الإسلام فلا يخسر شيئاً ولا يفقد شيئاً ويجد برد اليقين وحلاوة الإيمان وعزة الإسلام ودولة قوية يعتز بها وأنصاراً يفدونه بأرواحهم وأنفسهم، ونفساً مطمئنة وثقة في الحياة بعد الموت، فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيازهم، وصارت أرض الجاهلية تنتقص من أطرافها، وكلمة الإسلام تعلو وظله يمتد، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله.

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيمًا جليلاً، فكان الطريق إلى الله من قبل في دولة الجاهلية وغربة الإسلام شاقاً عسيراً محفوفاً بالأخطار، فأصبح الآن سهلاً يسيراً آمناً مسلوفاً، وكان يصعب على الإنسان في الوسط الجاهلي أن يطيع الله، فصعب عليه في الوسط الإسلامي أن يعصى الله، وكانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرة منصورة فأصبحت اليوم خافتة مخذولة، وكانت أسباب سخط الله وعصيانه مكشوفة موفورة فعادت نادرة مستورة، وكانت الدعوة إلى الله في أرض الله جريمة قد ترتكب سرّاً وخفية، فأصبحت جهراً وعلانية وحرّة آمنة لا تلقى معارضة ذات بال، ولا يخاف أصحابها اضطهاداً في سبيل العقيدة وأذى في سبيل الدين الجديد ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال: ٢٦] وأصبح أصحابها يأملون بالمعروف وينهون عن المنكر، يأملون وينهون بمعنى الكلمة.

صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات في فصل الربيع، وبدأت القلوب العاصية الجافة ترق وتخشع، وبدأت مبادئ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتغلغل في الأحشاء، وبدأت قيمة الأشياء تتغير في عيون الناس والموازين القديمة تتحول وتختلف الموازين الجديدة، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه والظهور بمظاهره، وكان الأمم بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام، ولا يشعر أهلها بسيرهم كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس، يظهر ذلك في فلسفتهم وفي دينهم وفي أدبهم وفي مدنيّتهم، وتشف عن ذلك بواطنهم وضمائرهم وتنم عنه الحركة الإصلاحية التي ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين.

جاء الإسلام بالتوحيد ونعى على الوثنية والشرك، فهان الشرك منذ ذلك اليوم في عيون أهله وصغره، وصار أهله يخجلون منه ويتبرؤون منه ولا

يقرون به، بعدما كانوا يجتهدون فى إظهاره ويستमितون فى الدفاع عنه، وأصبح أهل كل دين يؤولون ما فى نظامهم الدينى من شرك أو مظاهر شرك ووثنية ورسومها وتقاليدها ويلوون بذلك ألسنتهم، ويجتهدون فى التعبير عنه وشرحه بما يقرب إلى التوحيد الإسلامى ويشبهه.

يقول الأستاذ أحمد أمين: «ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت فى سبتمانيا، (Septimania)^(١) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حق فى ذلك، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبعى أن لا يكون فيه اعتراف».

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Icono-clasts) ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجرى، ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل، فقد أصدر الإمبراطور الرومانى «ليو» الثالث أمراً سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمر آخر سنة ٧٣٠م يعد الإتيان بهذا وثنية، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان البابا جريجورى الثانى والثالث وجرمانىوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة إيرينى من مؤيدى عبادة الصور، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام، ويقولون: إن كلوديوس (Claadius) أسقف تورين (الذى عين سنة ٨٢٨م وحوالى ٢١٣م) والذى كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها فى أسقفيته، ولد وربى فى الأندلس الإسلامية، وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة، روى البخارى ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت سهوة لى بقرام فيه تماثيل، فلما

(١) سبتمانيا مقاطعة فرنسية قديمة فى الجنوب الغربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط.

رآه هتكه، وتلون وجهه، وقال: يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله. قالت: فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين^(١) والأحاديث في هذا الباب مستفيضة.

وكذلك وجدت طائفة من النصارى^(٢) شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوجدانية وأنكرت ألوهية المسيح ﷺ^(٣).

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوربا الدينى وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلى فى نزعات المصلحين والشائرين على النظام الأسقفى السائد، أما دعوة «لوثر» الإصلاحية الكبيرة، فقد كانت -على علاقاتها- أبرز مظهر للتأثر بالإسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون.

وترى كذلك تأثيراً للعقلية الإسلامية والشرعية الإسلامية فى أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها فى أوربا النصرانية وفى الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامى^(٤) تراه وتلمسه فى الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته.

يقول الباحث الهندى المعروف (K.M. Panikkar) سفير الهند فى مصر سابقاً وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية فى عقلية الشعب الهندى ودياناته:

«من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام فى الديانة الهندية كان عميقاً فى هذا العهد (الإسلامى)، إن فكرة عبادة الله فى الهنادك مدينة للإسلام، إن قادة الفكر والدين فى هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله، وصرحوا بأن الإله واحد، وهو يستحق العبادة، ومنه تطلب

(١) السهوة: النافذة بين الدارين، والقرام: الستر.

(٢) Hain's Christianity of Islam in Spain p. 116

(٣) ضحى الإسلام ج ١ ص ١٦٤، ١٦٥.

(٤) Influnce of Islam on inclidn culture by doctor Tara Chand

النجاة والسعادة. وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة (Bhagti) ودعوة «كبير»^(١).

ويقول رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو في كتاب (Discovery of India) «إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ، وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندوكي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية».

ويقول كاتب عصرى فاضل وهو (N.C. Mehta) في كتابه «الحضارة الهندية والإسلام» (Indian Civilization and Islam):

«إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشبعلاً من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدينيات القديمة إلى الانحطاط والتدلى، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية، لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة، شأنه في الأقطار الأخرى، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا القطر (الهندي) مرتبطاً بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مخفية عن الأنظار».

ولا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدينيات تعيش في العالم المتمدن المعمور أن تدعى أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين في قليل ولا كثير.

يقول (Robert Briffault) فى كتابه (The Making of Humanity) :

«ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير»^(١).

ويقول فى موضع آخر:

«لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هى التى أعادت أوربا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت فى حياة أوربا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا»^(٢).

فلو جرت الأمور هكذا وتمتعت الأمم الإنسانية بقيادة الجماعة التى خلقت بقيادتها وأعطيت القوس باريها، وجرت المياه فى مجاريها، لكان للعالم الإنسانى تاريخ غير التاريخ الذى نقرؤه حافلاً بالزلازل والنكبات ناطقاً بطول بلاء الإنسانية ومحنها، لكان له تاريخ مجيد جميل يغتبط به كل إنسان ويقر عيناً، ولكن جرت الأقدار بغير ذلك، وبدأ الانحطاط فى المسلمين أنفسهم.

(١) P. 190

(٢) P. 202

الفصل الثانى

الانحطاط فى الحياة الإسلامية

• الحد الفاصل بين العصرين:

قال أحد الأدباء: «أمران لا يحدد لهما وقت بدقة، النوم فى حياة الفرد، والانحطاط فى حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا» إنه لحق فى قضية أكثر الأمم، ولكن بدأ التدلى والانحطاط فى حياة الأمة الإسلامية أوضح منه فى حياة الأمم الأخرى، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال لوضعنا على ذلك الخط التاريخى الذى يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين.

• نظرة فى أسباب نهضة الإسلام:

كان زمام القيادة الإسلامية - والعالمية بالواسطة - بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد ﷺ، إيماناً وعقيدة وعملاً وخلقاً وتربية وتهذيباً وتركيزاً نفس وسمو سيرة، وكمالاً واعتدالاً، لقد صاغهم النبى ﷺ صوغاً، وصبهم فى قالب الإسلام صباً، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا فى الأجسام لا فى الميول والتزعات، ولا فى الرغبات والأهواء، ولو دقق مدقق لما رأى فى سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافى روح الإسلام والنفسية الإسلامية، ولو تمثل الإسلام بشراً لما زاد على أن يكون كأحدهم، وكانوا كما قلنا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما، فكانوا أئمة يصلون بالناس، وقضاة يفصلون قضاياهم، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم، وأمناء لأموال المسلمين وخزنتهم، وقواداً يقودون الجيوش ويحسنون تدبير الحروب، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكة ويقيمون حدود الله، وكان الواحد منهم فى آن

واحد تقيًا زاهدًا وبطلاً مجاهدًا، وقاضيًا فهمًا، وفقيرًا مجتهدًا وأميرًا حازمًا وسياسيًا محنكًا، فكان الدين والسياسة يتمثلان في شخص واحد وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين، حوله جماعة ممن تخرجوا - إن صح التعبير - في هذه المدرسة، المدرسة النبوية، أم المسجد النبوي، أفرغوا في قالب واحد يحملون روحًا واحدة، وتلقوا تربية واحدة يستشيرهم الخليفة ويستعين بهم، فلا يقطع أمرًا ذا بال حتى يشهده فست روحهم في المدنية ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم وأخلاقهم، وانعكست ميولهم ورغباتهم في المدنية وظهرت خصائصهم فيها، فلا عداء بين الروح والمادة ولا صراع بين الدين والسياسة ولا تفريق بين الدين والدنيا، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ، ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق، ولا تناحر بين الطبقات، ولا تنافس في الشهوات.

• شروط الزعامة الإسلامية؛

إن الزعامة الإسلامية تقتضى صفات دقيقة، واسعة جدًا نستطيع أن نجمعها في كلمتين «الجهاد» و «الاجتهاد»، فهاتان كلمتان خفيفتان بسيطتان، ولكنهما جامعتان عامرتان بالمعاني الكثيرة.

• الجهاد؛

أما الجهاد فهو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب، وأكبر وطر للمسلم طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه، والإسلام لأوامره، وذلك يحتاج إلى جهاد طويل شاق ضد كل ما يزاحم ذلك من عقيدة وتربية وأخلاق وأغراض وهوى وكل من ينافس في حكم الله وعبادته من آلهة في الأنفس والآفاق، فإذا حصل ذلك للمسلم وجب عليه أن يجاهد لتنفيذ حكم الله وأوامره في العالم حوله وعلى بنى جنسه، فريضة من الله وشفقة على خلق الله، ولأن الطاعة الانفرادية قد تصعب وتمتنع أحيانًا بغير ذلك، وذلك

ما يسميه القرآن «الفتنة». ومعلوم أن العالم كله بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان خاضع لمشيئة الله وأحكامه التكوينية وقوانينه الطبيعية ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾^(٢) فيتعين أن جهاد المسلم إنما هو لتنفيذ شريعته التي جاء بها الأنبياء، وإعلاء كلمته ونفاذ أحكامه، فلا حكم إلا لله ولا أمر إلا له، وهذا الجهاد مستمر ماض إلى يوم القيامة، وله أنواع وأشكال لا يأتي عليها الحصر، منها القتال، وقد يكون أشرف أنواعه، وغايته أن لا تبقى في الدنيا قوتان متساويتان متنافستان تتجاذبان الأهواء والأنفس ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(٣).

ومن مقتضيات هذا الجهاد أن يكون الإنسان عارفاً بالإسلام الذي يجاهد لأجله وبالكفر والجاهلية التي يجاهد ضدها، يعرف الإسلام معرفة صحيحة ويعرف الكفر والجاهلية معرفة دقيقة، فلا تخدعه المظاهر ولا تغره الألوان، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية، ولا يجب على كل مسلم أن تكون معرفته دقيقة بالكفر والجاهلية ومظاهرها وأشكالها وألوانها، ولكن على من يتزعم الإسلام ويتولى قيادة الجيش الإسلامي ضد الكفر والجاهلية، أن تكون معرفته بالكفر والجاهلية فوق معرفة عامة المسلمين وأوساطهم.

كذلك يجب أن يكون استعدادهم كاملاً وقوتهم تامة، يقارعون الحديد بالحديد بل بأقوى من الحديد، ويقابلون الريح بالإعصار، ويواجهون الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه، وبكل ما امتدت إليه يدهم، وبكل ما اكتشفه الإنسان ووصل إليه العلم في ذلك العصر، من سلاح وجهاز واستعداد

(١) آية: ٨٣ آل عمران.

(٢) آية: ١٨ الحج.

(٣) آية: ١٩٣ البقرة.

حربي، لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

● الاجتهاد:

أما الاجتهاد فنريد به أن يكون من يرأس المسلمين قادراً على القضاء الصحيح في النوازل والحوادث التي تعرض في حياة المسلمين وفي العالم وفي الأمم التي يحكمها، وفي المسائل التي تفاجئه وتتجدد، والتي لا يستقصيها فقه مدون ومذهب مأثور وفتاوى مؤلفة، ويكون عنده من معرفة روح الإسلام وفهم أسرار الشريعة والاطلاع على أصول التشريع الإسلامي وقوة الاستنباط - انفراداً أو اجتماعاً - ما يحل به هذه المشاكل ويرشد الأمة في الغمة.

ويكون عنده من الذكاء والنشاط والجد والعلم ما يستخدم به ما خلق الله في هذا الكون من قوى طبيعية، وما بث في الأرض وتحت الأرض من خيرات ومنابع وثروة وقوة، وأن يسخرها لمصلحة الإسلام بدل أن يستخدمها أهل الباطل لأهوائهم، ويتخذوها وسيلة للعلو في الأرض، ويسخرها الشيطان لتحقيق أغراضه والإفساد في الأرض.

● انتقال الإمامة من الأكفاء إلى غير الأكفاء:

ولكن من الأسف ومن سوء حظ العالم البشري أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا له أكفاء، ولم يعدوا له عدة، ولم يأخذوا له أهبة، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون في عصرهم وجيلهم، ولم يسيغوا تعاليم الإسلام إساعة تليق بقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بزعامتها، ولم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من بقايا التربية القديمة، ولم يكن عندهم من روح الجهاد في سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد في المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية - وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بني أمية وبني العباس، حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (م ١٠١هـ).

• تحريفات الحياة الإسلامية:

فظهر من ذلك ثلمات فى ردم الإسلام لم تسد إلى الآن، ووقعت تحريفات فى الحياة الإسلامية.

• فصل الدين عن السياسة:

وقع فصل بين الدين والسياسة عملياً، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين فاستبدوا بالحكم والسياسة، واستعانوا - إذا أرادوا واقتضت المصالح - بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين، واستخدموهم فى مصالحهم واستغنوا عنهم إذا شأؤوا وعصروهم متى شاءوا، فتحررت السياسة من رقابة الدين، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة، وملكاً عضوياً، وأصبحت السياسة كجمل هائج حبله على غاربه، وأصبح رجال الدين والعلم بين معارض للخلافة وخارج عليها، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه وأغمض العين عما يقع ويجرى حوله، يائساً من الإصلاح، ومتقذ يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ولا يملك من الأمر شيئاً، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية، ولكل ما نوى، وحيث أن فصل الدين والسياسة، وعاداً كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة، أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي، وأصبحت السياسة مطلقة اليد حرة التصرف نافذة الكلمة صاحبة الأمر والنهى، ومن ثم أصبح رجال العلم والدين طبقة متميزة، ورجال الدنيا طبقة متميزة، والشقة بينهما شاسعة وفى بعض الأحيان بينهما عداً وتنافس.

• النزعات الجاهلية فى رجال الحكومة:

ولم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة فى الدين والأخلاق، بل كان فى كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها، فسرت روحهم وعوائدهم وميولهم، وزالت رقابة الدين والأخلاق وارتفعت الحسبة، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سلطانها، لأنها تستند إلى قوة ولا تحميها حكومة، وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب، والدواعى إلى

خلافها متوافرة قوية، فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب وانغمسوا في الملذات والشهوات واستهتروا استهتاراً، ونظرة في كتاب الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جامحة إلى اللهو، وتهافت على الملاهي والملذات، ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها، وبهذه السيرة، وبهذه الأخلاق المنحطة، ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع أمة أن تؤدي رسالة الإسلام، وأن تقوم في الدنيا مقام خلفاء الأنبياء، وتذكر بالله والآخرة وتحض على التقوى والدين، وأن تكون أسوة للناس في أخلاقها، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمناً طويلاً: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (١).

● سوء تمثيلهم للإسلام؛

وكان هؤلاء في كل ما يأتون ويذرون ممثلين لأنفسهم وسياستهم فقط، لا يمثلون الإسلام، ولا سياسته الشرعية، لا قانونه الحربى، ولا نظامه المدنى، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا فى النادر، ففقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها فى قلوب غير المسلمين، وضعفت ثقتهم به. وفى لفظ مؤرخ أوربى - بدأ الإسلام بالانحطاط، لأن البشرية بدأت تشك فى صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة.

● قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة؛

إن العلماء المفكرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المثمرة المفيدة اعتناءهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية التى تلقوها من اليونان وما هى إلا وثنياتهم القومية التى ترجموها فى لغتهم الفلسفية، وأضفوا عليها لباساً من الفن، وما هى إلا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب، وعملية تجزئة وتحليل فى مسائل ذات الله وصفاته وما

(١) آية: ٦٢ الأحزاب.

يتعلق بها أشبه بالتحليل الكيماوى بما أنزل إليهم بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم، ولكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة، وظلوا قرونًا طويلة يجاهدون من هذه العلوم والمباحث فى غير جهاد، ويضيعون ذكاءهم فى مباحث فلسفية وكلامية لا تجدى نفعًا ولا تأتى بنتيجة، وليس لها دعوة فى الدنيا والآخرة، وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخر لهم قوى الطبيعة ويسخرونها لمصلحة الإسلام ويبسطون بها سيطرة الإسلام المادية والروحية على العالم كله.

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود، وبذلوا فيها قسطًا كبيرًا من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم.

أما ما وصل إليه المسلمون فى العلوم الطبيعية والتجريبية، فإنه وإن كان أرقى من العصور السابقة وأكثر ثروة فى العلم والاختبار، إلا أنه لا يتناسب مع فتوحهم الواسعة فى دوائر علمية أخرى، ولا يتلاءم مع المدة الطويلة التى تمتعوا بها فى التاريخ ولم يظهر فيها من النوابغ والعبقريين مثل ما ظهر فى موضوعات أخرى.

وإن ما خلفوه من كتب فى الطبيعيات والكونيات والتجارب العلمية، وإن كانت مما استفادت به أوروبا فى نهضتها وأقرت بقيمتها، إلا أنها تتضاءل جدًا أمام هذه المكتبة الهائلة الزاخرة التى أنتجتها أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فقط، فمهما افتخرنا بأثار علماء الأندلس وحكماء الشرق، فإنها لا تعد شيئًا بجانب الإنتاج الغربى الضخم فى العلم والحكمة والتجربة والاختبار، لا فى الكمية ولا فى الكيفية، ولا فى الإبداع ولا فى الابتكار، ولا فى التدقيق العلمى ولا فى الإتيقان الفنى، وإذا أردت أن تعرف مقدار عناية الشرق الإسلامى بالناحية الروحية ونسبتها إلى الناحية العلمية والتجريبية فقارن بين كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربى مثلاً وبين أكبر كتاب فى الطبيعيات والحكمة، تر فرقًا هائلًا فى ضخامة المادة والعناية بالموضوع والجهاد فى سبيله، وبذلك تعرف ذوق الشرق الغالب عليه.

• الضلالات والبدع:

وكان يحجب توحيد الإسلام النقى حُجُب من الشرك والجهل والضلالة، وطرأت على النظام الدينى بدع شغلت مكاناً واسعاً من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح، وعن الدنيا، وميزة المسلمين بين أمم الأرض وفضلهم إنما هو من هذا الدين الذى جاء به محمد ﷺ، وميزة هذا الدين وإعجازه فى صحته وحفظه، لأنه يمتاز بأنه وحى الله وشريعته ووضعه المعجز وشرعه الحكيم ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] فإذا عملت فيه عقول الناس ودخلت فيه أعمال الناس وأهواؤهم لم يكن له على الأديان التى حرفها أهلها، والنظم التى نسجتها أيدى الناس إلا بمقدار ما فيه من الوحي المحفوظ والعلم المعصوم، ولم يكن ضامناً لسعادة الدنيا والآخرة ولم يكن حقيقاً بأن تخضع له العقول وينجذب إليه الناس.

• إنكار الدين على المسلمين وإهافته بهم:

ولا يغربن عن البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حياً محفوظاً من التحريف والتبديل، مهيباً بالمسلمين ناعياً عليهم انحرافهم عن طريقه، ولم يزل مناره عالياً وضوؤه مشرقاً ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١)، ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان فى نفوس القراء ثورة على الشرك والبدع، وعلى الجهالة والضلالة، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها، وثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك، ولم يزل ينهض بتأثيرهما فى كل دور من أدوار التاريخ الإسلامى، وفى كل ناحية من نواحي العالم الإسلامى رجال يقومون فى هذه الأمة على طريقة الأنبياء، يجددون لها أمر دينها، وينفخون فيها روح الجهاد، ويفتحون لها باب الاجتهاد، ويسعون لإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة، فمنهم من استشهد فى هذا السبيل، ومنهم من استطاع أن يمثل دوراً قصيراً يذكر بالخلافة الراشدة: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

(١) آية: ١٦ المائدة.

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١﴾، وهم مصداق الحديث الشريف: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله» (٢) فتاريخ الجهاد والتجديد في الإسلام متصل لا تقطعه فترة، ومشاعل الإصلاح متسلسلة بعضها من بعض لم تطفئها العواصف (٣).

• حسن بلاء العالم الإسلامي في القرن السادس؛

في القرن السادس الهجري من الله على العالم الإسلامي - الذي بدت عليه أمارات الضعف والشيخوخة بعد السلاجقة وتوزعه ملوك وأمراء في الأنحاء - بقيادة كبار حفظ الله بهم شرف الإسلام وعزته، وأعاد بهم الحياة في العالم الإسلامي المنهار، بدأت الغزوات الصليبية - التي كانت تهدف أولاً إلى الاستيلاء على الأماكن المقدسة عند المسيحيين - تتحدى الإسلام والمسلمين كلهم، وتهدد الجزيرة العربية ومهد الإسلام والدول المجاورة للشام، واستولى الصليبيون الأوربيون فعلاً على القدس وعلى عامة مدن الشام وقلاعها، وطمعوا في مدينة الرسول ﷺ، وكانوا أكبر خطر على الإسلام والمسلمين بعد فتنة الردة، هنالك قيض الله للإسلام عماد الدين أتابك زنكي (م ٥٤١هـ) الذي قارع الصليبيين وهزمهم في معارك كثيرة وفتح الرها، وقام بعده ولده العظيم الملك العادل نور الدين محمود زنكي (م ٥٦٩هـ) وصمم على إجلاء الصليبيين من الشام واسترداد القدس للمسلمين، ومات رحمة الله عليه قبل أن يكمل مهمته وخلفه في ذلك أحد رجاله ومرشحيه الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر، وهو الرجل الذي هياه الله لهذه المهمة العظيمة وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والإخلاص والتجرد للغاية والحرص على الجهاد والتفاني في

(١) آية: ٢٣ الأحزاب.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک ٤/٤٤٩.

(٣) اقرأ في هذا الموضوع كتاب المؤلف «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع في دمشق.

سبيله وعلو الهمة فى نصر الإسلام وقتال أهل الكفر والبغى، وحسن القيادة وقوة التنظيم والصلاح والديانة والفتوة الفائقة والإنسانية السامية ومكارم الأخلاق ما لا يجتمع إلا فى أفذاذ الرجال فى العالم، فكان بذلك معجزة من معجزات الإسلام ودليلاً على أن الإسلام لم ينته دوره ولم يفقد الحيوية والإنتاج، وقد توحد العالم الإسلامى من بين نهر الفرات وبين النيل للمرة الأولى بعد مدة طويلة ليقاتل أوربا التى تدفقت جيوشها واندفع ملوكها وأمراؤها وقوادها الكبار ليهاجموا العالم الإسلامى، وقد اجتمع تحت لواء صلاح الدين للجهاد أجناس كثيرة من المسلمين لم تجتمع قبل، والتهبت شعلة الجهاد والغيرة الإسلامية من العلم والاختراع وصناعة الحرب يومئذ، هو كل ما أوتى من الذكاء والصبر والتفكير وهزم الصليبيين بحطين عام ٥٨٣هـ هزيمة منكرة وكسر شوكتهم وفتح القدس فى العام نفسه واستولى على فلسطين كلها وانحصر الصليبيون فى «صور» فقط، وألقت أوربا أفلاذ أكبادها، وجاءت بحدها وحديدها واجتمعت جيوشها الكثيفة تحت قيادة القائد الكبير ريتشارد Richard ملك إنكلترا وكانت الحرب بين الصليبيين والمسلمين سجالاً حتى وقعت الهدنة سنة ٥٨٨ هـ (٢ سبتمبر ١١٩٢ المسيحى) وجلا معظم الغزاة الصليبيين عن فلسطين ورجع ريتشارد إلى ملكه، وبعد ذلك بسنة استأثر الله بصلاح الدين.

ويحسن بنا أن ننقل هنا ما علق المؤرخ الإنكليزى Stanley lave people على هذه الهدنة فى كتابه عن صلاح الدين، وبه نستطيع أن نعرف قوة العالم الإسلامى ووحدته تحت قيادة صالح الدين:

«انتهت الحرب المقدسة التى استمرت خمسة أعوام، لقد كان المسلمون قبل انتصارهم فى معركة حطين فى يوليو سنة ١١٨٧م لا يملكون قيراطاً من الأرض غربى نهر الأردن، أما فى سبتمبر سنة ١١٩٢م لما وقع الصلح فى الرملة فقد ملكوا البلاد كلها إلا سلسلة ضيقة تمتد من صور إلى يافا كان

المسيحيون لا يزالون يملكونها، ولم تكن هذه الهدنة مما يخجل لها صلاح الدين ويتأسف، لقد بقى معظم ما فتحه الصليبيون فى حوزة الإفرنج، ولكن كانت النتيجة تافهة جداً بالنسبة إلى خسائر الأموال والنفوس. فقد زحفت أوربا كلها إلى الأرض المقدسة، لما استفزها البابا للغزو الصليبي، وبذل القيصر فريدرك وملوك إنكلترا وفرنسا وصقلية وليوبولد النمساوى والدوق البرجندى والكونت الفلاندرى ومئات الحكومات النصرانية فى فلسطين وفرسان طبقة الداوية وطبقة الإسبتار وأبطالها، لقد بذل هؤلاء كلهم كل ما فى وسعهم للاستيلاء على القدس ولتزدهر الحكومة المسيحية التى كان مركزها القدس، والتى أشرفت على الانقراض، ولكن ماذا كان مصير هذه الجهود كلها؟ مات القيصر فريدرك فى هذه المدة، ورجع ملوك إنكلترا وفرنسا إلى بلادهم ودفن كثير من زملائهم الأمراء والنبلاء فى أرض إيليا وبقى القدس فى حوزة صلاح الدين، كما كان، ولم يكن من حظ المسيحيين إلا إمارة عكة الصغيرة على الساحل.

لقد وقف العالم المسيحى وقفة رجل واحد إزاء المسلمين، ولكنه لم يستطع أن يزحزح صلاح الدين عن مكانه، كان جيش صلاح الدين قد أعياه الجهاد الطويل والمتاعب العظيمة، وقد ظل أعواماً طوالاً مرابطاً مناضلاً مكافحاً عدواً قوياً جداً ولكن لم يسمع من جندى واحد أنين أو شكاة. إنهم لم يتأخروا يوماً فى الحضور ولم يضمنوا قط بالنفائس والنفوس كلما دعاهم صلاح الدين إلى الجهاد وكلما استنفروهم للقتال، وربما شكوا أحد الأمراء التابعين له فى بعض أودية دجلة البعيدة من هذه النجدة التى لا تكاد تنتهى ولكنهم قدموا ببعوثهم وحضروا لجيوشهم لنصرة السلطان كلما طلبوا. وقد قاتل الجيش الموصلى بكل بطولة وحماسة فى حرب أرسوف الأخيرة وكان السلطان واثقاً بأنه سيأتيه المدد من جيوش مصر والعراق وكذلك من جيش الشام الشمالى والمركزى. وكان التركمان والعرب والمصريون مسلمين وخدمة أوفياء للسلطان وحضروا كالعبيد كلما طلبهم السلطان وقد مزج السلطان هذه العناصر المختلفة مزجاً غريباً وألف بينهم رغم ما فيها من اختلاف فى الجنس

والقومية وما بين أفرادها من خلافات داخلية ومنافسات قبلية فكانوا كالجسد الواحد. وقد عانى السلطان بعض الصعوبة في توحيد هذه الأجناس، وقد ظهرت في بعض المناسبات بوادر الخلاف فقد تمرد الجيش في يافا مرة، ولكن رغم ذلك كله بقيت هذه الأمم المختلفة الأجناس إلى خريف سنة ١١٩٢م خاضعة لأمر السلطان وظلت تجاهد في سبيل الله من سنة ١١٨٧م العام الذي طلبها فيه صلاح الدين للجهاد، وفي خلال هذه المدة الطويلة لم يسجل التاريخ حادثة عصت فيها مقاطعة أو ثارت فيها دولة تابعة أو رئيس من الرؤساء، وكانت الآمال الكبيرة التي عقدت بنصيحته ومثابرتهم تعي الراسخين في الوفاء والجن الأقياء، إنما علمنا قريباً من أقربائه في العراق ثار عليه، ولكن السلطان من عليه بالعفو، وهذا الرجل، وبذلك يعلم ما كان للسلطان من نفوذ غريب في دولته ورعيته، وانتهت الحرب التي استمرت خمسة أعوام وانتهت محنها ومتابعها والسلطان هو الملك الوحيد من جبال الكرد إلى صحراء النوبة، وكان ملك بلاد الكرد وملك آرمينيا وسلطان قونية وقصر قسطنطينية وراء هذه الحدود يحرصون على صداقة صلاح الدين ومساعدته وما قبل صلاح الدين أن يكون عليه منة لأحد من هؤلاء، ولم يحضروا قط لنجدته إنما حضروا لتهنئته.

وكان صلاح الدين بطل هذه المعركة ومركز هذه الدائرة، وكان أخوه العادل هو الشخصية الثانية التي ظهرت على مسرح القتال، ولا نعرف أحداً من القواد والأمرأ استولى عليه، وكان عنده مجلس حربى يستشير في أمور الحرب، وقد وقع نادراً أن غلب رأى هذا المجلس الخاطيء على رأى السلطان الصحيح، كما كان أمام صور وعكة، ولكن لم يكن أحد من أعضاء هذا المجلس مستأثراً به دون غيره، لقد كان الإخوة والأبناء، وأبناء الإخوان، والزملاء القدماء، والولاة الجدد، والعقلاء، والقضاة الأذكياء، والمعتمدون الأوفياء، والمتعصبون، والوعاظ، والعلماء كلهم متفقين على الجهاد، وقاتلوا تحت لوائه جنباً بجنب، وخدموه بكل ما عندهم من قوة وكفاية ونصيحة وكان كل يعلم أن صلاح الدين سيد الجميع وأميرهم، وكان

قلب واحد وإرادة واحدة تسيطر عليهم فى أزمات مختلفة وساعات عصيبة وحروب طاحنة، هو قلب صلاح الدين القوى وإرادته الحديدية» اهـ.

● فقر القيادة فى العالم الإسلامى بعد صلاح الدين؛

مات صلاح الدين بعدما قضى مهمته إلى حد بعيد، وانجلى الخطر القريب العاجل الذى كان يهدد كيان الإسلام ومركزه، وتراجع سيل الصليبيين وقد تعلموا دروساً مفيدة ودرسوا جوانب الضعف والقوة فى كلتا الجبهتين، رجعوا ليستعدوا للصليبية الجديدة فى القرن التاسع عشر المسيحى، وعاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى فى انقسام وتنافس، وتطاحن وغفلة، ولم يرزق العالم الإسلامى بعد ذلك قائداً مخلصاً للإسلام، مؤثراً لمصلحته على هواه، متجرداً للجهاد، محبباً تجتمع حوله القلوب مثل صلاح الدين الذى استطاع بحول الله وقوته وبمواهبه العظيمة أن يدحر أوربا كلها، ويحفظ للإسلام ملكه وشرفه، وعم الانحطاط فى العالم الإسلامى واستفحل مع الأيام.

● نتائج القرون المنحلة؛

وظلت خلية الإسلام تعمل فى أدوار الانحطاط أيضاً، ويظهر فى الملوك والفاطحين أفراد هم أنموذج الصحابة والسلف الصالح فى سيرتهم وأخلاقهم، فى دينهم وتقواهم، وينهض فى العالم الإسلامى رجال يتجمل التاريخ بذكرهم.

وكان المسلمون - رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثالى - أقرب إلى طريق الأنبياء وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم، وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية فى انتشارها وازدهارها، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة فى العالم تهابها الدول، وتحسب لها كل حساب.

● انهيار صرح القوة الإسلامية؛

ولم تزل تضعف هذه القوة وتهن بدون أن يشعر بذلك الأجانب حتى

إذا خضدت شوكة المسلمين في القرن السابع لما مزق التتار حكومة خوارزم شاه - المملكة الإسلامية الأخيرة - وسقطت بغداد في أيديهم زال ذلك الشبح المخيف وسقط المجدار^(١) فعانت الطيور والوحوش في الحقل، وتجاسر الناس على المسلمين وبلادهم.

ورث التتار والمغول تراث المسلمين وخلفوهم في الحكومة، وناهيك به بؤساً وشقاء للإنسانية وخراباً للعالم أن يتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية ليس عندها دين ولا علم ولا ثقافة ولا حضارة.

(١) المجدار: ما ينصب في الزرع لطرود الطير والوحش.

الفصل الثالث

دور القيادة العثمانية

• العثمانيون على مسرح التاريخ:

فى ذلك الحين ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ، وفتح محمد الثانى بن مراد، وهو ابن أربع وعشرين سنة القسطنطينية العظمى عاصمة الدول البيزنطية المنيعة سنة ٧٥٣هـ (١٤٥٣م) فتجدد رجاء الإسلام وانبعث الأمل فى نفوس المسلمين، وكان الترك وعلى رأسهم آل عثمان موضعاً للثقة فى قيادة الأمم الإسلامية وفى استرداد قوة المسلمين ومكانتهم فى العالم، وكان فتحهم للقسطنطينية التى استعصت على المسلمين ثمانية قرون^(١) دليلاً على كفاءتهم وقوتهم، وبلوغهم درجة الاجتهاد فى صناعة الحرب، وحسن قيادتهم العسكرية وتفوقهم على الأمم المعاصرة فى آلات الحرب واستخدامهم لمهنتهم قوة العلم والعمل، وكل ذلك ما لا غنى للأمة عنه.

• تفوق محمد الفاتح فى فن الحرب:

وقد كان محمد الفاتح - كما يقول درابر - يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربى، وكان قد أعد لهذا الفتح عدته، واستفاد كل ما فى عصره من معدات حربية.

قال البارون «كارادفو» (Barron Carra de vaux) فى كتابه «مفكرو الإسلام» فى الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح:

«إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة بيزنطية، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل،

(١) غزا الأسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطاة سنة ٤٤ للهجرة وفق سنة ٦٦٤ للمسيح، وحاصر يزيد بن معاوية القسطنطينية سنة ٥٢ هجرية وفق سنة ٦٧٢ مسيحية، وحاصرها العرب أربع مرات على الأقل بعد ذلك، ولم يفتحوها لمنعتها.

ويستخدم له كل ما كان فى عصره من قوة العلم، فقد كانت المدافع حيثئذ حديثة العهد بالإيجاد، فأعمل فى تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرباً ركب مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام، وكان مدى مرماه أكثر من ميل، وقيل: إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل، ومعه مدفعية هائلة، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية، وهو الذى - من قريحته - تصور سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم (٧٠) سفينة أنزلها فى البحر من جهة قاسم باشا^(١).

• مزايا الشعب التركى:

وقد تفرد الشعب التركى المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذ واستحق بها زعامة المسلمين:

أولاً: أنه كان شعباً ناهضاً متحمساً طموحاً فيه روح الجهاد، وكان سليماً - بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة فى الحياة - من الأدواء الخلقية والاجتماعية التى أصابت الأمم الإسلامية فى الشرق فى مقتلها.

ثانياً: أنه كان متوفراً لديه القوة الحربية التى يقدر بها على بسط سيطرة الإسلام المادية والروحية، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها، ويتبوأ بها قيادة العالم، فقد بادر العثمانيون فى صدر دولتهم لاستعمال المعدات الحربية وخصوصاً النارية منها واهتموا بالمدافع، وأخذوا بالحديث الأحداث من آلات الحرب، عنوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش وتعبئتها حتى صاروا فى صناعة الحرب أئمة بغير نزاع، والمثل الكامل والقذوة لأوروبا.

(١) من حواشى الأمير شكيب أرسلان على «حاضر العالم الإسلامى» الجزء الأول، ص ٢٢٠، الطبعة الثانية.

وكانوا يحكمون فى ثلاث قارات: أوربا، وآسيا، وإفريقية، ملكوا الشرق الإسلامى من فارس حتى مراكش، ودوخوا آسيا الصغرى، وتوغلوا فى أوربا، حتى بلغوا أسوار «فيينا» وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع. . قد جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنى حوله، وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالى أن السلطان يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة، فلا يباح دخوله لأجنى، وأنشأوا أسطولاً عظيماً لا قبل لأوربا به حتى اجتمعت لسحقه كل من عمارات البابا والبندقية وإسبانيا والبرتغال ومالطة عام ٩٤٥هـ - ١٥٤٧م - ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئاً.

قد جمعت الإمبراطورية العثمانية فى عهد سليمان القانونى الكبير بين السياتين البرية والبحرية، وبين السلطتين السياسية والروحية.

بلغت حدود الدولة العثمانية على ملك سليمان الطونة والصاوة (النهرية) فى الشمال ونبع النيل والمحيط الهندى فى الجنوب، وسلسلة جبال القفقاس فى الشرق وجبال أطلس فى الغرب وهى مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف ميل مربع.

وكان الأسطول العثمانى مؤلفاً مما يزيد على ٢٠٠٠ مركب حربى، وكان القسم الشرقى من بحر سفيد وبحر الأدرياتيك ومرمرة وأزاق والأسود والأحمر وفارس فى حوزته وتحت سيطرته.

ودخل كل مدينة شهيرة فى العالم القديم ما عدا رومة فى ضمن حدود الدولة العثمانية^(١)، وكانت أوربا كلها ترتعد منهم فرقاً، ويدخل ملوكها الكبار فى ذمة ملوكهم، ويمسك أهل الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك إذا نزلوا بها وأمر البابا أن يحتفل بعيد، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أتاه نعى محمد الفاتح.

ثالثاً: كانوا فى أحسن مركز للقيادة العالمية، كانوا فى شبه جزيرة البلقان بحيث يشرفون منها على آسيا وأوربا، وكانت عاصمتهم واقعة بين

(١) فلسفة التاريخ العثمانى لمحمد جميل بيهم. ص ٢٨٠، ٢٨١.

البحرين الأسود والأبيض، وواصلت بين البرين آسيا وأوروبا، فكانت خير عاصمة لأكبر دولة تحكم على آسيا وأوروبا وإفريقية، حتى قال نابليون: «لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها».

وكانت أوروبا لها الخطر الكبير والشأن العظيم في المستقبل القريب، تزخر فيها القوى الحيوية وتجيش في صدورهم عوامل الرقي، فكان في استطاعة الترك - لو وفق الله - أن يتقدموا في ميدان العلم والعقل ويسبقوا أمم أوروبا النصرانية ويصبحوا أئمة العالم يقودونه إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوروبا زمام العالم وتقوده إلى النار والدمار.

• انحطاط الأتراك في الأخلاق وجمودهم في العلم وصناعة

الحرب:

ولكن من سوء حظ المسلمين - فضلاً عن سوء حظ الأتراك - أخذ الترك في الانحطاط والتدلى ودب إليهم داء الأمم من قبلهم: الحسد والبغضاء واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد أخلاقهم وخيانة الأمراء وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة، إلى غير ذلك من أخلاق الأمم المنحطة مما هو مبين في كتب التاريخ التركي، وليس هذا موضع تفصيله، وكان شر ما أصيبوا به الجمود في العلم والجمود في صناعة الحرب وتنظيم الجيوش، وقد نسبوا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ (١) إلخ. وقول النبي ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها» (٢)، وكان خليقاً بهم - لخرج مركزهم السياسي والجغرافي، وقد أحاطت بهم الدول الأوربية إحاطة السوار بالمعصم - أن يجعلوا وصية القائد الإسلامي الكبير عمرو بن العاص رضي الله عنه للمسلمين في مصر نصب أعينهم: «واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم

(١) آية: ٦٠ الأنفال.

(٢) رواه الترمذي - العلم - رقم: ٢٨٢٧.

وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم» ولكن الترك وقفوا وتقدم الزمان، وتخلفوا وسبقت الأمم الأوربية.

● الجمود العلمى فى تركيا:

وقد وصفت الكاتبة خالدة أديب هانم هذا الجمود العلمى فى تركيا وصفًا يحسن بنا أن ننقله هنا قالت:

«ما دامت فلسفة المتكلمين تهيمن على الدنيا ظل علماء الإسلام فى تركيا يقومون بواجبهم ويحسنون القيام به، وكانت المدرسة السليمانية ومدرسة الفاتح مركزين للعلوم والفنون السائدة فى ذلك الزمان، لكن لما نشط الغرب من عقال الفلسفة الإلهية والمباحث الدينية الكلامية ووضع أساس العلم الحديث والحكمة الجديدة فأحدث انقلابًا فى العالم لم تعد جماعة العلماء تقدر على الاضطلاع بأعباء التعليم والقيام بواجبات المعلمين. كان يعتقد هؤلاء أن العلم لا يزال حيث كان فى القرن الثالث عشر المسيحى لم يتجاوز ذلك المقام ولم يتقدم، ولم تزل هذه الفكرة الخاطئة سائدة على نظامهم التعليمى إلى القرن التاسع عشر المسيحى».

«إن فكرة علماء تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى هذه ليست من الدين فى شىء، إن الفلسفة الإلهية أو علم الكلام الذى كان عند المسلمين أو النصرانى، إنما كان مبنياً على فلسفة الإغريق، وكان الغلبة فيه لأفكار أرسطاطاليس الذى كان فيلسوفًا وثنيًا، ويجدر بى فى هذا المقام أن أقارن بإجمال بين عقلية العلماء المسيحيين والمسلمين».

«لم يتعرض القرآن الكريم بالتفصيل لمسألة خلق العالم الطبيعى، والقسط الأوفى فى تعليمه والأهمية الكبرى للحياة الخلقية والاجتماعية، ومقصوده الأكبر فصل ما بين الحسن والقبيح والخير والشر، إنه جاء بشريعة للعالم، وكلما ذكر مسألة من مسائل ما بعد الطبيعة أو المعارف الروحية قلما نرى فيها تقيداً أو إشكالاً، إن أساس تعليمه التوحيد، فكان الإسلام دينًا سمحًا بسيطًا، وهو أفسح صدرًا للنظريات الجديدة عن العالم الطبيعى من

الأديان الأخرى بكثير، ولكن هذا التسامح وهذه البساطة التي كانت تساعد في التحقيق العلمي الجديد لم تطل مدتها في حياة المسلمين. قيد العلماء والمتكلمون في القرن التاسع الهجري الإلهيات - فضلاً عن الفقه - بسلاسل وقيود، وأوصدوا باب التحقيق والاجتهاد، في ذلك الوقت تغلغت أفكار أرسطاطاليس في الفلسفة الإسلامية.

«بالعكس من ذلك الدين المسيحي - الذي هو أولى بأن يسمى دين الراهب بولس - فإن «سفر بدء التكوين» يحتوى على تفصيل للعالم الطبيعي، وإذ آمن النصارى بأنه كلام الله كان الواجب عليهم أن يقرروا صدقه، ولما كانت المشاهدة لا تؤيدهم في هذا التأويل لجأوا إلى الاستدلال وتمسكوا بأهداب أرسطاطاليس، لأن منطقته يعمل عمل السحر».

«لما بدأ الغرب في دراسة الطبيعة بواسطة المشاهدة والاختبار والتحليل والتجزئة سقط في أيدي رجال الكنيسة، ولما وصل العلماء بطرق عملية إلى اكتشافات مهمة خاف علماء النصرانية على سيادة الكنيسة أن تنقرض، فحدث صراع عنيف بين الدين والعلم، وذهب كبار علماء الطبيعة الذين كانوا عاكفين على دراستهم وتحقيقهم ضحية علمهم».

«واضطرت الكنيسة النصرانية بعد المعارك الدموية بين الدين والعلم أن تواجه الواقع، فأدخلت علوم الطبيعة في برنامج مدارسها وكرلياتها، وأصبحت جامعاتها التي لم تكن تختلف بالأمس عن مدارس المسلمين، مركزاً للعلوم الطبيعية والعلوم الحديثة، وكانوا يقدرّون على أن يباحثوا الناشئة في كل موضوع».

«وكان العلماء في تركيا العثمانية على الضد من ذلك، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة، بل منعوا الأفكار الجديدة أن تدخل في منطقتهم، وإذ كانوا متصرفين بزمام تعليم الأمة الإسلامية ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمي، وكانت مشاغلهم السياسية قد طغت في دور الانحطاط، وكانت لا تسمح لهم بأن

يتحملوا متاعب المشاهدة والاختبار، فلم يكن لهم إلا أن يلحوا على فلسفة أرسطاطاليس، وبينوا علمهم على الاستدلال فلم تزل المدارس الإسلامية في القرن التاسع عشر المسيحية، كما كانت في القرن الثالث عشر المسيحية^(١).

● الانحطاط الفكري والعلمي العام:

ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب العلمي، وشبه شلل فكري، قد أخذه الإعياء والفتور، واستولى عليه النعاس. ولعل القرن التاسع - إذا لم نقل القرن الثامن - آخر قرون النشاط والتوليد والابتكار في الدين والعلم، والأدب والشعر والحكمة، والقرن العاشر أول قرون الخمود والتقليد والمحاكاة، وترى هذا الخمود عاماً شاملاً للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري، أو النابغة أو المحقق على الأقل، أو من جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكر، أو زاد في العلم زيادة حسنة، إذا استثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي، كالشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٢٤هـ) صاحب الرسائل الخالدة في الشريعة والمعارف الإلهية، والشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٦هـ) صاحب حجة الله البالغة وإزالة الخفاء والفوز الكبير ورسالة الإنصاف، وابنه الشيخ رفيع الدين (م ١٢٣٣هـ) صاحب تكميل الأذهان وأسرار المحبة، والشيخ إسماعيل بن عبد الغنى بن ولي الله الدهلوي (م ١٢٤٦هـ) صاحب منصب الإمامة والعبقات والصراط المستقيم^(٢).

(١) «صراع الشرق والغرب في تركيا»: محاضرات في الإنجليزية لخالدة أديب ألفتها في الجامعة المليية الإسلامية، الخطبة الثانية «انحطاط العثمانيين» ص ٤٠ - ٤٣.

Conflict of East and West in Turkey by Halide Edib p.. 40 - 43.

(٢) انظر تراجمهم في كتاب نزهة الخواطر للعلامة عبد الحى الحسنى المجلد الخامس والسادس والسابع.

ولا نقرأ فى شعر هذه العصور الأخيرة على كثرة ما نظم وقيل فيها شعراً مطبوعاً يعلق بالذهن، أو إنشاء مترسلاً ينشرح له الصدر، ترى أدباً فاتراً بارداً قد أفسده التألق فى الحلية اللفظية والمبالغة والتهويل فى الألفاظ والمعانى وكثرة التملق فى المدح والغزل بالمدح فى الشعر، والتكلف حتى فى الرسائل الإخوانية والأغراض الطبيعية والسجع البارد حتى فى كتب التاريخ والتراجم.

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين، وغصت بالحواشى والتقارير والتلخيصات والمتون التى ضمن فيها مؤلفوها على القرطاس، وتعمدوا التعقيد والغموض، وكأنهم ألفوها فى صناعة الاختزال، وكل ذلك ينبىء عن الانحطاط الفكرى والعلمى الذى حل بالعالم الإسلامى وتغلغل فى أحشائه.

• معاصرو العثمانيين فى الشرق؛

وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان فى الشرق، إحداهما الدولة المغولية التى أسسها بابر التيمورى (سنة ٩٣٣هـ ١٥٤٦م) وكان معاصراً للسلطان سليم الأول وتوالى على عرشها ملوك من أعظم المسلمين شوكة وأبهة وقوة حربية واتساع مملكة، وكان أعظمهم أورنگ زيب، وكان آخر الملوك التيموريين الأقوياء وأوسعهم وأعظمهم فتوحاً وأمتنهم ديانة وأعرفهم بالكتاب والسنة، وقد عاش أكثر من تسعين سنة وحكم خمسين وتوفى (سنة ١١١٨هـ) أى فى فجر القرن الثامن عشر المسيحى، وهو عصر مهم جداً فى تاريخ أوربا ولكنه لم يكن هو ولا سلفه على شىء من الاتصال بما كان يجرى فى أوربا وما تتمخض به من حوادث جسام، وما يفور فى صدره من عوامل الرقى والنهضة، وكانوا ينظرون إلى من يغشاهم من تجار أوربا وأطبائها أو سفراء دولها - على قلة ورودهم من هذه البلاد النائية - نظر الاستخفاف والاحتقار.

وكانت تصاقب دولتهم فى أفغانستان الدولة الصفوية، وكانت راقية متحضرة ولكنها شغلت بنزعتها الشيعية وبالهجوم على الدولة العثمانية مرة والدفاع عن نفسها مرة أخرى.

وانحصر هاتان الدولتان في قطريهما وكانتا بمعزل عما يقع في الشرق الأدنى فضلاً عن الغرب، وفي البلاد الإسلامية فضلاً عن البلاد الأجنبية، أما التحالف والتكتل فلم يكن يخطر من أحد منهم على بال، وذلك مما طبعت عليه الدول الشرقية والحكومات الشخصية ووصى بها الآباء الأبناء، وكذلك دراسة أحوال أوروبا العلمية والحربية واقتباس العلوم والصنائع من الخارج فلم يكن يدور بخلد إنسان في ذلك العصر.

• نهضة أوروبا الجاهلية وسيرها الحثيث في علوم الطبيعة

والصناعات؛

وكان القرن السادس عشر والسابع عشر المسيحي من أهم أدوار التاريخ الإنساني الذي له ما بعده، قد استيقظت فيه أوروبا من هجعتها الطويلة، وهبت من مرقدتها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل وتعدو إلى غايتها عدواً، بل تطير إليها بكل جناح، تسخر قوى الطبيعة وتفضح أسرار الكون، وتكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة وتفتح فتوحاً جديدة في كل علم وفن وفي كل ناحية من نواحي الحياة ونبغ في هذه المدة القصيرة رجال ومبتكرون في كل علم وعبقريّة أمثال كوبرنيكس (Copernicus) وبرونو (Brunoe) وغليليو (Galilio) وكبلر (Kepler) ونيوتن (Newton)، وغيرهم الذين نسخوا النظام القديم وأسسوا نظاماً حديثاً واكتشفوا عوالم في العلم، ومن الرحالين المكتشفين أمثال كلمبس (Columbus) وفاسكودي غاما (Vas-co Dagama) ومجلن (Maglin). كان تاريخ الأمم في هذا الدور في صياغة وسبك، وكانت نجوم الأمم والشعوب بعضها في أفول وبعضها في طلوع، يصير الأفل منها طالعاً والطلع آفلاً، وكانت ساعة في ذلك الزمان تساوي يوماً بل أياماً، ويوم يساوي عاماً بل أعواماً، فمن ضيع ساعة فقد ضيع زمناً.

• تخلف المسلمين في مرافق الحياة:

ولكن المسلمين لم يضيعوا ساعات وأياماً بل ضيعوا أحقاباً وأجيالاً انتهزت فيها الشعوب الأوروبية كل دقيقة وثانية، وسارت سيراً حثيثاً في كل ميدان من ميادين الحياة وقطعت في أعوام مسافة قرون.

ومما ينبىء عن مقدار خمول تركيا في ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل في تركيا إلا في القرن السادس عشر المسيحى، ولم تدخل المطابع في العاصمة والمحاجر الصحية في هذه الدولة إلا في القرن الثامن عشر، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربى. وفي آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات، حتى لما شاهدوا بالوناً يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء، قد سبقتها دول أوربا الصغيرة في الأخذ بأسباب المدنية والرفاه العام، وحتى سبقتها مصر في اتخاذ السكك الحديدية واستعمال القطارات بأربعة أعوام وفي استعمال طوابع البريد ببضعة أشهر.

• تخلفهم في صناعة الحرب:

ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب، بل كان هذا الانحطاط عاماً شاملاً، حتى تخلفوا عن أوربا في صناعة الحرب التى كان التركى في الزمن الأخير ابن بجدتها وأبا عذرتها، قد أقر بفضلهم وتبريزهم فيها العالم ولكن سبقتهم أوربا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت جيوشها العثمانية هزيمة منكرة (سنة ١٧٧٤م) وظهر سبقها في ميدان القتال أيضاً فانتهت الدولة العثمانية بعض الانتباه، وانتدبت الماهرين الأوربيين لتنظيم الجيش وتربية العساكر، وعنى السلطان سليم الثالث في فجر القرن التاسع عشر بالإصلاح، وكان عصامياً قد نشأ وتعلم خارج البلاط - خلافاً لسابقه - وأنشأ مدارس جديدة وكان

يعلم بنفسه فى مدرسة الهندسة، وألف جيشاً على الطراز الحديث، وأدخل تعديلات وتحسينات فى النظام السياسى، وقد بلغ الشعب حدّاً كبيراً من الجمود والمحافضة على القديم فى كل شىء حتى ثار عليه الجيش القديم واغتاله، وخلفه محمود الثانى الذى حكم من سنة ١٨٠٧م إلى سنة ١٨٣٩م، ومن بعده عبد المجيد الأول (١٨٣٩م - ١٨٥١م) فخلفا سليماً الثالث فى مهمته وتقدمت تركيا بعض التقدم.

قارن هذا الشوط الذى قطعته تركيا الإسلامية فى ميدان الرقى والتقدم، بالأشواط التى قطعها أوربا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر تجد الفرق هائلاً، فلم يكن جريهما فى الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب، إلا أن الأرنب ساهر دائب فى عمله، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفى إغفاءة.

الباب الرابع

العصر الأوربي

الفصل الأول

أوروبا المادية

• طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها:

قبل أن ننظر ماذا أثر تحول القيادة من الأمم الإسلامية إلى الأمم الأوربية فى عقلية العالم وأخلاق الشعوب والأمم والمدنية والاجتماع واتجاهات الإنسانية وميولها وماذا جنى منه النوع الإنسانى وهل كان ربحه أكثر من خسارته ورزئه أو بالعكس؟ . . يجب علينا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية ووضعها وروحها وفلسفة حياة هذه الأمم وكيف نشأت؟ .

ليست الحضارة الغربية فى القرن العشرين المسيحى وليدة هذه القرون المتأخرة التى تلت القرون المظلمة فى أوربا أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين، فهى سليله الحضارة اليونانية والحضارة الرومية قد خلفتهما فى تراثهما السياسى والعقلى والمدنى، وورثت عنهما كل ما خلفتا من ممتلكات ونظام سياسى وفلسفة اجتماعية، وتراث عقلى وعلمى، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما، بل انحدرت إليها فى الدم، فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع - حفظه لنا التاريخ - للعقلية الأوربية وأول حضارة - سجلها التاريخ - قامت على أساس الفلسفة الأوربية تجلت فيها النفسية الأوربية، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية تحمل روحاً واحدة هى الروح الأوربية، وظلت الشعوب الأوربية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها، وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها، حتى برزت بها فى القرن التاسع عشر فى ثوب براق يوهمك - بطلاوته وزهو ألوانه - أنه جديد النسيج ولكن لحمته وسداه من نسيج اليونان والرومان.

إذا يحسن بنا أن نتعرف بالحضارة اليونانية والرومية أولاً وأن نعرف طبائعهما وروحهما، حتى نكون على بصيرة في انتقاد الحضارة الغربية والحكم عليها في القرن العشرين.

• خصائص الحضارة الإغريقية:

اليونان أمة موهوبة، من أنجب أمم العالم وأذكاه وأكثرها استعداداً للعلم والأدب، ومن أخصبها أذهاناً وعقولاً، وقد مثلت في العالم دوراً خالداً بفلسفتها وأدبها ووفرة من نبغ فيها من العلماء والحكماء والعبقريين تزهو بأثارهم مكتبات العالم.

والذي يعنينا الآن هو أن نعرف طبيعة الحضارة التي أنشأوها، فإذا نظرنا فيها نظرة تحليل وانتقاد وصرفنا النظر عما تشترك فيه مع الحضارات من مظاهر وظواهر وبحثنا عن طبيعتها وخصائصها وجدنا من المزايا التي تمتاز بها عن المدنات الأخرى - خصوصاً المدنات الشرقية - ما يلي:

(١) الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس.

(٢) قلة الدين والخشوع.

(٣) شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائدها.

(٤) النزعة الوطنية.

ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المتشعبة في كلمة مفردة وهي «المادية» فكانت الحضارة اليونانية شعارها «المادية» وهي التي ينم بها كل ما يتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة وشعر ودين، فلم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته إلا في شكل آلهة نحتوا لها تماثيل وبنوا لها معابد وهيكل، فللرزق إله، وللرحمة إله، وللقهر إله، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادي وتسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات، وصوروا المعاني المجردة وتصوروها في أجسام وأشكال، فللحب إله وللجمال إله، وليس نظام العقول العشرة والأفلاك التسعة في فلسفة أرسطاطاليس إلا رشحة من رشحات هذه المادية التي لا تتخلى عنها الطبيعة اليونانية.

وقد سلم العلماء الأوربيون بغلبة المادية في الحضارة اليونانية، ونوهوا بها في كتبهم وبحوثهم العلمية، وقد ألقى العالم الألماني الدكتور «هاس» (Hass) ثلاث محاضرات في جنيف عنوانها «ما هي المدنية الأوربية؟» وهو من العلماء الذين يرون أن المدنية الغربية لم تتأثر بالشرق، وأنها مدنية مفردة ممتازة، ونلخص هنا كلامه فيما نحن بصدده:

«المدنية اليونانية هي مركز المدنية الغربية الحاضرة، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً مناسباً، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب وليس هذا إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتداداً كبيراً، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية والرقص وغيره، وكان الشقيف الذهني الذي يحتوى على الشعر والغناء والتمثيل والفلسفة وعلوم الطبيعة لا يتجاوز حداً خاصاً حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم، وكان الدين خلواً من الروحانية المعنوية، لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين. أما اللون الروحي الذي في تقاليد «أزفس» وغيرها فإنما هو مستعار من الشرق ولا يصح أن ينسب إلى المدنية اليونانية».

ولاحظ كثير من العلماء الأوربيين رقة الدين في اليونان وقلة الخشوع والجد في أعمالهم وكثرة اللهو والطرب في حياتهم. يقول ليكي في كتابه «تاريخ أخلاق أوربا»: «إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة، وكانت الحركة المصرية بالعكس من الأولى، روحية باطنية. وينقل «أبوليس» المؤلف الرومي قوله: «إن المصريين يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء» ويعلق عليه بقوله: «لا ريب أن التاريخ اليوناني يصدق ذلك ويؤيده، فلا نعلم ديناً من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده في كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفي قلة الخشية والخشوع فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم، وكانوا يكتفون في تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية».

وكان لليونان فلسفة إلهية وعقائد يستغرب معها الخشوع لله وعبادته والتضرع له والالتجاء إليه والاطراح على عتبته، فإن من ينقى الصفات عن

الله تعالى ويعطله وينفى عنه الاختيار والأفعال والخلق والأمر فى هذا الكون، ويربط هذا العالم بما يسمونه «العقل الفعال وحركات الأفلاك» فإنه بطبيعة هذه العقيدة لا يقصد الله فى حياته العملية إلا تقليدًا، ولا يرجوه ولا يهابه ولا يحبه ولا يخر لعظمته، ولا يستغيث به فى شدته ولا يسبح بحمده ويعيش كأنه لا إله ولا رب، فإذا سمعنا أن اليونان لم يكونوا خاشعين لله وكانت عبادتهم وأعمالهم الدينية أجسادًا بغير أرواح، وأنهم كانوا يعظمون الله كما كانوا يعظمون شيوخهم وكبارهم لم نستغرب البتة، وإنما نتعجب إذا سمعنا عكس ذلك، وقد أثرت شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والمبالغة فى قيمتها، وكذلك الولوع بالتماثيل والصور والغناء والموسيقى التى يسميها اليونان الفنون الجميلة ولهج الأدباء والمؤلفون بالحرية الشخصية التى لا تعرف قيدًا ولا تقف عند حد، تأثيرًا سيئًا فى أخلاق اليونان ومجتمعها، فانتشرت الفوضى فى الأخلاق وحدثت ثورة على كل نظام، وأصبح شعار الرجل الجمهورى (وهو كناية عن الحر والمتنور) الجرى وراء الشهوات العاجلة، وانتهاب المسرات، والتهام الحياة التهام الجائع النهم. يصف سقراط - كما ينقل عنه أفلاطون فى كتابه «المملكة» الرجل الجمهورى فكأنما يصف ناقد من نقاد هذا القرن فتى القرن العشرين فى إحدى عواصم المدنية الغربية:

«إذا قيل له: إن بعض المسرات من الرغبات التى هى طيبة وتستحق الاحترام وبعضها من الشهوات التى هى قبيحة، وإن الأولى ينبغى أن يعمل بمقتضاها وتحترم والأخرى مما ينبغى أن يمنع عنها ويقام عليها الحجر، لم يقبل هذا الرجل هذا القانون الصحيح ولا يسمح بسماعه، فإذا عرضت عليه هذه الحقائق أنغض إليه رأسه مستهزئًا وأكد أن جميع الشهوات سواء وتستحق الاحترام بغير فرق بينها، وهكذا يعيش ويقضى أيامه مرضيًا شهواته التى تعتريه أحيانًا، ذات يوم تراه سكران ثملًا مصغيًا إلى الغناء، وفى يوم آخر تراه صائمًا يجتزىء بالماء، وتارة يدخل فى التربية والتمرين، وأخرى تراه كسلان عاطلاً يهمل كل شىء، ومرة تراه يعيش عيش فيلسوف، وأحيانًا يدخل فى السياسة وينهض ويخطب بمقتضى الوقت، ربما يمدح بعض رجال

الحرب والجنديّة ويميل إليهم أو يشرع في التجارة لأنه يغبط التاجر الرابع، ليس لحياته نظام ولا ضبط ولكنه يعد هذه الحياة هنيئة ناعمة سارة ويواصلها إلى النهاية».

أما الوطنيّة فهي من لوازم الطبيعة الأوربيّة، وهي أظهر وأقوى في أوربا منها في آسيا، وقد أغرى بذلك الطبيعة الجغرافية وأوحته، لأن المناطق الطبيعيّة في آسيا واسعة جداً وتشمل على مناخات وعلى أجيال وأنواع كثيرة للبشر، وهي غنية مخصبة في وسائل المعيشة، فالمملكة في القارة الآسيوية تنجح بحكم الطبيعة إلى السعة والعموم، وظهرت في أرضها وازدهرت أوسع ممالك عرفها التاريخ، أما في أوربا فالتنازع على البقاء فيها شديد، والكفاح للحياة دائم مستمر، لتزاحم العمران وضيق المناطق وقلة وسائل المعيشة، وقد حصرت الجبال والأنهار الأجناس الأوربيّة، في نطاق ضيق طبعي دائم، وبالأخص الجزء الأوسط الغربي والجزء الجنوبي من أوربا، لا يسمح لممالك واسعة عظيمة، وقد شاءت طبيعة هذه القارة أن يكون منشأ لممالك ضيقة صغيرة، لذلك كان التصور السياسي في أوربا في القديم لا يكاد يجاوز ممالك بلدية لا تزيد منطقتها على أميال مستقلة استقلالاً تاماً، وأكبر مظهر لهذا التصور أرض اليونان حيث وجدت من فجر التاريخ عشرات من مدن صغيرة مستقلة.

فلا عجب إذا كان اليونان يدينون بالوطنيّة وينتحلونها وقد سلم «ليكي» أن الفكرة الوطنيّة هي الفكرة السائدة في اليونان، وكانت الفكرة العالميّة التي قد نطق بها بعض حكمائهم كسقراط وإنكساغورس شاذة لم تنل أنصاراً وانتصاراً في يونان فكان نظام أرسطاطاليس الأخلاقي مبنياً على التمييز بين اليوناني وغير اليوناني، وكان خب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق التي أجمع عليها حكماء اليونان، وأن أرسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب، بل قال: إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم، وقد راجت هذه الفكرة الوطنيّة الضيقة في الأوساط اليونانية

وتغلغلت فى الأحشاء، حتى لما قال فيلسوف إنه لا يخص مواطنيه بمواساته بل سيكون بره عامًا لجميع اليونانيين استشرفه الناس عجبًا ونظروا إليه شزراً.

• خصائص الحضارة الرومية:

خلف اليونان الروم وفاقوهم فى القوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة وصفات الجندية، ولكن لم يلحقوا بهم بعد فى العلم والفلسفة والآداب والشعر والتهذيب واللباقة والمدنية التى كان للإغريق فيها فضل وتقدم على جميع الأمم المعاصرة وعلى الروم أيضاً الذين كانوا لا يزالون فى دورهم العسكرى، فخضعوا لهم علمياً وتطفلوا على مائدتهم واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم.

يقول ليكى:

«إن اليونان كانت لهم ثروة علمية ضخمة أنتجوها وزادوا فيها على مر القرون والعصور، وكانت رومة لا تزال فى طورها الجندى لا تملك أثراً من الآثار الأدبية، بل كانت لغتها قاصرة فى التعبير عن الأفكار والمعانى العالية، فغلب الروم بتخلفهم وقصورهم فى العلم، وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية التى غلب أهلها فى السياسة، ولم يزالوا مأخوذِينَ بسحرهم فى كل قسم من أقسام العلم، فكان المؤرخون الأقدمون فى الروم يؤلفون كتبهم باليونانية، واستمرت اليونانية لغة التأليف والعلم بعد ما بدأ شعراء الروم ينظمون الشعر فى اللاتينية».

ولم يكن هذا الخضوع خاصاً فى عالم التأليف والأدب فحسب، بل غلبت المدنية الإغريقية المدنية الرومية فى الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع وفى العواطف والنزعات، وفى كل ناحية من نواحي الحياة العامة، وأصبح الروم يقلدون الإغريق ويتنبلون بذلك ويتظرفون.

وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية، بل النفسية اليونانية إلى الروم، وجرت منهم مجرى الروح والدم، ولم يكن الروم -بطبيعتهم الأوربية- يختلفون عن اليونان فى الخصائص الفطرية كثيراً، بل هناك شبه

عظيم بين الأمتين، إيمان بالمحسوس وغلو في تقدير الحياة وشك في دين، وضعف في يقين، واضطراب في العقيدة، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه، واعتزاز بالقومية وتعصب لها، وحب مفرط للوطن، زد إلى ذلك كله اعتداداً بالقوة واحتراماً زائداً لها يبلغ العبادة والتقديس.

يظهر من التاريخ أنه لم يكن للرومان إيمان راسخ في دينهم، وإنى أعذرهم في ذلك، فإن النظام الدينى الوثنى الخرافى الذى كان سائداً فى رومية يقتضى بطبيعته الشك والاضطراب وضعف الإيمان، فكلما تقدموا فى العلم وتنورت أفكارهم، ازدادوا استخفافاً به، وقد قضوا من أول يوم أن الآلهة لا دخل لهم فى السياسة وأمور الدنيا.

يقول (سيسرو Cicero):

لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أحياناً معناها أن الآلهة لا دخل لها فى أمور الدنيا يصغى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة.

ويقول الراهب (أغستين Auguostine):

«إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزأون بهم فى دور التمثيل» وقد فقد الدين الرومى سلطانه الروحى على معتنقيه، وبردت العاطفة الدينية فى قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها فى بعض الأحيان، فإن التاريخ يحدثنا أنه لما غرق أسطول للأمبراطور أغسطس Augustus استشاط غضباً، وحطم تمثال نيبتون Neptune إله البحر، ولما مات جرمينيكس Germanicus رجم الناس أنصاب الآلهة (التي كانوا يذبحون عليها)^(١).

فلم يكن للدين تأثير فى أخلاق الأمة وسياستها ومجتمعها، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ويراقب عليهم أخلاقهم ونزعاتهم، ولم يكن

(١) تاريخ أخلاق أوربا:

History of European morals (Thepagan empire).

دينًا عميقًا يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلب، بل كان تقليدًا من التقاليد، كانت السياسة تقتضى البقاء عليه ولو بالاسم والرسم، يقول ليكى:

«إن الدين الرومى كان أساسه على الأثرة، ولم يكن يرمى إلا إلى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب، والشاهد على ذلك أنه ظهر فى رومية مئات من الأبطال والعظماء، ولكن لم ينهض فيها زاهد فى الدنيا عزوف عن ملذات الحياة، ولا تسمع مثلاً فى تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا تجده لا تأثير فيه للدين ولكن مبنياً على الوطنية»^(١).

والظاهرة التى يمتاز بها الروم من بين أمم الأرض المعاصرة بل بعدها، والتى أصبحت لها دينًا تدين به وشعاراً تعرف به هى روح الاستعمار والنظر المادى البحت إلى الحياة، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه.

وقد أجاد وصفه العالم الألمانى المسلم الأستاذ محمد أسد فى كتابه النفيس الإسلام على مفترق الطرق، قال:

«إن الفكرة التى كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هى احتكار القوة لها واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة الوطن الرومى فقط، لم يكن رجالها والقائمون عليها يتحاشون من أى ظلم وقسوة فى سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للروم فقط، إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادى محض للحياة والحضارة، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية، إن الروم لم يدينوا بالدين جدياً أبداً، كانت آلهتهم التقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغريق وخرافاتهم، وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة الاجتماعية التى كانت تربطهم وتوحدهم، فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل فى حياتهم العملية كان لها أن يأذنوا أن تتكهن بالغيب

(١) المصدر نفسه.

- إذا سئلت عن ذلك - على لسان الكهان ولكن لم يحلوا لها أبداً أن تفترض شرائع أخلاقية على الناس»^(١).

• الانحطاط الخلقى فى الجمهورية الرومية:

وفى نهاية دور الجمهورية سال بالروم سيل الانحطاط الخلقى والبهيمية، وفاض بحر الترف فى العيش والبذخ فيضاً عظيماً - غاص الروم فيه إلى القاع وسالت فيه النظم الأخلاقية التى كان الروم معروفين بها كالغناء، وتزعزع البناء الاجتماعى حتى كاد ينهدم، وقد صور «دراير» الأمريكى بقلمه البليغ:

«لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهديب إلى أسفل الدركات، بטר الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الطعام، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة، كانت موائدكم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر، ويحف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة وغادات رومية حسان وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع، ولا يزالون يصارعون حتى يختر الواحد منهم صريعاً يتشحط فى دمه، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هنالك شىء يستحق العبادة فهو القوة، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التى يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين، وإذا غلب الإنسان فى ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ويعين إيرادات الإقطاع وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة

القاهرة فكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذى نراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها»^(١).

• تنصر الروم:

وها هنا حادثة عظيمة يجب أن يسجلها المؤرخ وينوه بها، وهى اعتلاء النصرانية عرش رومة الوثنية، وكان ذلك بجلوس قسطنطين الذى اعتنق النصرانية على سرير الأباطرة سنة ٣٠٥م فانتصرت فيه النصرانية على الوثنية ونالت فجأة ما لم تكن تحلم به من ملك عريض ودولة مترامية الأطراف وكلمة لا تعلوها كلمة. ولما كان قسطنطين إنما توصل إلى الملك على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دمائهم التى أريقت فى الذب عنه والنصر له، عرف لهم الجميل وبذل لهم وجهه، ووطأ لهم أكتافه وقلدهم مفاتيح ملكه.

• خسارة النصرانية فى دولتها:

ولكن انتصر النصارى فى ساحة القتال وانهزموا فى معترك الأديان، ربحوا ملكاً عظيماً وخسروا ديناً جليلاً، لأن الوثنية الرومية مسخت دين المسيح ومسحه أهله، وكان أكثر مسخاً له وتحريقاً هو قسطنطين الكبير حامى دمار النصرانية ورافع لوائها.

يقول «دراير»:

«دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام، وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره فى الظلم والفجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً فى آخر عمره (٣٣٧م).

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها،

وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء - هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية، إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً، ونشر عقائده خالصة بغير غش.

وإن هذا الإمبراطور الذى كان عبداً للعالم والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين - النصراني والوثني - أن يوحدتهما ويؤلف بينهما، حتى إن النصراني الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة، ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طمست ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها.

● الرهبانية العاتية:

فلم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة التى فقدت روحها وجمالها أن تغير من سيرة الروم المنحطة وأن تبعث فيهم حياة جديدة، حياة دينية نقية طاهرة وأن تفتح عهداً زاهراً فى تاريخ الروم، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلها كانت شراً على الإنسانية والمدنية من بهيمية رومة الوثنية، وقد جن جنون هذه الرهبانية فى العالم النصراني وتخطى حدود القياس، وإنا نلتقط أمثلة من كتاب تاريخ أخلاق أوربا وهو قليل من كثير جداً.

«زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان، وفى القرن الرابع المسيحى كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب، وكان الراهب «سرابين» يرأس عشرة آلاف، وقد بلغ عددهم فى نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر».

● عجائب الرهبان:

ظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق إلى قرنين، وروى المؤرخون من ذلك عجائب، فحدثوا عن الراهب ماكارىوس (Makarius) أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقصر جسمه العارى ذباب سام، وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد، وكان صاحبه الراهب يوسيبس (Eusebius) يحمل نحو قنطارين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نرح، وقد عبد الراهب يوحنا (St. Jhon) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلاً والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس، يقول الراهب اتھينس: إن الراهب أنتونى لم يقترب إثم غسل الرجلين طول عمره، وكان الراهب أبراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة، وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلهفاً: وأسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات، وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار ويتزعمون الصبيان من حجبهم أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً، والجمهور يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب أمبروز (Am-brose) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس^(١).

(١) اقرأ تاريخ أوربا «ليكى» Lecky: History of European Morals iv.

• تأثير الرهبانية في أخلاق الأوربيين:

كان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل، عادت فاستحالت عيوباً ورزائل، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها، وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية، وعم الكنود والقسوة على الأقارب، فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة، وعيونهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد، فيخلفون الأمهات ثكالى والأزواج أيامى والأولاد يتامى، عالة يتكففون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة لا يبالون ماتوا أو عاشوا، وحكى «ليكى» من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب^(١).

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهم في الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات وأزواجاً أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية، وروى «ليكى» من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً.

• عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة:

ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية الغالية قد عدلت من شره المادية الرومية وكبحت من جماحها وغلوائها في البهيمية والشهوات، فإن هذا لم يكن ولا يكون في الغالب وتأباه الفطرة الإنسانية ويكذبه التاريخ، فإن الذى يوجد الاعتدال ويخفض من المادية الجامحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحى الدينى الخلقى الحكيم الذى يوافق الفطرة الإنسانية الصحيحة، والذى لا يتصدى لأن يزيل الفطرة الإنسانية، بل يوجهها توجيهاً نافعاً، فإنها لا تزول ولكن تميل من شر إلى خير، وهكذا فعل الإسلام، وهكذا فعل

History of European Morals. Part II Chapter IV, from Constantine to (١) Charlemagne.

سيدنا محمد ﷺ، فقد صرف شجاعة العرب من المنافسات القبلية والتقاتل وأخذ الثأر والأحقاد القديمة إلى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، وصرف تبذيرهم وسماحتهم إلى الإنفاق في سبيل الله، وشغلهم عن الجاهلية بالدين الإسلامي، وأبدل الشيء بالشيء، وأعطى النفس حقها من النشاط والترويح، فإن النفوس كما قال عالم من علماء المسلمين لا تترك شيئاً إلا بشيء، وإن النفوس قد خلقت لتعمل لا لتترك^(١)، وإن الأنبياء قد بعثوا بتكميل الفطرة وتكريرها لا بتبديلها وتغييرها^(٢).

قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر^(٣)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أبزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وذلك يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا، وفي رواية أنه قال: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد^(٤).

أما النصرانية الرومية فقد حاولت عبثاً تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيغه، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به فرغبت فيه كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملت كارهة، ثم تخلصت منه وثار عليه ولم تقدر النصرانية - بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع - أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم، وتمسك بضبع المدنية الساقطة إلى الهاوية وتمنعها من التردى، فكانت حركة

(١) من كلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية م ٧٢٧هـ في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم» ص ١٤٣.

(٢) ابن تيمية في كتابه «النبوات».

(٣) رواه أبو داود: الصلاة رقم ١١٣٤.

(٤) رواه البخاري: الصلاة رقم ٩٥٢، والبيهقي ٢٢٤/١٠، وابن ماجه نكاح ١٨٩٨.

الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنباً إلى جنب، بل الأصح أن الرهبانية كانت معتزة في الصحارى والخلوات لا سلطان لها على الحياة، وحركة الخلاعة والإباحة كانت زاخرة طامة في المدن والحوضر.

• بين الرهبانية العاتية، والمادية الجامحة:

يصور «ليكى» ما كان عليه العالم النصراني في ذلك العصر من التآرجح بين الرهبانية والفجور فيقول:

«إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتيهما في أخلاق الناس واجتماعهم، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والتساقط على الشهوات والتملق في مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء والمسابقة في زخارف اللباس والحلى والزينة في حدتها وشدتها، كانت الدنيا في الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى، وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته. وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحداث والفضيحة بين الناس، وكأن الضمير الإنساني ربما يخاف الدين ووعيده، ولكنه آمن واطمأن، لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان، لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة، ولكن قل الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة، مع انحطاط في حرية الفكر والحماسة القومية»^(١).

• الفساد في المراكز الدينية:

ولم تكن الرهبانية والنظام الدينى السلبى إلا مصادمة للفترة، فبقيت مقهورة بعوامل الديانة الجديدة وسلطانها الروحى وساعدتها عوامل أخرى،

ثم قهرت الطبيعة وتسرب الضعف والانحراف فى المراكز الدينية حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية وربما تسبقها فى فساد الأخلاق والدعارة والفجور، لذلك وقفت الحكومة المآدب الدينية التى كانت ترمى إلى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التى وجدت فيها الخلاعة والفجور حمى ومرتعاً، واتهم القسوس بكبائر ومنكرات.

ويقول الراهب «جروم» (Jarum):

«إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع، وقد تباع بالمزاد العلنى، ويؤجرون أرض اللجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران، ويأذنون بنقض القانون، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد، ويرتشون ويرابون، وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا إنوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية. ويذكر عن البابا ليو العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال، وأنفق نصيبه ودخله، وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفاً وأنفقه، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم»^(١).

• تنافس البابوية والإمبراطورية:

وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية فى القرن الحادى عشر، فاشتدت بعنف وحمى وطيسها، وانتصرت فيها البابوية أولاً حتى إن هنرى الرابع ممثل الإمبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوى فى قلعة كانوسا ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن شفع له الرجال، فسمح له بالمشول بين يديه، فدخل الإمبراطور صاغراً حافياً لابساً الصوف وتاب على يديه فغفر له البابا زلته، وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجالاً حتى ضعفت البابوية، وبقي الناس هذه المدة

الطويلة يتنازعهم عاملان دينى ودنيوى وبقوا يرزحون تحت نيرين إمبراطورى وبابوى .

وكان البابوات يتمتعون فى هذه العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن للملوك والأباطرة، وكان يمكن لهم أن يتقدموا بأوربا تقدماً صحيحاً فى العلم والمدنية تحت ظل الدين، لأن نوابهم وممثليهم كانوا يتجولون فى البلدان الأوربية وينزلون من أهلها فى جناب مريع وظل ظليل، ويتفاهمون معهم بلغة واحدة ويتدخلون فى أمور سياسية مهمة، ووجدوا فى كل بقعة أنصاراً لهم من ذوى رأى والسياسة يتكلمون بلغة واحدة ويساعدونهم فى مهمات الدولة .

● شقاء أوربا برجال الدين؛

ولكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية ومن سوء حظ الأمم التى دانت بها أساؤوا استعمال هذا السلطان الهائل فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم، وبقيت أوربا تتسكع فى دياجير الجهل والخرافة والانحطاط، وأصبحت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم فى صميمها، فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوربية فى ألف سنة، ولم يتضاعف عدد سكان إنكلترة فى خمسمائة سنة، ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبة التى كان القسوس والرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها، ولم يشأ الكهان والأساقفة أن يساهم الأطباء فى مرافقهم وغلاتهم فانتشرت الأوبئة والأمراض فى طول القارة وعرضها، وتعرف من رحلة أنيس سلوئيس الذى اشتهر بعد بلقب (Pus the Second) التى قام بها فى الجزائر البريطانية حوالى سنة ١٤٣٠م ما كانت عليه هذه الجزائر من بؤس وانحطاط فى المدنية وفقير مدقع .

● جناية رجال الدين على الكتب الدينية؛

ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين فى أوربا ومن أكبر جنایاتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية

ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني، وإذا كان ذلك في عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه التحول والتعارض، فإن العلم الإنساني متدرج مترق، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصرًا على كتيب مهيل من الرمل. ولعلمهم فعلوا ذلك بنية حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين، فإن ذلك، كان سببًا للكفاح المشثوم بين الدين والعقل الذي انهزم فيه الدين ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذي فيه الحق والباطل والخالص والزائف - هزيمة منكرة، وسقط رجال الدين سقوطًا لم ينهضوا بعده، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوروبا أصبحت لادينية.

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا في ذلك كتبًا وتآليف، وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية (Christian Topography) وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها.

● اضطهاد الكنيسة للعلم:

وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي، وأنشأوا محاكم

التفتيش التي تعاقب - كما يقول البابا - أولئك الملحدون والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول، فجدت واجتهدت وسهرت على عملها، واجتهدت أن لا تدع في العالم النصراني عرقاً نابضاً ضد الكنيسة، وانبتت عيونها في طول البلاد وعرضها، وأحصت على الناس الأنفاس، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصراني: «لا يمكن لرجل أن يكون مسيحياً ويموت حتف أنفه»، ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو، نقت من الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقرحت بأن لا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعنى أن يحرق حياً، وكذلك كان.

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غاليليو (Galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس.

● ثورة رجال التجديد:

هنالك ثار المجددون المتورون وعيل صبرهم، وأصبحوا حرباً لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب، وعادوا الدين المسيحي أولاً والدين المطلق ثانياً، واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية، وزعماء الدين المسيحي، وبلغت أصرح، الديانة والبوليسية - حرباً بين العلم والدين مطلقاً، وقرر الثائرون أن العمل والدين ضربتان لا تتصالحان، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان، من استقبل أحدهما استدبر الآخر، ومن آمن بالأول كفر بالثاني، وإذا ذكروا الدين، ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقَت في سبيل العلم والتحقيق، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة، وجباه مقطبة، وعيون ترمى بالشرر، وصدور ضيقة حرجة، وعقول سخيصة بليدة، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه، وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم.

• تقصير الثائرين وعدم تثبتهم:

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير، ومن الوداعة والهدوء، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجال المحتكرين لزعامته، ويفرقون بين ما يرجع إلى الدين عن عهدة ومسئولية، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل، فلا يندوا الدين نبذ النواة، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتريث في شأنه كغالب الثوار في أكثر الأعصار والأمصار.

ولم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة لأنفسهم وأمتهم وسعة الصدر ما يحملهم على النظر في الدين الإسلامى الذى كان يدين به أمم معاصرة لهم، الدين الذى يخلصهم من هذه الأزمة و ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ولكن حمية الجاهلية والسدود التى أقامتها الحرب الصليبية بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى ودعاية الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام، وعدم تجشم التعب والمطالعة، وقلة الحرص على النجاة الأخروية والاهتمام بما بعد الموت، زد إلى ذلك تفريط المسلمين فى التبشير الإسلامى، ونشر الإسلام فى أوربا، كل ذلك منعهم من الرجوع إلى الدين الإسلامى والأخذ به فى ساعة كانوا يحتاجون إليه حاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق.

• اتجاه الغرب إلى المادية:

وعلى كل فقد وقع المحذور وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم، وكان ذلك تدريجياً، وكان أولاً ببطء وعلى مهل، ولكن بقوة وعزيمة، فقام علماء الفلسفة والعلوم

الطبيعية ينظرون فى الكون نظراً مؤسساً على أنه لا خالق ولا مدبر ولا أمر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف فى هذا العالم وتحكم عليه وتدبر شئونه، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعى، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحت، وسموا هذا نظراً علمياً مجرداً وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقاً تقليدياً لا يقوم عندهم على أساس العلم والحكمة، واستهزأوا به واتخذوه سخرياً، ثم انتهى بهم طريقهم الذى اختاروه وبحثهم ونظرهم إلى أنهم جحدوا كل شىء وراء الحركة والمادة، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتى تحت الحس والاختبار، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة، فأصبح - بحكم الطبيعة وبطريق اللزوم - الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة، من قبيل المفروضات التى لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم.

إنهم لم يجحدوا بالله إلى زمن طويل، ولم يكشفوا الدين العدا، ولم يجحدوا به كلهم، ولكن منهج التفكير الذى اختاروه، والموقف الذى اتخذوه فى البحث والنظر لم يكن ليتفق والدين الذى يقوم على الإيمان بالغيب وأساسه الوحي والنبوة ودعوته ولهجه بالحياة الأخروية، ولا شىء من ذلك يدخل تحت الحس والاختبار ويصدقه الوزن والعد والمساحة، فلم يزالوا يزدادون كل يوم شكاً فى العقائد الدينية.

• افتضاح المادية فى الدور الأخير:

ولكن رجال النهضة الأوربية ظلوا قروناً يجمعون بين النظر المادى الجاحد والحياة المادية، والطقوس الدينية المسيحية، بالتقليد أو بتأثير المحيط الذى لا يزال فى العالم النصرانى، أو بمصالح خلقية واجتماعية كانت تقتضى البقاء ولو بالاسم على نظام دينى يؤلف بين أفراد الأمة ويحفظها من الفوضى، حتى افتضحوا فى الأخير وصعب الجميع بينهما بسرعة سير الحضارة المادية، وتخلف الدين والتقاليد وعجزها عن مسايرتها وما فى الجمع بينهما من متاعب وضياح للوقت وتكلف هم فى غنى عنه، فطرحوا الحشمة ورموا برقع النفاق.

• جنود المادية ودعاتها:

ونهض الكتاب والمؤلفون والأدباء والمعلمون والاجتماعيون والسياسيون فى كل ناحية من نواحي أوربا ينفخون صور المادية، وينفثون بأقلامهم سمومها فى عقل الجمهور وقلبه، ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً، تارة ينشرون الفلسفة النفعية، وطوراً فلسفة اللذة الأبيقورية.

والسياسيون أمثال ميكياڤلى الفلورنسى (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) دعوا من قبل إلى فصل الدين عن السياسة، وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية، وقرروا أن الدين - إذا كان لابد منه - قضية شخصية لا ينبغى أن تتدخل فى أمور السياسة والدولة، وأن الدولة عندهم أعز وأهم من كل شىء، وأن النصرانية إنما موضوعها الحياة الأخروية، وأن المتدينين والصالحين لا يفيد وجودهم الدولة، وإن كان يفيد الكنيسة، لأنهم يتقيدون بأحكام الدين، ولأنهم لا يستطيعون أن يحدوا عن أحكام الدين ومبادئ الأخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك، وأن الملوك والأمراء يجب عليهم أن يتخلقوا بأخلاق الثعالب، ولا يحتشمو من نقض العهود والكذب والخيانة والغش والنفاق إذا كان فى ذلك أدنى مصلحة للدولة إلى غير ذلك، ونجحت هذه الدعوة وساعدتها عوامل كثيرة من الوطنية والقومية التى خلفت الديانة القديمة.

وأحدث الأدباء والمؤلفون وأصحاب البراعة والقريحة والذكاء، وخصوصاً فى ثورة فرنسا وبعدها، الثورة على الأخلاق القديمة، والنظم الاجتماعية، وزينوا للناس الإثم، ونشروا دعوة الإباحة، وإطلاق الطباع من كل قيد، والفرد من كل مسئولية، ودعوا إلى التهام الحياة البهيمية، وإرضاء الشهوات، وانتهاك المسرات، واستعجال الطيبات، وغلوا وأسرفوا فى تقدير قيمة هذه الحياة وجحدوا كل شىء سوى اللذة العاجلة والنفع المادى الظاهر المحسوس.

• نسخة صادقة من الحضارة اليونانية:

فأصبحت الحياة فى أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة فى يونان وروما الوثنيتين الجاهليتين، وعادت الطبيعة الأوربية (التي كانت النصرانية الشرقية قد قهرتها) جذعة.

ولا غرابة فى ذلك، فالأوريون إنما ينحدرون من أولئك اليونان والرومان، والسلاسل الأوربية الأخرى ترى دينًا خلواً من الروحانية، كما لاحظ الدكتور «هاس» فى ذكر الحضارة اليونانية.

وترى رقة الدين وقلة الخشوع والجد فى أعماله، وكثرة اللهو والطرب فى الحياة، كما ذكر «ليكى» عن الديانة اليونانية، وهو نتيجة الوضع الدينى الذى وصلت إليه أوربا، فإنه لا يتفق والخشوع لله والجد فى عبادته، ونتيجة تلك النظريات والغايات التى وصل إليها علماء الطبيعة والحكمة فى أوربا وأعلنوها، تلقاها الجمهور بالقبول وحلت محل الدين.

وترى كذلك تهافتًا على ملذات الحياة تهافت الظمآن على الماء والفراش على النار، والحرص على اقتطاف جنى الحياة وثمارها باليدين، كما وصف به سقراط الرجل الجمهورى اليونانى فى عصره.

وكذلك ترى شكًا فى الدين واضطرابًا فى العقيدة واستخفافًا بالنظام الدينى وطقوسه وتقاليده، كما رأيت فى روما بعد التنور.

• ديانة أوربا اليوم المادية لا النصرانية:

فمما لا شك فيه أن دين أوربا الذى يملك عليها القلب والمشاعر ويحكم على الروح هو المادية لا النصرانية كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوربية واتصل بالأوريين عن كثب لا عن كتب، بل وعن كتب أيضًا - ولم ينخدع بالمظاهر الدينية التى تزيد فى أبهة الدولة والتى يجد فيها الشعب ترويحًا للنفس وتنوعًا، ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس وحضورهم فى تقاليدها.

وقد بين ذلك فى وضوح وصراحة الأستاذ الألمانى المهتدى محمد أسد السابق ذكره فى كتابه: «الإسلام على مفترق الطرق» قال:

«لا شك أنه لا يزال فى الغرب أفراد يعيشون ويفكرون على أسلوب دينى ويبدلون جهدهم فى تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم، ولكنهم شواذ. إن الرجل العادى فى أوربا، ديمقراطياً كان أو فاشياً، رأسمالياً كان أو اشتراكياً، عاملاً باليد أو رجلاً فكرياً، إنما يعرف ديناً واحداً، وهو عبادة الرقى المادى والاعتقاد بأنه لا غاية فى الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل، وبالتعبير الدارج «حرة مطلقة» من قيود الطبيعة، أما كنائس هذا «الدين» فهى المصانع الضخمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء، وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون الذين يضربون رقماً قياسياً، ونتيجة هذه النهماء للقوة، والشره للذة، النتيجة اللازمة ظهور طوائف متنافسة مدججة بالسلاح، والاستعدادات الحربية، مستعدة لإبادة بعضها بعضاً إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها، أما فى جانب الحضارة فتتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة فى القائدة العملية، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادى لا غير»^(١).

«إن الحضارة الغربية لا تجحد الله فى شدة وصراحة، ولكن ليس فى نظامها الفكرى موضع لله فى الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه»^(٢).

ربما يقلل من قيمة هذه الشهادات على مركز الدين فى الحياة الأوربية ومدى تأثيره كون صاحبها قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام ومن أوربا إلى الشرق الإسلامى، فها هنا شهادة أصرح منها وأدل على اضمحلال الدين الرسمى فى أكبر مراكزه، واستنكاف أهله من الانتساب إليه لأحد كبار المعلمين فى «لندن» وكتاب الإنكليزية البارزين.

(١) Islam At the Cross Roads, p. 50. Fifth Edition

(٢) Islam At the Cross ROADS. p. 40

قال الأستاذ جود (Joad) رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن فى كتابه (Guide to Modern Wickedness):

«سألت عشرين طالباً وتلميذة كلهم فى أوائل العقد الثانى من أعمارهم: كم منهم مسيحى بأى معنى من معانى الكلمة، فلم يجب بـ «نعم» إلا ثلاثة فقط، وقال سبعة منهم: إنهم لم يفكروا فى هذه المسألة أبداً، أما العشرة الباقية فقد صرحوا أنهم معادون للمسيحية، أنا أرى أن هذه النسبة بين من يؤمن بالمسيحية ويدين بها وبين من لا يؤمن فى هذه البلاد ليست شاذة ولا غريبة، نعم إذا وجه هذا السؤال إلى مثل هذه الجماعة قبل خمسين سنة أو عشرين، كانت الأجوبة مختلفة، بناء على ذلك الذين يتفقون فى رأى مع (Canon Barry) ويزعمون أن نهضة مسيحية كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلاً جداً، فإنى لا أرى لرأيه هذا مؤيداً ومبرراً إلا أن يكون ذلك رغبته وهواه، فإن الأهواء كثيراً ما تخلق الأفكار، ولكنها لا تولد الشهادات والوثائق، وإن الأحوال والآثار فى هذه البلاد لتدل على أن الكنيسة النصرانية ستموت فى القرن الآتى، وإليك ما يؤيد هذا الرأى نقلاً من صحيفة يومية:

اخترع رجل فى السابعة والسبعين من عمره طريقة تحول بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعى واللدائن وأوراق النقد الثمينة، وإن آله قد نصبت فى (Cardiff Factory) وفى ثمانية مصانع أخرى وتصنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية وقد استثمر المخترع بالآلة ثروة عظيمة بعد ما عاش فى ضنك من العيش.

ويختتم الأستاذ مقالته هذه بجملة من التوراة - ولا أجمل منها - لمخاطبة القسوس ورجال الدين أمثال (كينين بيرى) وغيره «فليسمع من له أذنان»^(١).

ويقول هذا المؤلف فى كتابه الثانى (Philosophy for our Times) «لم يزل سائداً على عقلية انكلترا منذ قرون شره المال والتملك، وكانت رغبة نيل الثروة أقوى عامل فى حياة البلاد وأكبر باعث على العمل، لأن الثروة وسيلة للتملك، وضخامته ووفرته مقياس لكفاءة الإنسان، ولم يزل الناس يتلقون من طرق السياسة والأدب والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية، وفى بعض الأحيان من منابر الكنائس فى ظل عام وشهر - التحريضات على جمع المال واقتنائه والإقناع بأن الأمة المتمدنة هى التى ارتقت فيها عاطفة الشره والتملك.

إن هذه العبادة للمال تناقض عقائدنا الدينية، لأن الدين يمدح الفقر ويذم الغنى، ويقول: إن الفقير أقدر على الصلاح من الغنى، ومع أن الحكمة والنعيم الدينى متفقان على أن الفقر أوفق لعبادة الله ودخول الجنة، ولكن الناس لم يرغبوا إلى تصديق الدين فى ذلك والعمل بأحكامه، ولم يزالوا يؤثرون الثروة الحاضرة على نعيم الجنة الموعود، لعلهم يظنون أنهم إذا تابوا فى آخر عهدهم بالدنيا فإنهم يحرزون حسنى الآخرة، كما ظفروا بحسنى الدنيا بأموالهم المودعة فى المصارف.

وقد أعرب عن فكرتهم هذه (Sammuel Butler) فى كتابه بقوله: «إن بعض المؤلفين يقولون: إنا لا نستطيع أن نجمع بين عبادة الله وعبادة المال، وأنا أسلم أن الأمر ليس بميسور، ولكن متى تكون المهمات فى الدنيا ميسورة سهلة؟»

فمهما اختلفنا فى المبادئ فإن الحقيقة الراهنة أن كلنا راسخ فى تقليد بتلر وأتباعه، فنحن مشغوفون بحب المال، وعقيدتنا أن الثروة هى المقياس الصحيح لعظمة الفرد والحكومة، وكانت سبباً لظهور مبدئين لهام الأهمية التاريخية الكبرى.

أحدهما: مبدأ عدم التدخل الاقتصادى الذى كان سائداً على القرن التاسع عشر، ويدعى أصحاب هذا المبدأ أن الإنسان يبنى عمله على أعظم

نفع يجلبه ، وأن ليس الباعث على الأعمال الالتذاذ بالعواطف القلبية بل الالتذاذ بالثروة.

والمبدأ الثانى الذى يسود القرن العشرين : هو مبدأ التنظيم الاقتصادى المنسوب إلى ماركس ، ويقوم هذا المبدأ على أن نظام الإنسان الاقتصادى إنما يتأسس على حوائج الإنسان المالية ، وهذا النظام هو الذى يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحكومة ، ولم يكن هذان المبدآن لينالا القبول الذى نالاه لولا شغف الناس فى بلادنا بالمال والاهتمام الزائد به .

ويقول فى مكان آخر من هذا الكتاب :

«إن نظرية الحياة التى تسود على هذا العصر وتحكم عليه : هى النظر فى كل مسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب (Stomach and pocket view of life).

وقد أجاد الصحفى الأمريكى المشهور (Jhon Gunther) تمثيل هذه النفسية فى كتابه فى «داخل أوروبا» (Inside Europe) بقوله :

«إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا (Bank of England) ستة أيام فى الأسبوع ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة» .

● مظاهر الطبيعة المادية فى أوروبا :

إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بحياة أخرى ولا يعتقدون وراء اللذة والتمتع بالحياة والعلو فى الأرض غاية عليا ، ولا يذكرون الله إلا نادراً ، ولا يرجون له وقاراً ، كيف يرجى منهم أن يتضرعوا إلى الله إذا مسهم الضر ، ويخبتوا إليه وينبوا إذا دهمهم الخطر كما ذكر الله عن المشركين الذين كانوا يؤمنون بالله : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾^(١) ولكن هؤلاء -

(١) آية : ٣٢ لقمان .

بإمعانهم فى المادية والتمسك بالأسباب الظاهرة والتعلل بها واستغنائهم عن الله - قد وصلوا من القسوة والغفلة إلى حيث صدق عليهم قول الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٢) فلا تكاد تشعر فى خطب الزعماء والوزراء فى أوربا برقة قلب وانكساره وإخبات إلى الله فى أدهى ساعات الحرب وأمرها، ولا تشاهد شيئاً من ذلك فى أخلاق الشعب وأعماله وأفراحه، ويعد ذلك مفكرو الغرب وأدباؤه من باب التجلد وقوة القلب وإباء الضيم، وقد افتخر أحد زعماء الإنجليز وكبار رجال السياسة فى البرلمان الإنجليزى بأن رجال الشعب الإنجليزى لم يستسلموا للحوادث والنوازل، واستشهد على ذلك بأن المشتغلين بالرقص واللهو فى سنغافورة لم يتحولوا عن مكانهم ولم يؤخروا أدوار الرقص والغناء، وطائرات اليابان تمطر المدينة شأيب القنابل. ويحكى هندی عن سهرة شهدها قال: «بينما نحن فى الرقص إذ سمعنا الإنذار بالغارة الجوية فساد الهدوء فى المكان، ثم قال أحد أصحاب المجلس: ماذا ترون؟ هل يستمر الرقص أم يؤخر؟ فأجابت فتاة: بل نستمر راقصين، وهكذا كان، ودوت الحارة فضلاً عن النادى الذى كنا فيه بالأغاني» (٣). ويقول: «من العادات اليومية أنه يعلن فى السينما: تبدأ الغارة الجوية ولكن يستمر هذا الفصل ومن أراد أن يذهب إلى المخبأ فطريقه أسفل إلى اليسار، ولكن الناس يستمرون جلوساً ولا أحد يرح من مكانه ويبدأ الفصل» (٤) ويقول كاتب إنجليزى تعليقاً على صورة نشرت فى (Statesman) الصحيفة الإنجليزية اليومية الكبرى فى الهند فى ٢٤ من يناير ١٩٤٢م: «من

(١) آية: ٤٢، ٤٣ الأنعام.

(٢) آية: ٧٦ المؤمنون.

(٣) الغارات الجوية: أشرف الدهلوى ص ٧١.

(٤) أيضاً ص ٧٠.

الغريب أن أجمل التمثيليات إنما ظهرت أيام الحروب الكبرى في التاريخ، كذلك الشأن في بريطانيا اليوم فالناظر يرى الملاحى والسينما والتمثيليات. والصنور ما لم يكن يرى أجمل وأبداع منها قبل الحرب، والمتفرج يجد فى ملاهى لندن كل ما يسليه ويرضى ذوقه»، وفى عدد آخر من هذه الجريدة الصادر فى ١٥ من ديسمبر ١٩٤٣م «إن صناعة الأفلام فى «لندن» و «لشبونة» و «موسكو» إلى تقدم وفى ازدهار»، ولا تجد مثالا لهذا التجلد والعكوف على اللذة واللهو فى أشد ساعات الحرج وفى آخر ساعات العمر إلا فى يونان وروما فى العهد القديم.

وقد روى مراسل روتر كيف استقبل المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية العام المقبل وودع العام الراحل وذلك فى يوم عصيب من أيام الحرب يلجأ فيه الإنسان إلى الله ويفيق السكران ويخشع القاسى، وإليك نص البرقية:

«واشنطن، اليوم الأول من يناير (عام ١٩٤٢م) البارحة لما كان العام الجديد يلتقى بالعام المنصرم وكان المستر تشرشل رئيس الوزراء مسافراً من كندا إلى الولايات المتحدة فى قطار رسمى خرج رئيس الوزراء مستصباً سير شارليس بورتل بغتة ودخل مطعم القطار والسيجار فى فمه وكأس شمبانية فى يده، وتعجب ممثلو الصحف الذين كانوا سائرين معه، تناول المستر تشرشل الكأس مبتسماً وقال: «باسم عام ١٩٤١م ذلك العام القائد إلى الاجتهاد والتعب والفتح» فى ذلك الوقت لفظ العام الراحل نفسه الأخير، وتنفس العام الجديد، وأعلنت الساعة بوفوده. وهنا الصحفيون ورؤساء القطار المستر تشرشل، وأخذ رئيس الوزراء يد سير شاليس بورتل بيد. وأخذ يد كاربورل هارنر بيده الأخرى، وأخذ كل واحد بيد الآخر، وبدأوا يغنون فى رقصة وانطلق المستر تشرشل إلى الباب وقال:

ليهنكم جميعاً ورزقنا الله الفتح، وجعلت الجماعة تغنى فى حدة وتصفيق، وخط رئيس الوزراء حرف V وانصرف إلى عربته سعيداً مسروراً».

قارن هذه الطبيعة المادية بالنفسية الدينية وتعاليم الدين وعمل المتدينين وسيرتهم في الحروب والأخطار ففي القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وفي سيرة ابن هشام في وقعة بدر الكبرى قال ابن اسحاق: «ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليس معه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»^(٢).

والمادية لأسباب حتمية طبيعية وتاريخية وعلمية قد أصبحت شعار الحضارة الغربية والحياة الغربية منذ عهد عريق في التاريخ، ولم تزدها النشأة الجديدة والنهضة العلمية والسياسية في أوروبا إلا حدة وقوة، وقد لاحظ هذا الامتياز كثير من علماء الغرب والشرق، فمن علماء الشرق الأستاذ الأملعى الرحالة ذو النظر الثاقب عبد الرحمن الكواكبي في مستهل هذا القرن فقد قال في كتاب «طبائع الاستبداد»:

«الغربي مادي الحياة، قوى النفس شديد المعاملة، حريص على الاستئثار حريص على الانتقام، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق، فالجرمانى مثلاً جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت، ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال، فهو يحب العلم ولكن لأجل المال ويحب المجد ولكن لأجل المال، واللاتينى منه مطبوع على العجب والطيش، يرى العقل في الانطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشرف في الزينة واللباس، والعز في التغلب على الناس».

وهذا تصوير صادق للطبيعة الأوروبية وتحليل صحيح للنفسية الغربية، ولا نطن المرحوم الكواكبي قد تحامى الكلام على غير الجنس الألمانى واللاتينى إلا تفادياً من الوقوع في العنت، فجعل الألمانى واللاتينى مثلاً لسائر الأوربيين.

(١) آية: ٤٥ الأنفال.

(٢) ابن هشام ٢/٢٤٦.

• الغايات المادية للحركات الروحية العلمية؛

وترى هذا الروح المادى فى جميع نظم أوربا السياسية والاجتماعية والخلقية التى ابتكرتها أو جددتها شعوبها لهذا العهد، حتى إن الحركة الروحية التى شغلت الناس كثيراً فى أوربا فى الزمن الأخير إنما روحها المادية، فقد أصبحت صناعة وفناً كسائر الصناعات والفنون فى أوربا، غايتها مشاهدة عجائب إقليم الروح والاطلاع على أسرارها والتحدث إلى أرواح الموتى وترويح النفس والتلهى، وليست من تزكية النفس وتصفية القلب والخشوع لله والعمل الصالح والاستعداد للموت والصبر على مكاره الحياة وهضم النفس فى شىء، خلافاً للحركة الروحية والتصوف فى الشرق الإسلامى.

كذلك الأعمال التى يضحى فيها الناس بنفوسهم وأرواحهم فى الغرب إنما ترجع فى الغالب إلى غايات مادية كحسن الأحدثات وانتشار الصيت وخلود الذكر فى التاريخ والتبريز على الناس وأن يتمجد به شعبه ويفتخر ويتشرف به وطنه ويغتبط خلافاً للأعمال التى يتغنى بها وجه الله، فالمسلم يخاف أن يشوف عمله شىء من الرياء والسمعة فيحبطه ويسمع قول الله تعالى: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صِنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢) وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل الذى يقاتل شجاعة ويقاتل رياء: أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (٣). وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه: «اللهم

(١) آية: ١٠٣-١٠٥ الكهف.

(٢) آية: ٢٣ الفرقان.

(٣) رواه البخارى - العلم رقم ١٢٣، ومسلم - الإمارة رقم ١٥٠، وابن ماجه - الجهاد رقم ٢٧٨٣.

اجعل عملى كله صالحاً واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لغيرك فيه شيئاً»، واجتهاد الصالحين من هذه الأمة فى إخفاء عبادتهم وصدقاتهم معروف فى كتب التاريخ والسير.

● التصوف المادى الغربى ووحدة الوجود الاقتصادية؛

وقد بلغ النظر المادى والفكر المادى فى أوربا درجة الاستغراق فيه والفناء ونسيان ما سوى القيم المادية، ولنضرب بذلك مثلاً بكارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣م مؤسس الفلسفة الشيوعية.

يرى كارل ماركس أن النظام الاقتصادى هو روح الاجتماع وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادى، هو يقول: إن فى كل عصر وفى كل دور من أدوار التاريخ طريقة خاصة للإنتاج الصناعى وعلى وفقها تتعين العلاقات الاجتماعية، ولكن بعد قليل لا تبقى هذه العلاقات الاجتماعية متوافقة متناسبة مع طرق الإنتاج ويجهتد بعض الناس لتشكيل هذه العلاقات تشكيلاً جديداً، وهذه هى التى تعرف فى التاريخ بالانقلابات والثورات، والمؤرخ يجهل ما هيتها ولكن لا غرابة فى ذلك؛ فإن الذين يشتركون فى هذه الثورات قد لا يشعرون أنفسهم بالغاية التى يقاتلون لأجلها، ولكن يمكن لنا أن نحل هذه الألغاز ونعلم أن الارتقاء السياسى والتعديلات والتحسينات فى النظم السياسية وما يطرأ عليها من التغيير والتطور ليست إلا صوراً جديدة للعلاقات الاجتماعية تظهر لتجعل هذه العلاقات متناسبة متوافقة بطرق الإنتاج الجديدة من جديد، ولما كان الاختلاف بين طرق الإنتاج الصناعى والعلاقات الاجتماعية التى تقوم عليها مستمراً فيكون الجهد لتطبيقها مستمراً أيضاً، وإذا تجاوز الاختلاف واشتد ظهر فى شكل ثورة، ولكن لا ينبغى لنا -إذا لم تكن الاختلافات واضحة- أن ننفى وجودها وننكرها، والاختلاف بين مناهج الإنتاج الصناعى والوشائج الاجتماعية يظهر فى حرب الطبقات، لأن جميع طبقات الاجتماع إنما هى أجزاء النظام الاقتصادى، ويستتبع من ذلك كارل ماركس أن التاريخ البشرى

غير العهد الذى كانت الحياة البشرية فى طفولتها ليس إلا قصة حرب الطبقات الاجتماعية المختلفة.

وهكذا جحد الرجل جميع نواحي البشرية غير الناحية الاقتصادية ولم يعر غيرها شيئاً من العناية، ولم يقيم للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزناً وقيمة، ولم يعترف أن أحداً منها كان عاملاً من عوامل التاريخ، وأن جميع الحروب والثورات فى التاريخ لم يكن إلا ثأراً لبطن من بطن، وجهاداً فى سبيل تنظيم جديد للنظام الاقتصادى وطرق الإنتاج الصناعى، وحتى الحروب الدينية لم تكن عنده إلا حرب الطبقات الاقتصادية استأثرت إحداها بموارد الثروة ووسائلها وطرق الإنتاج، واجتهدت الأخرى فى أن تنافسها وتتناول قسطها أو أن تنظمها من جديد فوقعت الحرب، ويجب أن تكون كذلك فى رأيه «بدر» و «أحد» و «الأحزاب» و «القادسية» و «اليرموك»، ووقائع ومعارك حفظها التاريخ.

فهذا هو - كما ترى - التصوف المادى الغربى، وهذه هى فلسفة وحدة الوجود وحدة، وجود الاقتصاد، ولما كان الشرقيون إنما يغلبهم الروح الدينى والتأله نفى المتألهون منهم والمغلوبون وجود كل شىء سوى الله، وهتفوا فى سكرهم وغلبة الحال عليهم: لا موجود إلا الله، ولما كان المفكرون الأوروبيون إنما تغلبهم المادية نفوا وجود كل شىء سوى الناحية الاقتصادية وهتفوا: لا موجود إلا البطن والمعدة، إن صوفية الشرق كانوا يرون الإنسان ظلاً ربانياً، أما الماديون فى الغرب فلا يرونه إلا وجوداً بهيمياً حيوانياً.

● نظرية دارون وتأثيرها فى الأفكار والحضارة:

وساعدهم فى وجهة نظرهم هذه فى جميع مسائل الإنسان وزاد الطين بلة، النظرية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر عن ارتقاء الإنسان، وكونه حيواناً مترقياً عما دونه من الحيوانات، لم يزل يجتاز بمرحلة بعد مرحلة فى رحلته النوعية التى استغرقت ألوفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر، من أميبا (Amoeba) إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ

كماله النوعى، وزعيم هذه النظرية وبطلها دارون الذى ظهر كتابه أصل الأنواع (Origin of Species) سنة ١٨٥٩م فكان حديث النوادى والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل، وكانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً لم يسبق فى المسائل البشرية وما يتعلق بها، تقلب تيار الفكر وتصرف نظر الإنسان فى الاستعلام والاستهداء فى مسأله وفى تاريخه من الإنسان إلى الحيوان، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية، وبغير أن تتداخل فيه قوة غير طبيعية، وأن لا علة فى الكون سوى السنن الطبيعية، وأن الموجودات ترتقى من مراتب الحياة الأولى إلى مراتبها العليا بعمل فطرى تدريجى عار من العقل والحكمة، وأن الإنسان وسائر أنواع الحيوان ليس من صنع صانع حكيم بل هو نتيجة نواميس طبيعية انتهى بها التنازع للبقاء وناموس بقاء الأصلح والانتخاب الطبعى الذى هو سائر فى الكون إلى إنسان ناطق ذى شعور.

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل فى المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العملية واضحة، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله فلا غرابة إذاً إذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب، وخافوا على مصير الدين فى أوروبا.

يقول الأستاذ جود فى كتابه:

«يصعب علينا الآن أن ندرك تلك الدهشة والاستغراب الذى فاجأ أجدادنا عندما ظهر كتاب أصل الأنواع لدارون، وعندما جاءت النتائج أن دارون أثبت - أو يظن أنه أثبت - أن عمل ارتقاء الحياة على هذا الكوكب (الأرض) لم يزل مستمراً متواصلاً من ظهور الأميبا (Amoeba) وفرخ البحر (Jelly Fish) فى أشكاله الأولى إلى أشكاله النهائية العليا وهى أرقى أشكال الحياة وأعلاها، فلم يزل عمل الارتقاء من الأميبا إلى طورنا متواصلاً غير منقطع».

«بالعكس من ذلك إن الذين عاشوا فى عصر فكتوريا إنما أرشدوا أن الإنسان خلق مستقل، وهو فى الحقيقة نوع من ملك منحط، أما إذا كان دارون مصيباً فالإنسان لم يكن إلا قرداً راقياً، فعز على أهل عصر فكتوريا أن يكون الإنسان قرداً راقياً بدل أن يكون ملكاً منحطاً، وما طابت لهم هذه النظرية واجتهدوا أن يخلصوا الإنسان من هذه السبة التى لحقتهم من هذه العقيدة فى الإنسان واقترحوا لذلك اقتراحات»^(١).

● إقبال الجمهور على نظرية الارتقاء:

ولكن الجمهور والدهماء من الناس تلقوا هذه النظرية بالقبول - رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة العلمية - فهموها أو لم يفهموها - كأن الأذهان كانت متهيئة لمثل هذه النظرية، وكأن الناس وجدوا فيها منافساً للدين ورجاله وصعب على رجال الدين أن يعارضوا هذا التيار الجارف من أفكار الناس وأذواقهم والسيل العرم من المنشورات والمحاضرات، فوضعت الكنيسة أوزارها فى هذه الحرب حتى إذا مات دارون سنة ١٨٨٣م منحته الكنيسة الإنجليزية أكبر شرف تمنحه لإنسان، وذلك بأنها أذنت بدفنه فى ويست منسترايى محل دفن الرجال الدينيين.

وكان تأثير هذه النظرية بعيداً عميقاً فى الأفكار والحضارة والأدب والسياسة تراه وتلمسه فى أخلاق الناس، وفى نزعات الرجوع إلى الفطرة وإلى العهد الذى كان الإنسان يعيش فيه على الفطرة عارياً حرّاً، وفى تعيين المثل الكامل للإنسان وفى جميع الأعمال والأخلاق التى لا تصدر إلا على تسليم أن الإنسان إنما هو حيوان راق، وفى فساد الحياة المنزلية الذى يعبر عنه المستر شبرد أحد علماء الإنجليز بقوله: «لقد ظهر فى إنجلترا جيل من الناس يجهل الحياة المنزلية جهلاً باتّاً، ولا يعرف غير حياة القطعان والبهائم».

• من جنایات المادية:

وكان من نتائج هذه المادية الجارفة، والتربية اللادينية التي ليس فيها نصيب للأخلاق ومخافة الله عز وجل والإيمان بالآخرة أن أصحاب المراكز الكبيرة، ورجال السياسة والمسئولية يرتكبون في بعض الأحيان جنایات لا يتنزل إليها أكبر الأثمين، وذلك لمصلحة سياسية وهمية لبلادهم وأمتهم أو لجاه شخصي أو ربح مالي، فمن أغرب ما روى في تاريخ البشر من القسوة والظلم، أن الإنجليز قد أوقعوا في بنغال (الهند) مجاعة مزورة غير طبيعية، لأنهم منعوا استعمال القوارب التي يحصد الناس عليها مزارع الأرز - وهو غذاء بنغال - واحتكروا الحبوب في مقدار عظيم للجند - ولم يكتفوا الناس منها حتى فسدت وضاعت، ومات مئات الألوف من الناس جوعاً والحبوب وفيرة في البلاد، والمواصلات ميسورة، والقطر غادية رائحة، والهند بلاد مخصبة تستطيع أن تغذى بلاداً أخرى، وذلك كله لما توقعوه من إقبال الناس على التجنيد، وليبرهنوا على فشل الحكم الذاتي في إدارة البلاد.

وقد تغافل لورد ماونت بيتن حاكم الهند العام سنة ١٩٤٧ عما يدبر من الفتك بالمسلمين في دلهي وبنجاب الشرقية، فقد اتصلت به أنباء المؤامرات والخطط التي كانت تبيت ضد العنصر الإسلامي في هذه المنطقة، وأنذره الخبراء بوقوع اضطراب طائفي هائل، فنام على كل ذلك انتقاماً من أن المسلمين لم ينتخبوه حاكماً عاماً لباكستان كما فعل أهل الهند، ولتكون هذه الاضطرابات الطائفية، والحروب الأهلية حجة على عدم أهلية أهل البلاد للاستقلال، وكونهم عيالاً على الإنجليز في الأمن والنظام، فكان نتيجة ذلك، تلك المجزرة البشرية الهائلة التي عقت القرون أن تلد مثلها.

ومن ذلك أن «ريد كلف» الذي اختاره الفريقان الهنديان حكماً في مسألة بعض مدن بنجاب هل تنضم إلى هندوستان، أو إلى باكستان حكم حكماً جائراً، فكان نتيجة ذلك جلاء المسلمين من فيرزوبور، وكورداسبور، ومتاعب عظيمة، وخسائر كبيرة في النفوس والأموال.

أما تأييد ترومان للصهيونية، ودولة إسرائيل في فلسطين، ومعارضته للقضية العربية التي لا غبار عليها، لأجل أن يكسب ود اليهود ويتمتع بنفوذهم السياسى والمالى والصحافى، وليكسب انتخابه، وتعاميه عن براهين الدول العربية الساطعة، وسكوت أمريكا على فظائع فرنسا في الجزائر، ووقوفها بجوار هذه الدولة الجائرة في قضية الجزائر العربية الإسلامية، وتعاونها على الإثم والعدوان، فقضية تنبىء عن ضعف أخلاق العظماء في أوربا وأمريكا، ودوران الحياة السياسية على الفوائد لا المبادئ.

الفصل الثانى

الجنسية والوطنية فى أوربا

• انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية؛

قدمنا أن الوطنية والقومية والاعتداد الشديد بالشعب والموقع الجغرافى من خصائص الطبع الأوروبى الذى سرى فى العنصر الأوروبى مسرى الروح، وجرى منه مجرى الدم وأصبح طبيعة ثانية له، ولكن النصرانية قهرت هذه الطبيعة، لأنها - على علاقتها، وبرغم ما طرأ عليها من التحريف والتبدل - لا يزال عليها مسحة من تعليم المسيح، وفيها أثارة من علمه، والدين السماوى مهما تحرف وتغير لا يعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان، ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان، فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصرانى عشيرة واحدة، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فغلبت العصبية القومية والنصرة الوطنية، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة، ولكن لما قام لوثر سنة ١٤٨٣ - ١٥٢٦م بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية، ورأى من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان جنسه ونجح فى عمله نجاحاً لا يستهان بقدره، وانهزمت الكنيسة اللاتينية فى عاقبة الأمر فانفرط عقدها، استقلت الأمم، وأصبحت لا تربطها رابطة، ولم تزل كل يوم تزداد استقلالاً فى شؤونها وتشتتاً، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها فى أوربا قويت العصبية القومية والوطنية، وكان الدين والقومية ككفتى ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى، ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم، ولم تزل كفة منافسته راجحة، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزى المعروف لورد لوثن Lord Lothian السفير البريطانى السابق فى أمريكا فى خطبته التى ألقاها فى حفلة جامعة عليكرة فى يناير سنة ١٩٣٨م.

«لما قضت حركة لوثر التي تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوروبا الثقافية والدينية، انقسمت هذه القارة في إمارات شعبية مختلفة، أصبحت منازعاتها ومنافساتها خطراً خالداً على أمن العالم».

وكان نتيجة الانحطاط الديني، وانخفاض مبادئ الدين والأخلاق، رجحان كفة الوطنية والجنسية، يقول «لورد لوثرين» في نفس هذه الخطبة:

«إن الدين الذي هو المرشد اللازم للإنسان والوسيلة الوحيدة لحصول الغاية الخلقية، والشرف المعنوي للحياة البشرية، كان نتيجة الانحطاط في سلطانه أن فتن العالم الغربي بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات وآمن - بتأثير العلوم الطبيعية - أن الرقي المادي هو الغاية العليا، والوطر الأكبر، ولا يزال يزيد هذا الأمر في مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليدها، وكان من نتائج ذلك أيضاً أنه صعب على أوروبا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقاً ينقذها من القومية، داهية هذا العصر الكبرى»^(١).

● طوائف العصبية الجنسية في أوروبا؛

كان نتيجة انحلال النظام الديني وانتعاش النعرة القومية أولاً، أن أصبحت أوروبا معسكراً واحداً ضد الشرق كله، وخطت خطاً فاصلاً بين الغرب والشرق أو بين أوروبا وبين سواها من القارات والأقاليم، والجنس الآري وبين ما عداه من أجناس البشر، يعد أن كل ما دون هذا الخط له الفضل على كل ما وراءه من نسل وشعب وثقافة وحضارة وعلم وأدب، وأن الأول خلق ليسود ويحكم، والثاني ليخضع ويدين، والأول ليبقى ويزدهر، والثاني ليموت ويضمحل، وهذا بعينه ما امتاز به اليونان والروم في عهدهم، فقد كانوا لا يعدون مهذبين إلا أنفسهم فقط، وكانوا يسمون كل شيء غريباً، خصوصاً كل ما كان واقعاً في شرق المحيط الأطلنطيكي بربرياً.

وكان نتيجة هذه النفسية الجنسية والعصبية ضد كل ما جاء من الخارج ويعزى إلى أجنبي، أن صار بعض الشعوب الأوربية ينظر إلى الدين المسيحى وإلى المسيح كطاريء ونزىل يريدون أن ينفوه من بلادهم ويتبرأوا منه، يمثل ذلك ما قال أحد المعلمين فى ألمانيا وهو البروفسور أترنى:

«لأى شىء يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية، ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحق؟ ينبغى أن يكون إلها أيضاً ألمانيا».

ونشأت فى ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح ﷺ لكونه من بنى إسرائيل، والذين لا يزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية، وظهرت فى ألمانيا نزعة إلى إحياء الآلهة القومية القديمة التى كان يعبدها الشعب الألمانى فى عهده القديم.

وليست روسيا العالمية بأقل حماسة للعصبية الجنسية والوطنية من منافسها القديم ألمانيا.

فيعتقد الناس فى روسيا أن أغلب الاختراعات الكبرى فى العصر الحديث إنما يرجع الفضل فيها إلى الروس.

فليس «لافوازييه» هو واضع القانون الخاص بتركيب الأجسام، بل هو مدين بما ينسب إليه للعالم الروسى «ميشيل لوموتوسوف» وليس «لأديسون» فضل فى استخدام الكهرباء فى الإضاءة فقد سبقه «لوجين» الروسى بست سنوات إلى غير ذلك، ونشرت جريدة برافدا: أن العلماء الروسين توصلوا إلى اختراع التلغراف قبل «مورس» وإلى تسيير القاطرة البخارية قبل «ستفنسن» إلى غير ذلك من تحديات للتاريخ ليس الباعث عليها إلا العصبية الجنسية وتقديس «روسيا».

• عدوى الجنسية فى الأقطار الإسلامية؛

ومما يدعو إلى الأسف والاضطراب، أن هذه العدوى الجنسية قد سرت إلى بعض الأقطار الإسلامية التى كان يجب وكان من المترقب أن تكون

زعيمة لدعوة الإسلام العالمية، حاملة في عصرها لرسالة الأمن والسلام، وأن تكون جبهة قوية ضد الجنسية والوطنية، وذلك بانحلال الدين في هذه البلاد، وبتأثير الآداب الأوربية والحضارة الغربية، فترى في الترك النزعة الطورانية والدعوة إلى إحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها، والنظرة إلى الدين الإسلامى الذى انتشر على أيدي العرب وشريعة الإسلام وثقافته ولغته نظرة شبه نظرة ألمانيا الجديدة إلى الأديان التى جاء بها الأنبياء من غير النسل الأرى والآداب السامية وثقافتها، فاعتقد بعض المفكرين فى تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارىء غريب لا يصلح للترك، وأن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنيتهم الأولى قبل أن اعتنق آباؤهم الدين الإسلامى، تقول الكاتبة خالدة أديب هانم عن «ضياء كوك ألب» من كبار مؤسسى تركيا الجديدة أدباً وتهذيباً:

«كان ضياء كوك ألب يريد أن ينشئ تركيا جديدة تكون صلة بين الأتراك العثمانيين وبين أسلافهم الطورانيين، فقد كان يريد أن يقوم بإصلاح مدنى بواسطة المعلومات التى جمعها عن التنظيمات السياسية والمدنية فى عهد الأتراك قبل الإسلام، كان ضياء يعتقد ويؤمن بأن الإسلام الذى وضعه العرب لا يصلح لشأننا، ولا بد لنا من إصلاح دينى يوافق طبائعنا إذا لم نرجع إلى عهدنا الجاهلى»^(١).

ومما لا شك فيه أن هذه النزعة قد وجدت فى الترك وكذلك فى الإيرانيين فى الزمن الأخير.

قال المرحوم الأمير «شكيب أرسلان» وهو الخبير الثقة فيما يتعلق بالترك فضلاً عن العرب لطول مكثه فى تركيا وكان عضواً فى مجلس الأمة:

«وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية تخالف الفئة الأولى - أى الفئة التى تقول بالقومية العثمانية الإسلامية - فى كل هذه النظريات، وأشهر

(١) محاضرات «خالدة أديب هانم» فى الجامعة المليية بدلهى.

دعاتها ضياء كوك ألب وأحمد أغائف، ويوسف أقشورا اللذان قدما من روسيا، وجلال ساهر، ويحيى كمال، وحمد الله صبحى رئيس وجاق «تورك بوردى»، ومحمد أمين بك الشاعر الملى، وكثير من الأدباء والمفكرين، وأكثر الطلبة والنشء الجديد. وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً، وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولى واحد فى الأصل، ويلزم أن يعودا واحداً، ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية، ولم يتقصروا منها على الترك الذين فى سبىريا وتركستان الصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملى، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول فى الصين، وإلى المجر والفنلانديين فى أوربا، وكل ما يقال إنه ينتمى إلى أصل طورانى، وهم يقولون بخلاف ما يقول الأولون، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً، وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية، فتكون عندئذ واسطة لا غاية، وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا: نحن أترك فكعبتنا طوران، وهم يتغنون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم»^(١). . . وقال أيضاً:

«هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى اقتداء بالأمم الأوربية فى الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتد أكثر من ذى قبل، وذلك نظير ما حصل عند الترك، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم وعن الذئب الأبيض الذى كانوا يعبدونه، حتى صوروه فى بعض كتبهم الحديثة، وقال لهم المرحوم (موسى كاظم) شيخ الإسلام - وهو الذى أخبرنى بذلك - : إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان، ولكنهم اقتلعوها بالإسلام وافتخروا بأن الله لطف بهم وأنقذهم

(١) من حواشى الأمير «شكيب أرسلان» على «حاضر العالم الإسلامى» الجزء الأول

منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات، وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالبارئ تعالى وتذكروا عبادة الذئب الأبيض، فيا للأسف.

«فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم القديمة التي منها الكيومرتية (أى تعظيم النور) والتحرز من الظلمة. ومن هنا جاءتهم عبادة النار، ومنها فرقة (زرادشت) الذى كان يدعو إلى وحدانية الله، ويقول: إنه خالق النور والظلمة وإن الخير والشر إنما حصلا بامتزاجهما، وإنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود العالم، إلى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التي كانت عند قدماء الفرس: كالوثنية، والزرذشتية، والمانوية، ومنهم من يبحث عن المزدكية التي كانت تدعو إلى الإلحاد والإباحية»^(١).

• الديانة القومية الأوربية وأركانها:

والخطوة الثانية فى هذا الطريق أن أصبحت الشعوب والدول فى أوربا، الصغيرة منها والكبيرة، عوالم مستقلة لا ترى العالم خارج الخطوط التي خطتها الطبيعة من جبال وأنهار، أو خطتها بيدها من غاية سياسية واستعمار، ولا تعترف بوجود الإنسان فى غير منطقتها فلا تحترمه ولا تعرفه، واتخذت نفسها إلهًا تدين له بكل ما يدين به العباد المخلصون من عبادة وتقديس وأضاح هي دماء الآخرين ونفوسهم وأموالهم وبلادهم، وقتال فى سبيله، وتفان فى طاعته، ومحيا وممات لأجله، وهذا الدين القومى يشتمل على شيئين: إيجابى وسلبى، أما الإيجابى فهو الاعتقاد بأن الشعب أو الأمة فوق كل شيء، وأفضل من كل شيء، وأن الله - إذا كانت الأمة تعترف به وتعتقد أو ترى أن من المصلحة أن تستغل هذه الكلمة - لم يخلق أفضل من هذه الأمة ولا أنجب منها ولا أذكى ولا أقوى ولا أحق بالحكم والسيادة والولاية على الأمم، والرعاية للعالم منها، وأنها أمينة ووكيلة ووصيه فى الأرض، ولم يخلق بلادًا أحب إليه من هذه البلاد، ولا تربة أذكى من تربتها

(١) حواشى حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ١٦٤، ١٦٥.

وهذا هو الدين القومى الذى لا يسمح لإنسان أن يعيش فى بلاده حتى يؤمن به .

ولا تختلف شعوب أوربا الحاضرة ودولها فى هذه الديانة القومية إلا فى الصراحة والنفاق، وأن بعضها تقول وتفعل، وبعضها تفعل ولا تقول، فإن بذرة القومية والوطنية إذا أُلقيت فى أرض فإنها لا تلبث أن تنشأ وتمد عروقها فى الأرض ثم تصير شجرة، فدوحة تظلل الأمة، ولا يمكن لشعب أن يؤمن بالقومية، ثم لا يعتدى ولا يتناول أو لا يريد أن يعتدى ويتناول ولا يمقت الآخرين، ولا يزدريهم، كما لا يمكن أن يسرف الإنسان فى الخمر، ثم لا يسكر ولا يهذى كما قال الشاعر:

ألقاه فى البحر مكتوفاً وقال له: إياك إياك أن تبتل بالماء

خصوصاً إذا كان العلم والأدب والشعر والفلسفة والتاريخ وحتى العلوم الطبيعية متعاونة على إنشاء العاطفة القومية والنصرة الشعبية والخيلاء الجنسية والفخر بالآباء والتعظيم بالماضى، ولا يكون رادع من خلق ولا وازع من دين، وتولى القيادة رجال لا يعرفون غير القومية والمجد القومى غاية مرمى، ومن مقومات هذه الحياة القومية التى لا تقوم بغيرها، الكراهة والخوف، وذلك هو الجزء السلبي فى دين القومية، فإن الحماسة القومية لا تظهر ولا تبقى حتى يكون للشعب ما يكرهه ويخافه، فلا يزال القائدون يثيرون الكامن من عواطفه، ويذكرون الخامد من حميته ويضربون على الوتر الحساس وهو الكراهة والخوف، فلولاها لانقشعت سحابة القومية وتراجع سيلها.

وقد حلل ذلك الأستاذ «جود» تحليلاً فلسفياً نفسياً فقال:

«إن العواطف التى هى مشتركة والتى يمكن إثارتها بسهولة هى عواطف المقت والخوف التى تحرك جماعات كبيرة من الدهماء، بدل الرحمة والجود والكرم والحب، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب لغاية ما، لا ينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه ويوجدوا له من يخافه، وإذا أردت أن

أوجد الشعوب ينبغي أن اخترع لهم عدواً على كوكب آخر - على القمر مثلاً - تخافه هذه الشعوب، فلم يعد من دواعي العجب أن الحكومات القومية في هذا العصر في معاملتها لجيرانها إنما تقاد بعواطف المقت والخوف، فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها، وعلى تلك العواطف يقوى الاتحاد القومي»^(١).

• الحل الإسلامي لمعضلة الحرب والمناقشات الشعبوية:

إن هذا الحل الذي قدمه الأستاذ «جود» لمشكلة الأمم ومعضلة الحروب والمنافسات الشعبوية حل عادل وتوجيه معقول، فلا تنصرف عداوة الشعوب والأمم بعضها لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك في عداوته وكرهه والمخافة منه. وتتعاون في الحرب معه، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع، ولا يلزم أن يوجد لها عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد؟ فالدين ينبه إلى أن هذا العدو للنوع الإنساني ولذرية آدم يوجد على الأرض نفسها، وحق على كل إنسان أن يعاديه ويحترس منه ويتعاون مع بني نوعه في معاداته ومحاربته يقول القرآن: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذْهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢) ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٣).

وقد قسم الإسلام العالم البشري إلى قسمين فقط، أولياء الله وأولياء الشيطان وأنصار الحق وأنصار الباطل، ولم يشرع حرباً ولا جهاداً إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان أينما كانوا ومن كانوا، فقال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ

(١) Guide to Modern Wickedness. p. 150

(٢) آية: ٦ فاطر.

(٣) آية: ٢٠٨ البقرة.

الشَّيْطَانُ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا^(١). وهذه الحروب التي لم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهاباً بالنفس، ولا أعود منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك والسعادة جمعاء فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) في جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة، ودامت إلى السنة التاسعة على ألف وثمانية عشر نفساً [١٠١٨] المسلمون منهم [٢٥٩] والكفار [٧٥٩]^(٢) أما المصابون في حرب ١٩١٥ - ١٩٨١ الكونية فيبلغ عددهم على الأصح واحد وعشرين مليون نسمة^(٣) [٢١,٠٠٠,٠٠٠] عدد المقتولين منهم سبعة ملايين [٧,٠٠٠,٠٠٠] وقدر المستر مكستن (Maxton) عضو البرلمان الإنجليزي أن المصابين في الحرب الثانية الكبرى ١٩٣٩ لا يقل عددهم عن خمسين مليوناً ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب الأولى عشرة آلاف جنيه، أما مجموع نفقاتها فيبلغ ٣٧,٠٠٠,٠٠٠ أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات ١,٠٠٠,٠٠٠^(٤).

ثم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاكمة للدماء عاصمة للنفوس والأموال وفاتحة عهد السعادة والغبطة في العالم، أما حرب التنافس والحمية الجاهلية التي تدعى الحرب الكبرى فقد كانت مقدمة حروب متسلسلة،

(١) آية: ٧٦ النساء.

(٢) عولنا في هذه الأعداد على إحصاء مؤلف السيرة النبوية الشهير القاضي محمد سليمان المنصور فوري في المجلد الثاني من كتاب سيرة رحمة للعالمين ولم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، أما إحصاءات غيره من المؤلفين فإنها تمثل عددًا أقل من هذه الأعداد.

(٣) وقد حقق المستر هـ. تاوانسند E. H. Tawansend في مقالة له نشرتها صحيفة هندو الإنكليزية اليومية (٣١ يناير ١٩٤٣م) أن عدد المصابين في الحرب الكبرى لا يقل عن ٨٨٦ر٥١٣ر٣٧ المقتولون منهم ٨٥١٥ر٥٤٣ر٨.

(٤) من مقالة لتاوانسند في صحيفة هندو.

وإليك ما قال المستر لويد جورج بطل الحرب الكبرى ورئيس الوزارة الإنجليزية حينئذ:

«لو رجع سيدنا المسيح إلى العالم لما عاش إلا قليلاً، إنه سيرى الإنسان لا يزال بعد ألفى سنة مشغولاً بالشر والإفساد والقتل والفتك ببني نوعه، والنهب والإغارة، بل إن أكبر حرب في التاريخ قد استغرقت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحرث والنسل حتى أصابت الناس مجاعة، وماذا يرى السيد المسيح يا ترى؟ هل يرى الناس يتصافحون كالأخوان والأصدقاء؟ لا بل يراهم يتهيئون لحرب أشد هولاً من الأولى وأعظم فتكاً وتعذيباً، يراهم يتسابقون في اختراع الآلات الجهنمية وابتدعون وسائل التعذيب»^(١).

وليس اشتغال هذه الشعوب بالعداوة والحروب فيما بينها، وما هذه القومية والوطنية إلخ إلا لانصراف هذه الشعوب عن عداوة عدوها الحقيقي ونسيانها له، فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل، وكما قال الشاعر الجاهلي:

وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

فإذا عرفت عدوها وعرفت ضرره على نفسها، وعرفت خطره وقوته كان ذلك مشغلة لها عن كل حرب وعداوة وشح ومنافسة وأحقاد وهمية وترات مصطنعة، وقد قالت العرب قديماً: «عند الحفيظة تذهب الأحقاد» وهكذا جعل محمد ﷺ من قبائل العرب المتعادية التي كانت سيوفهم تقطر من دمائهم كالأوس والخزرج في المدينة، وبني عدنان وبني قحطان في الجزيرة، والأجناس المتباينة في العالم، أمة واحدة ومعسكراً واحداً إزاء الكفر والجاهلية، إذ جعل لها في خارجها ما تكرهه وتعاديه، وهو الباطل والطاغوت ووكلاؤه وأنصاره، وشغلها بحربه وقرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي

(١) وقد صدقت فراسته ووقع تحت أعيننا ما تنبأ به وقد فاقت هذه الحرب الجارية الماضية فتكاً بالأرواح والعمران وتدميراً للبلدان ووقائع تشيب لهولها الولدان وغلاء في السلع وارتفاعاً في الأسعار وأصابت الناس مجاعات شديدة في كثير من الأقطار.

سَبِيلَ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا^(١) فنسيت أحقادها وتراثها ولم تتذكرها إلا لما انصرف عن عدوها وتشاغلت عن قتاله ومعاداته فكانت حروب داخلية وفتن يعرفها الجميع .

● دعاية القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة:

ولا يزال القوميون في داخل البلاد وخارجها يزينون للشعوب الصغيرة القومية ويطرون أدبها ولسانها وثقافتها وتهذيبها، ويمجدون لها تاريخها حتى تصبح نشوانة بالعواطف القومية والخيلاء والكبرياء، وتدل بنفسها وتظن أنها مانعتها حصونها وما أعدت للحرب، وتنقطع عن العالم وتتحرش أحياناً بالدول الكبيرة غروراً بنفسها، أو تهجم عليها الدول فلا تلبث إلا عشية أو ضحاها، وتذهب ضحية لقوميتها وانحصارها في دائرة ضيقة، ولا يغنى أولئك المسؤولون عنها شيئاً ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ﴾ [الحشر: ١٦] كذلك وقع لبولندة وبلجيكا وهولاندة ويونان ودممارك، وهكذا وقع لإيران والعراق في الحرب الثانية .

● مطامح الدول الكبيرة:

أما الدول الكبيرة فترى من واجب قوميتها أن تبسط سيطرتها على أكبر رقعة من الأرض وترفرف أعلامها على مساحات واسعة وإن كانت قفاراً أو صحارى وتكون لها مستعمرات وممتلكات في قارات مختلفة، وإن كان ذلك يكلفها جيوشاً وأموالاً بغير فائدة جدية تعود عليها ويصعب عليها حراستها والقيام بشئونها، كل ذلك مما توجبه عليها شريعة القومية، وليس لها غاية أخلاقية وثمرات أدبية غير ما تسميه «المجد القومى والشرق القومى» .

وقد شرح الأستاذ «جود» المجد القومى بقوله:

«إن المجد القومى إنما يعنى أن يكون الشعب يملك قوة يسلط بها رغبته وهواه على آخرين إذا مست الحاجة، ويكفى لشناعة ما يسمونه (المثل الكامل

(١) آية: ٧٦ النساء .

للشعب) وهو المجد القومي إنه يناقض الصفات الخلقية والفضيلة إذا كانت بلاد لا تقول إلا صدقًا، وتفى بوعودها وتعامل الضعفاء معاملة إنسانية فمستوى شرفها عند الأمم منحط فالشرف - كما قال المستر بلدون - : عبارة عن قوة تنال الأمة بها المجد والفخار وتستلقت إليها الأنظار وتشغل الأفكار، ومعلوم أن هذه القوة التي تنال الأمة بها هذه الدرجة من الشرف إنما تتوقف على قنابل نارية متفجرة ومشعلة للنيران وعلى وفاء الشبان وولائهم للوطن، الذين يحبون إلقاء تلك القنابل على المدن، فالشرف الذي يمدح لأجله شعب يناقض تلك الصفات والأخلاق التي يمدح بها الفرد، فأرى أن الشعب يجب أن يعد همجيًا وغير مهذب بالمقدار الذي يملكه من الشرف، إذ ليس من الشرف أن ينال الإنسان أو الشعب الشرف بالخدعة والمكر والظلم»^(١). ويقول في موضوع آخر:

«إن الكبير - أكثر من الطمع - هو الذي يحمل الطبقة الحاكمة في بريطانيا على اتباع خطط لا تتفق مع ما يتظاهرون به من حب الصلح والوئام، دع رجلاً يقترح على ولاية الأمر في بريطانيا أن يهجروا قيراطًا من رمل من ممتلكاتها التي لا تغرب فيها الشمس ومن أشدها قحولة وجذبًا، تر المحافظين الأبطال في إنجلترا يقيمون العالم ويقعدونه سخطًا وحنقًا، وترى الصحافة الإنجليزية المعتدلة تتميز غيظًا إذا تعلم أن هؤلاء المحافظين ليسوا طماعين فقط بل هم مستكبرون معاندون»^(٢).

● منافسة الشعوب في المستعمرات والأسواق؛

وقد سبقت إلى هذا الاستعمار والامتلاك أمم وتخلفت أخرى، ثم نهضت الأخيرة تنافسها وتطالب بإسهامها وتبحث لها عن مستعمرات وأسواق لبضائعها وشرفات تغرز عليها علم المجد والفخار، وتعد بفضلها من الإمبراطوريات الكبار، وقامت الأولى تدفعها وتحول بينها وبين ما تشتهي،

(١) Guide to Modern Wickedness. p. 153

(٢) Guide to Modern Wickedness p. 180

وتزعم أنها إنما تغضب للأمم الصغيرة ونصرة المظلوم، ولكن كثيراً من الناس، من أنفسها ومن الأجانب، يشكون في إخلاص هذه الأمم وفي صفاء طويتها وحسن نيتها.

يقول الأستاذ «جود»: «الإنجليزى - جاهلاً أو متجاهلاً للمسائل التى أدت إلى قسمة ضيزى للعمران، ضارباً صفحاً عن سخط الشعوب مثل اليابانيين - يعتقد أن الإنجليز أمة سلمية ويرمى اليابانيين بحب القتال والضرارة بالحروب والإنجليز لاشك أمة سليمة ولكن مسالمتهم مسالة لص قد اعتزل حرفته القديمة، وقد أحرز شرقاً وجاهاً بفضل غنائه السابقة، وهو يبغض الذين يدخلون جديداً فى حرفته القديمة، عنده فضول أموال وغنائم لا يستهلكها. ولكنه يلعب الذين يريدون أن يساهموا فى ذلك بهواة الحرب»^(١).

وكثيراً ما تنشب الحرب بين هذه الأمم السابقة إلى السيادة والتملك وبين الأمم المتطلعة لها الطامحة إليها، ولكن هذه الحرب لا يصح قياسها على حرب تشهر لردع الظالم والانتصار للمظلوم وإقامة القسط عملاً بقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ولكن هذه الحرب شح رSnake، وحرب غيرة وحسد، ما كانت جمعية الأمم (الفقيدة) التى كانت هذه الحروب تشهر تحت إشرافها، ولا خليفتها «الأمم المتحدة» إلا كما قال الأمير شكيب أرسلان: «مثل العروض بحرّاً بلا ماء، ما وجدت إلا لتلبس الاعتداء حلة قانونية، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز» أو فى لفظ فقيه الإسلام الدكتور محمد إقبال: «جمعية لصوص ونباشين تألفت لتقسيم الأكفان».

قال الأستاذ (جود) الإنكليزي:

«إن حرباً تشهر تحت إشراف عصبة الأمم ليست للعدل بين الأمم يقوم بها شرطة العالم للأخذ على يد الظالم وعقاب المعتدى، ليست هذه الحرب إلا كفاحاً بين الطوائف المتنافسة في القوة. الواحدة منها حريصة على المحافظة على القسط الأكبر من ثروة العالم ومواردها، والأخرى متهاكة على تحصيلها، إن مثل هذه الحروب لا تختلف عن حروب نشبت بين الطوائف المتنافسة في الماضي، ولا عن حروب النمسا وبروسيا^(١)، وعن حروب السنوات السبع^(٢) وعن حروب نابليون، وعن حروب ١٩١٤ - ١٩١٨ لا تختلف هذه الحرب عن هذه الحروب كلها إلا في الاسم.

أما التذرع بأن هذه الحروب إنما نصبت للدفاع عن الديمقراطية وعن عصبة الأمم، وضد الفاشية والاعتداء فلا يغير من الموقف شيئاً^(٣)».

• الفرق بين حكم الجبائية، وحكم الهداية:

روى أن عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين قال لعامله مرة: «ويحك إن محمداً ﷺ بعث هادياً ولم يبعث جابياً» وهذه الجملة تعرب عن روح الحكومة الدينية التي تتأسس على منهاج النبوة، وتسير على آثار الأنبياء وخطتها وسياستها، فتكون عنايتها واهتمامها بالدين وبإصلاح أخلاق المحكومين وبما يعود عليهم بالنفع والضرر في الآخرة أكثر من اهتمامها بالجباية والخراج وأنواع المحاصيل والإيراد، وتنظر في جميع مسائل السياسة والمالية من الوجهة الدينية وتقدم المبادئ الدينية والخلقية على المنافع والمصالح المادية، فتمنع الخمر وتحرم الزنى وأنواع الخلاعة والفجور والعقود المالية

(١) حرب منافسة وطمع اشتركت فيها فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وهولندا لتناول غنائم انتقصت فيها أطراف النمسا وممتلكاتها ونشبت على أثر وفاة فريدريك ملك النمسا وجلوس ابنته ماريا تيريزا على العرش بوصيته ورضا الدول سنة ١٧٤٠، وانتهت سنة ١٧٤٨.

(٢) حروب اشتركت فيها فرنسا وروسيا وسويدن وأكثر إمارات الدول الألمانية وبروسيا وإنجلترا حماية لبعضها واعتداء على بعضها ابتدأت سنة ١٧٥٦ وانتهت سنة ١٧٦٣.

(٣) Guide to Modern wickedness p. 191

الفاسدة النافعة للأفراد المضرة بالمجتمع، فتحظر الربا والقمار وإن كان ذلك يرجع على الحكومة بالخسارة المالية الفادحة، وتشرع مشاريع إصلاحية وتراقب الأخلاق وتعنى بتعذيب النفوس، وإن كان ذلك يكلفها أموالاً طائلة وميزانية ضخمة، ونتيجة هذا النوع من الحكومات إذا قامت فى بلاد ما بينها القرآن وتنباؤها للمهاجرين الأولين: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١).

أما الحكومات التى تقوم للجباية لا للهداية، وللانتفاع لا للنفع، فطبيعى أن تكون عنايتها مصروفة إلى أنواع الخراج والمحاصيل والغلات، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب الأخلاق والفضائل والنظام المنزلى، فتبيح أنواعاً كثيرة من الخلاعة والفجور بقيود تنظمها ولا تمنعها، فتسمح بالبغاء الرسمى، وقد ترابى بنفسها وتبيح القمار، وكثيراً من الجنايات والجرائم الخلقية بتغيير الأسماء وتحديد بعض الأشياء تأميناً لمصالحها، ولا تبيح الخمر فقط بل تبيعها وتتولى تجارتها وتنظيمها وتحاكم وتعاقب من يمنعها ويجاهد ضدها، وقد تجبر أهل بعض البلاد على اشتراء المخدرات التى تصدرها، كما فعل بعض الحكومات الأوربية فى آسيا مع أهل الصين، فطبيعى كذلك أن تصاب هذه الشعوب المحكومة فى أخلاقها وترزأ فى روحها وقلبها، بل إن أهل البلاد ينحط مستوى أخلاقهم لمجرد المخالطة بهذه الشعوب الحاكمة ومجاورتها، ويلحقهم عدوى الأمراض الخلقية الفاشية فى الأقطار الأوربية التى ولدتها الحضارة المادية هنالك، وذلك ما أقروا به أنفسهم وشكوا منه.

فالحكومات الأوربية تحمل معها مفاصد الحضارة الغربية وشرورها، وكيف يرجى من هذه الحكومات أن تزدهر الفضيلة والأخلاق ويرقى مستوى

(١) آية: ٤١ الحج.

أخلاق الشعب فى ظلها ودولتها، ولم يكن ذلك فى بلادها وأوطانها، وليس ذلك من رسالتها ومهمتها، ولا مما تدين به وتعتقد «وكل إناء بالذى فيه ينضح» ولم تزل طريق الملوك والفاتحين غير طريق الأنبياء والهداة والمصلحين، وإن الحقيقة التى ذكرها القرآن على لسان ملكة سبأ حقيقة راهنة لا تختلف فى الأزمنة والأمكنة: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ (١).

الفصل الثالث

أوروبا إلى الانتحار

• عصر الاكتشاف والاختراع

إذا عرفت عصور التاريخ بما يميزها عن غيرها، وأضيفت إليه، أمكننا أن نسمى هذا العصر عصر الاكتشاف والاختراع، وعصر اللاسلكي والكهرباء، وفضل الأوربيين وتقدمهم في هذا الباب وعبقريه رجال الاكتشاف والاختراع وإبداعهم من القضايا التي لا تقبل المكابرة.

ولكن مهما بالغ المبالغون في إطراء الصناعات والمخترعات الحديثة في أوروبا، وبرغم إعجابنا بها والثناء على مكتشفيها ومخترعيها، ينبغي ألا ننسى أن هذه الصناعات والمخترعات ليست غايات في نفسها مقصودة بالذات، بل هي وسائل ووسائل لغاية أخرى نحكم عليها بالخير والشر، والنفع والضرر، بمقياس هذه الغاية وكونها خيراً أو شراً، ونحكم عليها بالنجاح والخيبة بالقياس إلى مطابقتها للغاية التي وضعت لها، والنظر في النتائج التي حصلت منها، والدور الذي لعبته في حياة الناس ومجتمعهم وأخلاقهم وسياستهم.

• الغاية من الصناعات والمخترعات، وموقف الإسلام منها

أما الغاية فعلى ما أرى هي التغلب على العقبات والصعوبات في سير الحياة التي سببها الجهل والضعف، والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة في هذا الكون، وخيراتها وخزائنها الماثوثة فيها، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علو في الأرض ولا فساد.

كان الإنسان يسافر في الزمن القديم ماشياً، ثم ألهم أن يسخر لذلك الحيوان، فاتخذ العجلات واتخذ الجياد العتاق، ثم لم يزل يتدرج في السرعة والاختراع حتى وصل من المركبة إلى القطار، ومنه إلى السيارة، ومنها إلى

الطيارة، وكذلك من السفينة الشراعية إلى البواخر، فلا بأس، بل يا حبذا إذا كان ذلك كله تابعاً لمقاصد صحيحة يسافر الإنسان بها من مكان إلى مكان لغرض صحيح جدى مشمر، ويحمل عليها أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق النفس، ويوفر الوقت والقوة ويستفيع بها فى الخير، وقس على ذلك سائر القوى الطبيعية والمخترعات الحديثة التى ينتفع بها الإنسان انتفاعاً مشروعاً، ويستخدمها لمقاصد رشيدة نافعة.

إن موقف الإسلام فى ذلك بين واضح، فقد أخبر أن الإنسان خليفة الله فى الأرض قد سخر الله العالم لأغراضه الصحيحة بتصرف منه وغير تصرف فقال: ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾، وقال: ﴿الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم)، وقال: ﴿ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الإسراء) ليلاحظ القارئ الإطلاق فى قوله: ﴿وحملناهم فى البر والبحر﴾، وقوله ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾، وقال: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون﴾، (النحل). قد من الله فى هذه الآية على الإنسان بتمكينه لبلوغ غايته من غير شق النفس، واستدل به على رأفته به، ورحمته له، وقال: ﴿والذى خلق الأزواج كلها، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون، لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ (الزخرف)، وما أجدر الإنسان أن يقول إذا استوى على سيارة أو طيارة: ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾، فهو أبعد من أن يكون مقرئاً لقطع من صفيح وحديد لا حياة فيها

ولا حركة، يسخرها له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، ولا ينس أنه راجع إلى الله ومحاسب على ما أوتى من قوة وسعة، فإن أساء استعمال هذه القدرة والتمكين عوقب على ذلك، وكذلك لا ينس أنه عبد خاضع لله منقاد لحكمه لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا يطغ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

وقال: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوى عزيز﴾ (الحديد). فالحديد فيه منافع للناس ومن أكبر منافعه أنه يستخدم لنصر الله ورسله، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله وأودع في الكون من قوة في سبيل الجهاد في سبيل الله، وفي نشر دينه، وإظهاره على الدين كله وإعلاء كلمته، وفيما أباح الله له ورغبه فيه من تجارة مشروعة وكسب حلال، وسفر بر، ومنافع مباحة.

• إنما طأثركم معكم:

إن المصنوعات الجمادية لا ذنب عليها، فإنها خاضعة لإرادة الإنسان وعقليته وأخلاقه، فهي في ذات نفسها ليست خيراً ولا شراً، ولكن الإنسان هو الذي يجعلها باستعماله لها خيراً أو شراً، وكثيراً ما تكون خيراً في نفسها، فيحولها الإنسان شراً بسوء استعماله وخبث سريرته، وفساد تربيته، فليس الشأن في هذه الآلات والمخترعات، إنما الشأن فيمن يستغلها وفي الغرض الذي يستعملها له، وتحقيق أن يقال - لمن أصبح يتطير في أوربا من هذه الآلات، ومن الطائرات التي تقذف القنابل، وتدمر المنازل، وتنسف القرى والمدن، والغواصات التي تغرق بواخر الركاب المسلمين والتجار الأمنين، واللاسلكية التي تذيع الكذب والزور، وتنشر الخلاعة والمجون ويشكو منها، ويوجه إليها الملام - : إنما طأثركم معكم فإن العلوم الطبيعية

تسخر للإنسان القوة المادية، وليس من شأنها أن تعلمه أيضاً كيف يستعملها وفيما يضعها، كالكبريت يعطيك ناراً، ولك أن تحرق بها بيتاً على سكانه أو تطبخ طعاماً أو تستدفئ بالنار، والذي يعلم كيف يستعمل الإنسان القوة وفيما يضعها هو الدين، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعاً حقيقياً وكيف يشكر نعمة الله، ويحظر على الإنسان أن يكون بقوته التي خوله الله إياها معيناً على الظلم والجريمة والإثم والعدوان، كما قال موسى ﷺ: ﴿رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ (القصص): وقال سليمان: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾.

• التخليط بين الوسائط والغايات:

أما الأوربيون فقد حرموا أنفسهم الدين، فلم يبق لهم رادع من خلق أو وازع من دين، أو مرشد من علم إلهي يرشدهم إلى الجادة، ونُسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ فاعتقدوا بطبيعة هذه العقيدة أن ليس للإنسان وراء اللذة والراحة والانتفاع المادي والعلو في الأرض وبسط السيطرة عليها -كمملكة لا سيد لها ولا وارث - والتغلب على أهلها والاستئثار بخيراتها وخزائنها، مقصد ولا غاية، فاستعملوا هذه القوة والعلم في حصول اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين، وتنافسوا في اختراع الآلات التي ينالون بها وطهرهم ويعجزون بها غيرهم، ولم يزل بهم ذلك حتى اختلطت عليهم الوسائط بالغايات، فاعتقدوا الوسائط غايات، وافتتنوا بالمخترعات والمكتشفات كغاية في نفسها لا لغيرها، وعكفوا عليها وتشاغلوا بها كتشاغل الصبيان باللعب والدمى، واعتقدوا أن الراحة هي الحضارة ثم تقدموا وصاروا يعتقدون أن السرعة هي الحضارة.

يقول الأستاذ جود:

«يقول دزرائيلي Disraeli إن المجتمع في عصره يعتقد أن الحضارة هي الراحة أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن السرعة، فالسرعة هي إله

الشباب العصري، وإنه يضحى على نُصبه بالهدوء والراحة والسلام والعطف على الآخرين من غير رحمة^(١).

● عدم تعادل القوة والأخلاق في أوروبا:

إن الأوروبيين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق والتوازن بين العلم - بظاهر من الحياة الدنيا - والدين منذ قرون، فلم تزل القوة والعلم في أوروبا بعد النهضة الجديدة ينموان على حساب الدين والأخلاق، ولم يزل الأولان في ارتفاع وارتقاء، والآخران في انخفاض وانحطاط، حتى بعدت النسبة بينهما ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض وهى كفة القوة والعلم، وخفت الثانية - وهى كفة الأخلاق والدين - حتى ارتفعت جداً، وبينما يتراءى هذا الجيل للناظر فى خوارقه الصناعية وعجائبه الكونية وتسخيرهِ للمادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه كأنه فوق البشر إذا هو لا يتميز فى أخلاقه وأعماله، فى شرهه وطمعه، فى طيشه ونزقه، وفى قسوته وظلمه عن البهائم والسباع، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة، إذا هو لا يدري كيف يعيش! وبينما هو قد بلغ الغايات ووراء الغايات فى الكماليات وفضول الحياة، إذا هو لم يعرف المبادئ الأولية والبديهيّات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاق، فتراه يصعد إلى السماء ويريد أن يناطح الجوزاء، وهو لم يتقن شئون الأرض ولم يصلح ما تحت قدميه، وقد حولته العلوم الطبيعية قوة قاهرة وهو لا يحسن استعمالها، كطفل صغير أو سفينة أو مجنون يملك أزمة الأمور ويؤتى مفاتيح الخزائن، فهو لا يزيد على أن يعبث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة ويعيث فى دماء الناس ونفوسهم.

• قوة الآلهة، وعقل الأطفال:

يقول الأستاذ «جود» الإنجليزي: «إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش»^(١).

ويقول في موضع آخر:

«إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة، وطفولتنا الاجتماعية المخجلة، نواجهه على كل منعطف ومنعرج، نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ونرسل الصور بالبرق وننصب اللاسلكية في منازلنا، ونستمع في سيلان إلى دقات (Big Ben) - الساعة العظمى - تضرب في لندن، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتهما، والأطفال يتحدثون على الأسلاك البرقية، والآلات الكاتبة صامتة، وتملأ الأسنان من غير إيجاع، والزروع تنمى بالكهرباء، والشوارع تفرش بالمطاط، وأشعة رونتجن (X-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا، والصور المتحركة تتكلم وتغنى، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالي والطائرات تطير إلى القطب الجنوبي، ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين (٢٠٠٠) ونجرح منهم تسعين ألفاً (٩٠٠٠٠) سنوياً. قال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائى لعجائب حضارتنا: وكان بعض سواق السيارات قد نجح في قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل في ساعة على رمال (Pendine) وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في فترة قليلة من الزمن قال الفيلسوف: نعم! إنكم تقدر أن تطيروا في الهواء كالطير وتسبحوا في الماء كالسمك، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض»^(٢).

(١) Guide to Modern Wickedness p. 261

(٢) Guide to Modern Wickedness p. 293

«ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم» :

وقد أصبحت هذه المخترعات والمكتشفات الجديدة - مما كانت تعود على النوع الإنسانى بخير كبير لو كان مستعملها يعرف الخير ويقدر أن يتجه إليه - أصبحت وضررها أكبر من نفعها، وكان كما قال القرآن عن السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾^(١) اسمع شاهداً من أهلها ينتقد هذه المخترعات ويبوح بالحقيقة وهو «جود» السابق الذكر:

«وقد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان، ولكن الأمكنة التى نسافر إليها قلمت تصلح للسفر، وقد زويت الأرض للرحالين وتدانست الأمم ووطئ بعضها عتبة بعض، ولكن نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها وأصبحت أسوأ مما كانت، أما المرافق التى استطعنا بها أن نتعارف بجيراننا فقد عادت فحشرت العالم فى الحرب، اخترعنا آلة الإذاعة وتحدثنا بها إلى الشعوب المجاورة والأمم الشقيقة ولكن كان عاقبتها أن كل شعب يستنفد موارد الهواء لإيذاء الشعب المجاور ومعاكسته، إذ يجتهد أن يقنعه بفضل نظامه السياسى على نظامه»^(٢).

«انظر إلى الطيارة التى تخلق فى السماء يخيل إليك أن صانعيها كانوا فى عملهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر، والذين طاروا عليها أولاً لا شك أنهم كانوا فى علو همتهم وعزمهم وجراتهم أبطالاً مغاوير، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التى استعملت لها الطيارة وتستعمل لها فى المستقبل إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء وإحراق الأجساد وإلقاء الغازات السامة، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً، وهذه إما مقاصد الحمقى أو الشياطين»^(٣).

«وما عسى أن يقول المؤرخ غداً كيف كنا نستعمل معدن الذهب؟

(١) من آية: ١٠٢ البقرة.

(٢) Guide to Modern Wickedness p. 247

(٣) Guide to Modern Wickedness p. 262

سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكي، وسيستعرض الصور التي تمثل اللياقة والمهارة التي كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب ويعدونه، وكيف تحدينا قانون الجاذبية في نقله من عاصمة إلى عاصمة، وسيسجل أن أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وجراء في فتوحهم الصناعية كانوا عاجزين عن التعاون الدولي الذي كان يقتضيه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح، وكانوا لا يعنون إلا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض في جنوب إفريقيا، ويدفنونها في مصارف لندن ونيويورك وباريس»^(١).

ويتناول هذا البحث - التفاوت بين العلم والصناعة وبين الأخلاق الإنسانية، وإخفاق الحضارة الحديثة في أداء رسالتها - مفكر آخر يجمع بين العلم بالفلسفة والعلوم الطبيعية في تحليل أدق وأسلوب أعمق وهو الدكتور (Alexis Carrel) في كتابه - الإنسان، ذلك المجهول - (Man the Unknown):

«يظهر أن الحضارة العصرية لا تستطيع أن تنتج رجالاً يملكون الابتكار والذكاء والجرأة. وفي كل قطر تقريباً يرى الإنسان في الطبقة التي تباشر إدارة الأمور وتملك زمام البلاد انحطاطاً في الاستعداد الفكري والخلقى.

إننا نلاحظ أن الحضارة العصرية لم تحقق الآمال الكبيرة التي عقدتها بها الإنسانية، وأنها أخفقت في تنشئة الرجال الذين يملكون الذكاء والإقدام الذي يسير بالحضارة على الشارع الخطر الذي تتعثر عليه، إن الأفراد والإنسانية لم تتقدم بتلك السرعة التي تقدمت بها المؤسسات التي نبعت من عقولها، إنها هي نقائص القادة السياسيين الفكرية والخلقية وجهلهم الذي يعرض أمم العصر للخطر»^(٢).

(١) Guide to Modern Wickedness p. 262

(٢) (Man the Unknown)

«إن الوسط الذى أنشأه العلوم الطبيعية وعلم الصناعات للإنسان لا يناسب الإنسان لأنه مرتجل لم يقم على تصميم وتفكير سابق، ولم يراع فيه الانسجام مع شخصية الإنسان، إن هذا الوسط الذى هو وليد ذكائنا واختراعاتنا لا يطابق قاماتنا ولا أشكالنا، نحن غير مسرورين، نحن فى انحطاط الأخلاق وفى العقول. إن الأمم التى ازدهرت فى الحضارة الصناعية وبلغت أوجها هى أضعف مما كانت، وهى تسير سيرا حثيثا إلى الهمجية ولكنها لا تدرك ذلك. إنه لا حارس لها من المحيط الثائر الذى أقامته العلوم الطبيعية حول هذه الأمم. الحق يقال إن حضارتنا - كالحضارات التى تقدمتها - قد فرضت شروطا للبقاء ستجعل - لأسباب لاتزال مجهولة - الحياة محالا، إن علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الإنسان متأخر جدا عن علمنا بالماديات، وهذا التأخر هو الذى جنى علينا»^(١).

«لا يجنى نفع من الزيادة فى عدد المخترعات الآلية، لا فائدة فى أن نعلق أهمية كبرى على اكتشافات علوم الطبيعة والفلكيات وعلم الكيمياء، أى خير فى الزيادة فى الراحة والشرف، والجمال والمنظر وكماليات حضارتنا إذا منع ضعفنا من الانتفاع بذلك وتوجيهه إلى صالحنا، إنه لا خير فى إحكام طريق للحياة يقصى فيه العنصر الخلقى وتبعد منه أشرف عناصر الأمم العظيمة، إن الأليق بنا أن نعنى بأنفسنا أكثر من أن نعنى بصناعة بواخر أسرع وسيارات أريخ، وراديوات أرخص، وتلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق»^(٢).

«ما هو التقدم الحقيقى الذى نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوروبا أو إلى الصين فى ساعات قلائل؟ هل من الضرورى أن نزيد الإنتاج بلا توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر فأكثر من أشياء لا جدوى منها؟ أليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقي والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام»^(١).

• أوربا فى الانتحار:

والحاصل أن الغربيين لما فقدوا الرغبة فى الخير والصلاح، وضيعوا الأصول والمبادئ الصحيحة، وزاغت قلوبهم وانحرفت، وفسدت أذواقهم لم تزدهم العلوم والمخترعات إلا ضرراً، كما أن الأغذية الصالحة تستحيل فى جسم الممعود والموبوء مرضاً وفساداً، بل لم تزدهم هذه الآلات والمخترعات إلا قوة وسرعة فى الإهلاك واستعانة على الانتحار، وقد أحسن المستر إيدن Eden رئيس وزراء بريطانيا السابق وصف ذلك فى بعض خطبه سنة ١٩٣٨ م:

«إن أهل الأرض كادوا يرجعون فى أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آله فتاكة تخافها، ولكنها لا تنفق على ضبطها، وإنى أتعجب فى بعض الأحيان وأقول: كيف لو زار العالم الجديد زائر من كوكب آخر وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده؟ سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا، ونبادل الأنباء عنها ويخبر بعضنا بعضاً كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية».

• القنبلة الذرية وفضائنها:

لعل المستر إيدن لما أفضى بهذا الحديث لم يدر بخلده أن العالم المتمدن وعلى رأسه أمريكا رسول السلام وزعيم الحضارة والعالم الجديد سيتوصل أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبز جميع الآلات والمخترعات فى التدمير والتقتيل، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله فى الهول والفظاعة. قد كانت هذه الآلة هى القنبلة الذرية التى جربتها أمريكا مرة فى صحراء نيوميكسيكو، وثانية على رؤوس البشر فى مدينة هيروشيما وبعدها فى نجازاكي المدينتين

(١) المصدر السابق.

اليابانيتين. وقد أذاع رئيس بلدة (هيروشيما) فى ٢٠ أغسطس آب ١٩٤٩م أن الذين هلكوا فى اليوم السادس من أغسطس آب ١٩٤٥م من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتى ألف وعشرة آلاف، ومائتى ألف وأربعين ألفاً (ب-ت).

يقول المستر استورت (Stuart Gilder) فى مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيارة (Statesman) فى عددها الصادر فى ١٦ سبتمبر ١٩٤٥.

يقول البروفسور (Plesh) :

«لا يؤمن على الناس الذين كانوا يبعدون عن المنطقة التى انفجرت فيها القنبلة الذرية بمائة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها، فينبغى أن يفحص عنهم فحصاً طبياً، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوماً ويقرأوا فى الجرائد أن علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت فى الذين يسكنون على آلاف أميال من اليابان.

ويقول البروفسور (م. ي. أولى فنت) معلم جامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية:

«من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أن بريطانيا أو دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية إن المبادئ التى قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفة لكل دولة، إن بريطانيا وأمريكا استفادت بتجارب السابقين وبلغتا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية، ولكنها لا تدوم سرّاً حريباً إلا لأجل محدود، لأن كل البلاد الصناعية تستطيع أن تعد القنبلة الذرية فى مدة خمس سنوات وإذا أفرغت جهودها ووجهت قواها إلى صناعتها فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها فى سنتين».

ويقول البروفسور المذكور:

«وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار، وستليها قنابل قوتها مليون طن، ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط، وإن ست قنابل فقط

من هذا القبيل تكفى فى تدمير إنجلترا على بكرة أبيها، وإن العلماء الروسين ينجحون فى إعداد القنابل فى مدة قصيرة جداً» .

وقد اخترعت أمريكا قنبلة أخرى تفوق القنبلة الذرية فى القوة والفظاعة، وهى (Hydrogen Bomb) وقد جرى اختبارها للمرة الثانية فى المحيط الهادئ يوم ٢٦ من مارس سنة ١٩٥٤ .

وقد ذكر المستر شارلس -ى- ولسن (Charles E. Wilson) سكرتير وزارة الدفاع أن النتائج كانت هائلة لا تكاد تصدق .

وقد ذكر المستر لويس استراس (Lewis Strauss) رئيس لجنة القوة الذرية فى أمريكا أن قنبلة هيدروجينية واحدة تستطيع أن تبيد مساحة مدينة نيويورك الواسعة .

وقال العالم الطبعى الشهير ونائب رئيس مجلس الأمن اللواء صاحب سنج فى دهلى الجديدة :

أن أربع قنابل هيدروجينية وزن كل واحدة منها مائة طن تستطيع أن تقتل كل نسمة على وجه الأرض، وقد شاع أخيراً أن روسيا اكتشفت القنبلة النتروجينية (Nitrogen Bomb) التى هى أدهى وأمر من القنبلة الهيدروجينية .

• والذى خبث لا يخرج إلا نكدًا •

وقد تضعضع أساس المدنية الأوربية، كما ذكرنا بتفصيل، ولم يزل بناؤه مترعزعا، ولم تزده الأيام ولم يزد الارتفاع إلا زيغا واختلالا، وفستت بذرتها، فلم تصلح شجرتها ولم تطب ثمرتها ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾ [الاعراف: ٥٨] .

وقد شرح ذلك فى إيجاز الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى فى أحد فصول كتابه «تنقيحات» بالأوردية قال :

«ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة الإلهية، لقد كان فيها قادة الدين ولكن لم يكونوا أصحاب

حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية، ولم يكن عندهم إلا شبح ديني لو حاول أن يسير بالنوع الإنساني على صراط مستقيم في طرق الفكر والعمل لما استطاع، ولم يكن له إلا أن يكون حجر عثرة وسدًا في سبيل ارتقاء العلم والحكمة، وهكذا كان، وكان عاقبة ذلك أن الذين كانوا يريدون الرقي نبذوا الدين بالعرء، واختاروا طريقًا لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء، ووثقوا بهذه الدلائل التي هي في حاجة بنفسها إلى الهداية والنور، وجاهدوا واجتهدوا باحتدائها في طرق الفكر والنظر والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم، ولكن ضلت خطواتهم الأولى في كل جهة وفي كل مجال، وانصرفوا فتوحهم في ميادين العلم والتحقيق، ومحاولاتهم في سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة، إنهم بدأوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية، نظروا في الكون على أنه ليس له إله، نظروا في الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس، وليس وراء هذا الستار الظاهر شيء، إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار والقياس ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها، إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومدبريها، بل هم خلفاء سيدها الحق، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة، فاختل أساس مدنيهم وتهذيبهم وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس، واتخذوا إلههم هواهم، وفتنتهم عبادة هذا الإله، وسارت بهم هذه العبادة في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلافة رائعة، ولكن مصيرها إلى الهلاك.

هذا هو الذي مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الإنسان، وصاغ الأخلاق في قالب الشهوات والرياء والخلاعة والإباحة وسلط على المعيشة شيطان الأثرة والشح والفتك بيني النوع، ودس في عروق الاجتماع وشرائينه سموم عبادة النفس والأنانية والإخلاد إلى الراحة والتنعيم، ولطخ السياسة بالجنسية والوطنية وفروق اللون والنسل وعبادة إله القوة، فجعلها لعنة كبرى للإنسانية.

والحاصل أن الذرة الخبيثة التي أُلقيت في تربة أوربا في نهضتها الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة، ثمارها حلوة ولكنها سامة، أزهارها جميلة ولكنها شائكة، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازاً ساماً لا يرى، ولكنه يسمم دم النوع البشرى.

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها، وأصبحوا يتدمرون منها، لأنها خلقت في كل ناحية من نواحي حياتهم مشاكل وعقداً لا يسعون لحلها إلا وظهرت مشاكل جديدة، ولا يفصلون فرعاً من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك، فهم في معالجة أدوائهم وإصلاح شؤونهم كمعالج الداء بالداء، وناقش الشوكة بالشوكة. إنهم حاربوا الرأسمالية فنجمت الشيوعية، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فتبعت الدكتاتورية، أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة تذكير النساء (Feminism) وحركة منع الولادة، أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفسد الخلقية فاشترأت حركة العصيان والجناية، فلا ينتهى شر إلا إلى شر، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه، ولا تزال هذه الشجرة تثمر شروراً ومصائب، حتى صارت الحياة الغربية جسداً مقروحاً، يشكو من كل جزء أوجاعاً وآلاماً، وأعياء الداء الأطباء، واتسع الخرق على الراقع، الأمم الغربية تتملل الماء، قلوبها مضطربة وأرواحها متعبشة إلى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة. إن الأكثرية من رجالها لا تزال تتوهم أن منبع المصائب في فروع هذه الشجرة، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ويضيعون أوقاتهم وجهودهم في قطعها، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد في أصل الشجرة، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد، وفيهم جماعة قليلة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ولكنهم لما نشأوا قروناً في ظل هذه الشجرة - وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم - كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلاً آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعاً وأوراقاً صالحة سليمة، وكلا الفريقين في النتيجة سواء، إنهم يتطلبون شيئاً يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه^(١).

(١) تنقيحات، مقالة أمم العصر المريضة ص ٢٤ - ٢٥ - ٢٦.

الفصل الرابع

رزايا الإنسانية المعنوية

فى عهد الاستعمار الأوربى

ليس من قصدنا الآن أن نبحث عن رزايا الأمم الشرقية الآسيوية فى السياسة والاقتصاد والتجارة والصناعة، وخسارتها فى ممتلكاتها وانكسارها أمة بعد أمة وقطراً بعد قطر أمام قوة الغرب المادية ودهائه السياسى، فلذلك حديث يطول ولا يسعه هذا المؤلف الصغير، وقد طرق هذا الموضوع كثير من المؤلفين والمؤرخين فى الشرق والغرب، وألفوا فيه مؤلفات بين صغير وكبير ومتوسط وأشبعوا فيه الكلام.

ولكن الذى يهمنا - ونحن نتكلم فى هذا الكتاب عن خسارة العالم بانحطاط المسلمين واستيلاء الأوربيين بالتبع - رزية العالم الإنسانى وخطب المجتمع البشرى فى الروح والأخلاق والنفس، ومعان أسمى من المادة وما يتصل بالجسم والأرض فى عهد النفوذ الأوربى العام، وسيل حضارته الجارف، فتلك رزية لا تقبل العزاء، وكسر لا ينجبر، والذين أدركوه قليل، والذين تحدثوا به أقل من أولئك القليل.

ولما كان نظام الحياة الإسلامى هو المنافس للنظام الجاهلى، كان طبعاً رزء المسلمين فى عهد انتصار الحكم الجاهلى أكبر، وقسطهم فى هذه المصيبة العالمية أوفر لأن الإسلام والجاهلية ككفتى ميزان، كلما رجحت كفة طاشت الأخرى.

والآن نتحدث عن هذه الرزايا المعنوية رزية رزية.

• بطلان الحاسة الدينية:

ما هى غاية هذا العالم التى ينتهى إليها، ومصيره الذى يصير إليه؟ هل بعد هذه الحياة حياة أخرى؟ وما هو وضعها إذا كانت؟ وهل لهذه الحياة

الآخرة تعليمات وإرشادات فى الحياة الدنيا؟ ومن أى منبع تستقى هذه المعلومات؟ وما هى الطرق والأسس التى إذا سار عليها الإنسان كانت حياته الآخرة راضية مرضية؟ وما مصدر هذه الطرق؟ وما هى الطريق المثلى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقطع؟ ومن أين تستفاد هذه الطريق؟ .

تلك أسئلة ورثها الشرقى أباً عن جد، وشغلت خاطره، وأزعجت فكره طيلة قرون ولم يقدر أن يذهل عنها ويتناساها حتى فى لهوه وزهوه، وكانت هذه الأسئلة حافز نفسه، ونداء ضميره، ولم يستطع أن يتصام عنه ويطوى دونه كشحاً، بل أصغى إليه فى رغبة ونصيحة وإخلاص، وأحل هذه الأسئلة من نفسه وحياته المحل الأول، وما زال منذ آلاف السنين فى أخذ ورد ونقض وإبرام فى هذا الموضوع، وليس ما نسميه ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية، والإشراق والرياضة النفسية، والعلم والحكمة إلا محاولات ومغامرات فى هذا الطريق الطويل المظلم، وارتداداً إثر ارتداد فى مناطق مجهولة، ينبىء عن اهتمام الشرق البليغ بهذا الموضوع ورغبته الملحة فيه .

هذه طبيعة الشرقى وطبيعة أكثر أفراد البشر فى الأقاليم المعتدلة قبل ظهور الغربيين، وإن استعرنا لذلك لغة الفلاسفة وتعبيرهم قلنا: لم يزل فى قلوب الناس - عدا حواسهم الظاهرة الخمس - حاسة سادسة يسوغ أن نسميها بالحاسة الدينية، وكما أن الحواس الظاهرة لها دوائر عمل تحصل فيها محسوساتها الخاصة بها فللعين مبصرات وللأذن مسموعات إلخ. كذلك هذه الحاسة الدينية لها ثمرات وتأثيرات هى من خواص هذه الحاسة التى لم تزل لأهل الشرق ضربة لازب، وكما أن من فقد حاسة من الحواس الظاهرة بطلت محسوساتها الخاصة بها، فلا تحصل له بحاسة أخرى إلا بطريق خرق العادة، ولا تحل حاسة مهما كانت قوية وصحيحة محل الحاسة الأخرى، كذلك من فقد الحاسة الدينية لطارىء مؤثر أو حرمة لنقص فى الفطرة بطلب نتائجها الخاصة بها، وانغدمت فى حقه، بحيث لا يستطيع أن

يتصورها أو يصدقها، شأن الأعمى لا يبصر الألوان والأجرام المرئية، وقد يعاند ويكابر في إنكارها، وشأن الأصم الذى ليست الدنيا الصاخبة إلا مدينة الأموات عنده، ليس بها داع ولا مجيب، كذلك من حرم الحاسة الدينية جحد الغيب، وكابر فيما هو وراء الطبيعة وعاند فى المعانى الدينية، وقسا على الرقائق والقوارع التى تهز النفوس وترقق القلوب وتذرف العيون.

ما لجرح بميت إيلام

أشد العقبات التى واجهها الأنبياء والدعاة الدينون، واصطدمت بها خطبهم ومواعظهم ودعوتهم، هم أولئك الذين حرّموا الحاسة الدينية أو فقدوها بتأتًا، والذين تحجرت قلوبهم وماتت نفوسهم فى مسألة الدين، والذين آلوا على أنفسهم أنهم لا يفكرون فى أمر الدين وأمور الآخرة، ولا يلقون السمع لهذا الموضوع أصلاً، والذين لما سمعوا كلام النبى الذى تجيش له الصدور وتلين له الصخور، ما زادوا أن قالوا فى صمم وإعراض: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(١) ولما انتهى النبى من كلامه السائغ المعقول الذى يفهمه الأطفال، والذى كان بلغتهم الفصيحة قالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾^(٢)، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَافِلُونَ﴾^(٣).

لا شك أن هذه الأسئلة كانت موضوع دراسة العلماء والمفكرين فى فجر النهضة الأوربية الجديدة، واستمروا يبحثون فيها ويؤلفون ويتناقشون، ولكن كلما قطعت المدنية الأوربية شوطاً تخلفت هذه المباحث والأسئلة شوطاً، ولما ظهرت خواص هذه المدنية الباطنة وتجلت هى فى مظهرها المادى

(١) آية: ٣٧ المؤمنون.

(٢) آية: ٩١ هود.

(٣) آية: ٥ فصلت.

خفت - فى ضجتها - هذا الصوت الذى كان ينبع من أعماق القلب وقرارة الضمير الإنسانى الحى ، ولا ينكر أن هذه الأسئلة تدرس فى قسم الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة فى المدارس والجامع العلمية والمكاتب العامة، ويتباحث فيها العلماء المتخصصون وتظهر لهم فى هذا الموضوع تأليفات بين آونة وأخرى، ولكن الذى لا شك فيه أنها فقدت سلطانها على القلوب والأفكار، وامحت علامة الاستفهام الواضحة النيرة التى كان يراها كل إنسان عاقل فيقف أمامها كما تقف القطر أمام الإشارات، وأصبحت هذه الاستفسارات لا تحيك فى صدر الإنسان ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه وتحيك فى صدورهم، ولم يكن ذلك عن إيمان وانسراح صدر وطمأنينة قلب واقتناع بحل صحيح وارتياح إلى نتيجة حاسمة. كلا! لم يكن ذلك إلا لأن هذه الأسئلة قد فقدت أهميتها وأخلت مكانها لأسئلة مادية أهم فى أعين أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين منها، ولأن رجل العصر قد لزم الحيات التام فى هذه المسائل وصرف النظر عنها، فلا عليه إن كانت بعد هذه الحياة حياة ثانية وكانت الجنة والنار والثواب والعقاب والنجاة والهلاك أو لم تكن، فلا يهمله شىء من ذلك لا سلباً ولا إيجاباً، لأن شيئاً من ذلك لا يمس مسأله اليومية أو فى آخر الشهر، ولا يتصل بشخصه وعياله فى الساعة الحاضرة، وهو رجل لا يعتقد فى النسيئة ولا يترك عاجلاً بآجل، ولا يتكلف ما لا يعنيه فيترك هذه المباحث «الفارغة» يبحث فيها معلم الفلسفة فى الجامعة ويفضى فيها برأيه المؤلف فى هذا الموضوع. أما هو فهو رجل جد وعمل، لا يعرف إلا حياة المصانع والإدارات وسير الماكينات ولا يهتم إلا بتسلية النفس وترويحها فى آخر النهار والنوم الهادىء فى آخر الليل والأجرة فى آخر الأسبوع أو الراتب فى أواخر الشهور وحساب الأرباح فى السنة وإعادة الصحة والشباب فى آخر العمر وأما ما بعد الحياة فهو عنده مجهول ووهم من الأوهام: ﴿بَلْ إِدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ (١).

إن هذا الضرب من الناس لا يزال يزداد عدداً وأهمية في كل أمة وبلاد بتأثير الحضارة الغربية، ذلك الضرب من الناس لم يترك اشتغالهم بالحياة الدنيا والعكوف عليها فراغاً لدعوة دينية، وإن الذي يدعوهم إلى الدين والحياة الأخروية ليتحير معهم كما يتحير السندباد البحري - كما تروى لنا حكاية ألف ليلة وليلة - مع بيضة العنقاء، ظنها السندباد البحري بناء من رخام فدار حولها عدة مرات لبحث عن باب يدخل منه فلم يجد، كذلك الداعي الديني يدور حول رؤوسهم فلا يجد منفذاً يدخل منه إلى عقولهم، ويدخل به دعوته الدينية إلى نفوسهم، فقد أقفلت الحياة المادية ومساائلها جميع أبوابها وسدت جميع نوافذ فكرهم.

وكما أن رجلاً لم يحظ من الفطرة بالذوق الأدبي، يسمع الألحان الجميلة والأبيات الرقيقة فلا يعدها إلا أصواتاً لا فن فيها، كذلك الذي حرم الحاسة الدينية لا تؤثر فيه دعوة الأنبياء وخطب الوعاظ، وحكمة العلماء وأمثال الصحف السماوية، وتضيع فيه بلاغة البلغاء وإخلاص المخلصين، ويصبح كل ذلك صيحة في واد ونفخة في رماد:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حيلة لمن تنادى

والذي منى بهذا الضرب من الناس يفهم السر في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾^(١)، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٢) وتظهر له حقيقة قوله: ﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً صَمٌّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣) ولم يلق في شرحها وتعليلها ما لقيه المفسرون الذين لم يشاهدوا هذا النوع من صعوبة.

داء هذا العصر الذي لا ينجح فيه الدواء ولا يؤثر فيه العلاج هو

(١) آية: ٧ البقرة.

(٢) آية: ٤٤ الفرقان.

(٣) آية: ١٧١ البقرة.

الاستغناء التام عن الدين، ولم يلق رجال الدعوة الدينية من العنت والشدة فى أحط أدوار الفسق والفجور وفى أحلك عهود المعصية والغفلة، ما يلاقونه فى دعوة هؤلاء الذين لزموا الإعراض التام فى هذا المسائل (الكلامية) فلا تعنيهم سلباً ولا إيجاباً ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (١).

وقد فطن لهذا الفرق الجوهرى بين النفسية القديمة والجديدة أحد كبار معلمى الفلسفة وعلم النفس فى إحدى جامعات أوربا الكبرى وشرحه فى عبارة وجيزة. قال س م جود:

«ثارت فى قديم الزمان شكوك واعتراضات وأسئلة واستفسارات حول الدين، لم يطمئن بعض أصحابها ولم يرتاحوا إلى جواب مقنع، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل أنه لا تزعجه الأسئلة رأساً، ولا تحيك فى صدره ولا تنشأ فى هذا العصر أصلاً».

• زوال العاطفة الدينية؛

لما طغى بحر المادية فى العالم الإسلامى فى العهد الأخير وفاض، كون رجال الدين جزراً صغيرة فى بحر المادية المحيط، يلجأ إليها الفارون إلى الله والمتبرمون من الحياة المادية والغفلة، كان فيها رجال هم كمنارات النور فى بحر الظلمات يربون الناس التربية الدينية والخلقية، ويزكون أنفسهم ويصقلون قلوبهم.

وكنت ترى فى العالم الإسلامى حركة مستمرة إلى هذه الجزر، فترى قوافل لرواد الروحانية ومنتجعى التربية الدينية غادية رائحة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى شمال العالم الإسلامى إلى أقصى جنوبه، متخطية الثغور السياسية، مجتازة العقبات الجغرافية، فترى هذه الجزر مستعمرات دينية، قد امحت فيها الفروق الجنسية والوطنية، وترى متحفاً

(١) آية: ٥٢ الروم.

إنسانياً قد اجتمع فيه الشرقى مع الغربى والبخارى مع المغربى والأناضولى مع الأندلسى، قد فروا بدينهم من الفتن ورموا بأنفسهم على عتبة ربهم، يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ويتلقون التربية الدينية ثم ينبثون فى أنحاء العالم دعاة مصلحين ومعلمين مرشدين، يلتقطون نصيب الله من بين نصيب الشيطان، ويحيون أرضاً مواتاً من القلوب، ويبذرون فيها بذور الدين.

وكذلك لم تزل فى جنب أقوى الدول وأوسعها دول روحية يفوق سلطانها الروحى سلطان الدولة المادى، فيها رجال تأتيم الدنيا راغمة ويأتيمهم الملوك والأمراء صاغرين، ولهم نظام كنظام الدول ينصبون ويقرون وينقلون ويستخلفون، ولهم «قناصل وسفراء» فى كل دولة مادية وكأن خارطة العالم الإسلامى بين أيديهم، فإذا خلا ثغر من ثغور الإسلام نصبوا فيه مرابطاً دينياً يحفظه من عادية الغفلة والمعصية، ويحرسه من غاشية الجهل والطغيان^(١).

وكانت هذه الدول الروحية مستقلة فى إدارتها ونظامها الداخلى، لا يتداخل فيها الملوك والأمراء ولا تؤثر فيها التقلبات السياسية والحوادث المحلية، ولنضرب لذلك مثلاً بالمستعمرة الروحية المعروفة بغياث فور، التى أنشأها الشيخ نظام الدين البداونى الهندى «م ٧٢٥هـ» فى نفس عاصمة الهند وقد عاصر الشيخ ثمانية من الملوك الجبابرة «من غياث الدين بلبن ٦٦٤ - ٦٨٦ إلى غياث الدين تغلق ٧٢٠ - ٧٢٥» وحافظت على استقلالها التام من غير أن تمسها يد الملوك، وكنت ترى فيها رجالاً من سنجر فى إيران إلى رجال من أوده فى شرق الهند.

(١) حدث الشيخ الصالح السيد على الهجویری دفين لاهور أن شيخه أمره بالرحلة إلى لاهور والإقامة فيها، فاعتذر بأن هناك زميله الشيخ حسين الزنجانى فلا لزوم لذهابه، فقال: لا بد أن تذهب وتقيم بها: قال: فشددت رحلى وامثلت أمر الشيخ ووصلت إلى لاهور فى الليل وقد غلقت أبوابها فبت ليلتى خارج السور، ولما أصبحت وفتح باب السور إذا بالناس يحملون جنازة الشيخ حسين، فعرفت سر أمر الشيخ ودخلت البلد، وخلفته فى عمله دعاء الخلق إلى الله (كشف المحجوب للهجویری).

وقد كان لهذه المراكز ولأصحابها الفقراء من المهابة والحشمة والاحترام الفائق ما قد يحسدهم عليه أكبر ملوك العالم، وقد يكون هذا سبب الوحشة بينهم، وما ذاك إلا لإقبال الناس على رجال الدين واحتفائهم والخضوع للسلطان الروحي، فكان السيد آدم البنوري الهندي (م ١٠٥٣ هـ) دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل، ويمشي في ركابه ألوف الرجال ومئات من العلماء، ولما دخل السيد في لاهور عام ١٠٥٣ كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم، حتى توجس شاهجان ملك الهند منه خيفة، فأرسل إليه بمبلغ من المال، ثم قال له: قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز، فعرف إيعاز الملك، وسافر إلى الحرمين حيث مات^(١).

وهذا الشيخ محمد معصوم (م ١٠٧٩) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد بايعه وتاب على يده تسعمائة ألف من الرجال، واستخلف في دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال^(٢).

وهذا ابنه الشيخ سيف الدين السرهندي (م ١٠٩٦) كان يأكل على مائدته ألف وأربعمائة، ويقترحون الأطعمة ويتخيرونها^(٣).

وهذا الشيخ محمد زبير السرهندي (م ١١٥١) كان إذا خرج من بيته ألقى له الأغنياء الشيلان والمناديل حتى لا يطاء الأرض، وإذا خرج لعيادة مريض أو لبعض شأنه خرج في ركابه الأغنياء والأمراء فكان موكباً مثل مواكب الملوك^(٤).

وهذه أمثلة قليلة لا يقصد منها إلا الاستدلال على ما كان للدين من مكانة وشرف في عيون الناس، وعلى ما كان من احتفاء برجاله ومن يمثلونه، وخضوعهم لسلطان الدين فوق سلطان القوة، وتهافتهم على موارد

(١) التذكرة الآدمية (الفارسية).

(٢) نزهة الخواطر، المجلد الخامس، للشيخ عبد الحى الحسنى.

(٣) ذيل الرشحات (الفارسية).

(٤) در المعرف (الفارسية)، ونزهة الخواطر (العربية).

الدين ومشارعه، وهذه أمثلة التقطناها على عجل من تاريخ الهند الإسلامى ولمحات عابرة فيه، ولو ذهبنا نستقصى أمثله وشواهده من تاريخ الإسلام العام ومن تراجم الرجال الدينين وسيرهم فى بلاد الشام ومصر والمغرب الأقصى والعراق لكان مجلداً كبيراً - ونكتفى هنا بذكر الشيخ خالد الكردي (م ١٢٤٢هـ) الذى ازدحم الناس عليه فى بغداد يتوبون على يديه ويستفيدون منه، وقد أخبر شيخه فى رسالة كتبها إليه أن مائة من العلماء الفحول قد تخرجوا عليه، وأن خمسمائة من كبار العلماء قد دخلوا فى بيعته، وأما العوام والخواص فلا يأتى عليهم حصر^(١).

واستمر هذا الإقبال على الدين والهجرة فى طلب العلم النافع والعمل الصالح وتجشم الأسفار والأخطار لتزكية النفس وتهذيب الخلق والتوصل إلى معالم الرشد والاستعداد للآخرة إلى أول عهد الاستعمار الأوربى، فترى فى كل قطر إسلامى مراكز دينية وملاجئ روحية يأوى إليها أهل الطلب من سائر الآفاق، وتخطبهم الدنيا والمناصب العالية فى الحكومات فيأبون إلا فراراً، ويلجأون إلى هذا المحيط الهاد إلى الروحى، ويكبون على إصلاح باطنهم وسل حظ الشيطان منه.

وتتعدى فى الحضارة إلى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى وقد احتل الإنجليز الهند، ولما تؤثر حضارتهم وفلسفة حياتهم فى مجتمع البلاد، فنرى بقايا من الحياة الدينية الأولى، ويحدثنا مؤرخ^(٢) عن زاوية الشيخ غلام على الدهلوى، (م ١٢٤٠هـ) فيقول:

«رأيت بعينى فى هذه الزاوية رجالاً من الروم والشام وبغداد ومصر والحبشة قد بايعوا الشيخ، وعدوا المشول بين يديه حسنة الدهر وسعادة العمر، أما الوافدون من البلاد القريبة كالهند وأفغانستان فكانوا كالجراد،

(١) در المعرف.

(٢) هو السير السيد أحمد خان صاحب الدعوة إلى التعليم الإنجليزى فى الهند ومؤسس الجامعة الشهيرة فى عليكرة.

ولا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمسمائة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم»^(١).

ويجيل الشيخ رؤوف أحمد المجددي نظره في رجال هذه الزاوية اليوم الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٢٣١هـ فيجد رجالاً من سمرقند وبخارى وتاشقند وحصار وقندهار وكابل وبشاور وكشمير والملتان ولاهور وسرهند وأمرويه وسبتهل وبريلي ولكهنؤ وجائس وبهرائج وكور كهبور وعظيم آباد ودهاكة، وحيدر آباد، وبونه وغيرها^(٢).

وليعرف القارئ أن هذا كله في زمان لم تحدث فيه طرق النقل الحديثة فكان كله مشياً على الأقدام وسفراً في القوافل.

وتتجلى المناظر الأخيرة لهذا العهد الراحل في تاريخ مصلح الهند الكبير والمجاهد الشهير السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) فإذا قرأت تاريخه وجولاته في الهند لأجل بث دعوته إلى التوحيد واتباع السنة والجهاد رأيت ألوفاً يتوبون من الذنوب والآثام والشرك والمحدثات، حتى تقفر الحانات وتغص المساجد، ويتسابقون في دعوته هو ورفقته الذين يعدون بالمئات إلى بيوتهم وصنع الولائم لهم، ويستهيئون في سبيل ذلك بالأموال، ويسترخصون كل عزيز وغال حتى يتقارعوا بينهم أيهم يبدأ وأيهم يتقدم.

وترى في المسلمين شهامة في سبيل الدين وعلو همة وسماحة نفس وأريحية لا تعهدا بعد ذلك، فلما خرج السيد للحج عام ١٢٣٦هـ ورفقته أكثر من سبعمائة رجل ضيف المسلمون هذا الركب في كل محل يمر به، من رأى بريلي مسقط رأسه إلى كلكته حيث ركبوا السفن، ولما نزل بالله آباد ضيفه الشيخ غلام على، وأقام هذا الركب ضيفاً عليه خمسة عشر يوماً، واجتمع الناس من القرى والضواحي وكلهم يأكلون على مائدة الشيخ الطعام الفاخر، هذا عدا الهدايا التي أهداها إلى أهل الركب والكسوة والزاد الذي

(١) آثار الصناديد (الأوردية).

(٢) در المعارف (الفارسية).

قدمه، وفي أثناء الرجوع لما حلت القافلة قريباً من مدينة مرشد آباد في طريقها من كلكتة إلى راى بريلى قام ديوان غلام مرتضى بضيافتهم وأعلن في السوق أن كل من يشتري من أهل القافلة أو يستأجر منهم أهل الصناعة فهو يؤدى الثمن من عنده، وكلمه السيد فى هذا فقال: حسبى من الفخر والشكر أنى أقوم بخدمة الحجاج.

وترى فى الناس رقة فى القلوب وانقياداً للحق وخضوعاً للشرع، فقد تشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين فى هذا السفر، وكان الناس ينهالون من كل صقع ويدخلون فى الخير أفواجا، حتى إن المرضى فى مستشفى مدينة بنارس أرسلوا إلى السيد يقولون: إنا رهائن الفراش وأحلاس الدار فلا نستطيع أن نحضر فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل، وذهب السيد وبائعهم.

وأقام فى كلكتة شهرين، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون فى البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمر البيعة إلى نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثمانى عشرة مرة.

وخطب السيد فى الناس فى كلكتة خمسة عشر أو عشرين يوماً، وكان يحضر هذه المواعظ نحو ألفين من وجهاء البلد والعلماء والشيوخ فضلاً عن عامة الناس والدهماء، وكذلك رفيقه الشيخ عبد الحى البرهانوى كان يذكر كل يوم جمعة ويوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر إلى العصر، والناس يتساقطون عليه كالفراش، ويسلم كل يوم عشرة أو خمسة عشر رجلاً من الكفار.

وكان من تأثير هذه المواعظ ودخول الناس فى الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر فى كلكتة وهى كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز، وكسدت سوقها وأقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق وتعطل تجارة الخمر.

ولما دعا السيد الإمام إلى الجهاد لبي الناس من كل طبقة دعوته في نشاط وحماسة ولحقوا به، وترك الفلاحون سكتهم وأقفل التجار دكاكينهم وغادر الناس أوطانهم وتغربوا في دين الله ولم يتلفتوا إلى ما وراءهم ولم يلجأوا على شيء حتى قتلوا في سبيل الله في وادي بالاكوت عام ١٢٤٦ هـ في الثغور، ورجع فلهم إلى قتل الجبال فاعتصموا بها وقضوا نحبهم في الجهاد.

هذا كله والحضارة الإسلامية في الهند في الاحتضار والحكومة الإسلامية في انهيار، ولكن لم يزل في الناس بقية من الأنفة الإسلامية والحمية الدينية والإنابة إلى الله والفرار إليه وسرعة الإجابة للداعي إلى الله، والاستهانة بالحياة الدنيا وبذل النفوس والنفائس في سبيل الله.

ورسخت قدم الإنجليز وأصبح نظامهم التعليمي - وهو من أكبر جنودهم - يؤتى أكله كل حين، وتسربت في الناس أفكارهم وميولهم، فصارت تقلب نظام الحياة ونظام الفكر في الهند رأساً على عقب من حيث لا يشعر أهلها فتقاصرت الهمم في الدين وخمدت جذوة القلوب وانطفأت شعلة الحياة الدينية، وانصرفت الرغبات والأهواء والتنافس الطبيعي - الذي هو الدافع الأكبر إلى التقدم والإبداع - من الدين والروحانية إلى المعاش والمادة، وقلت مرغبات الجهد في الدين والعلم وما يتصل بالروح والقلب، وتوافرت المزهديات والمثبطات عنه، وكثرت الدواعي والحافزات إلى ضده، واتجه تيار الذكاء والنبوغ والعبقرية - الذي كان متجهاً من قبل إلى الدين - من صنوف الدين وأقسام العلم الديني والروحي، إلى الإنتاج والإبداع في أنواع علوم المعاش ومرافق الحياة.

وكان لا يزال بالعهد الراحل رمق وبقية من حياة تنازع الموت وتحاول البقاء، فكان لا يزال في الناس رجال يدعون إلى الدين وإصلاح النفوس وتزكيتها وتهذيب الأخلاق وتصفيتها، وهم تذكارات لسلفهم في زهدهم في الدنيا والإقبال على الآخرة والإخلاص واتباع السنة، وكانت لا تزال لهم

دعوة فى الناس؁ والمسلمون يعدون الاتصال بهؤلاء والتمسك بأهدابهم حقاً من حقوق الدين وواجباً من واجبات الحياة وكان بعض الأغنياء والأمرء وأرباب الدنيا؁ لهم اهتمام زائد بحسن الخاتمة وأمور الآخرة وصلاح القلب وعمارة الباطن؁ ولكن كان هذا كله أشبه بالتهاب السراج قبل الانطفاء؁ فقد ذوى أصل الشجرة الدينية؁ وانقطعت عنها مادة الحياة؁ وهب عليها إعصار فيه نار.

سرى الشك وسوء الظن فى الأوساط الدينية والبيوت العريقة فى الدين والعلم بتأثير المحيط وتأثير التعاليم الإفرنجية وضعفت الثقة بالله وبصفاته وبمواعيده؁ فأصبح الآباء يضمنون بأولادهم على الدين؁ ولا يخاطرون بأوقاتهم وقواهم فى سبيل الدين وعلوم الدين؁ وأصبحوا يعلمونهم العلوم المعاشية واللغات الإفرنجية؁ لا رغبة فى تحصيل المفيد النافع ولا دفاعاً عن الإسلام بل زهداً فى الدين وفراراً من خطر المستقبل وخوفاً على أفلاذ أكبادهم من الضياع واستسلاماً للدهر المتقلب؁ وتسلب عليهم خوف الفقر حتى أصبحوا من خوف الموت فى الموت.

وهكذا انقرض هذا الجيل وطوى هذا البساط؁ ولفظ هذا العهد الروحى نفسه الأخير؁ وتلاه عهد المادة؁ وأصبحت الدنيا سوقاً ليس فيها إلا البيع والشراء.

● طغيان المادية والمعدة:

رووا أن شاعرة جاهلية هى «كبشة بنت معد يكرب» عاتبت أخاها عمرو بن معد يكرب؁ وعيرته بميله إلى قبول دية أخيه المقتول فقالت:

ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم؟

ما تتصور المرأة الجاهلية البسيطة أن بطن إنسان يتجاوز مقدار شبر فكيف لو رأت معدة الإنسان الحاضر ابن القرن العشرين؁ تضخمت وكبرت حتى وسعت الأرض وتجاوزت حتى أصبحت لا يملؤها إلا التراب.

نعم تضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى صارت لا يشبعها مقدار من المال، وتولد في الناس غليل لا يروى وأوار لا يُشفى، وأصبح كل واحد في قلبه جهنم لا تزال تبتلع وتستزيد، ولا تزال تنادى هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ تسلط على الناس - أفراداً وأممًا - شيطان الجشع والحرص فكأن بهم مساً من الجنون، وأصبح الإنسان نهماً يلتهم الدنيا التهاماً، ويستنزف موارده حلالاً وحراماً، ثم لا يرى أنه قضى لبائته وشفى نفسه، والعهد في ذلك على وضع الحياة الحاضرة وطبيعتها وكونها مادية صرفة لا تؤمن بالآخرة، وخليق بمن لا يعتد إلا بحياته الدنيا ولا يرى وراءها عالماً آخر وحياة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعته ورأس ماله وأكبر همه وغاية رغبته ومبلغ علمه، وأن لا يؤخر من حظوظها وطيباتها ولذائذها شيئاً وأن لا يضع فرصة من فرصها، ولأى عالم يدخر وهو لا يؤمن بعالم وراء هذا العالم، ولا بحياة بعد هذه الحياة؟ .

وقد عبر عن هذه النفسية الجاهلية الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد في صراحة وبساطة فقال:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
كريم يروى نفسه في حياته ستعلم إن متنا غداً أينما الصدى

وكل إنسان متمدن اليوم - إلا من عصمه الله بالإيمان - يرى هذا الرأي ويذهب هذا المذهب في الحياة، إلا أنه قد لا يجرؤ على أن يصرح به، وقد لا يملك ذلك اللسان البليغ الذي يعبر عن ضميره، والسبب الثاني: هو الأدب العصري - بمعناه الواسع - الذي لا يتحدث إلا عن المادة وأصحابها، ويخنع لأهل الثراء وأصحاب الاحتكار وأصحاب الإنتاج، الخنوع الذي لا يليق بالأدب الشريف العالى، فيكتب دقائق حياتهم في تفصيل، وينشر ألقابهم وأسماءهم بقلم عريض وكل نفس من أنفاس مدحه وتقريظه وكل فصل من فصول روايته ينتهى إلى نتيجة مادية أو إلى بطل من أبطال المادة، ويزين للقارئ المذهب الأبيقورى تارة بالتمليح وتارة بالتصريح، ويبحث

الشباب على التهام الحياة وانتهاك المسرات نثراً وشعراً وفلسفة ورواية وتحليلاً وتصويراً، فلا ينتهون منه إلا بالروح المادى والتقديس لرجال المادة.

وكذلك المجتمع الذى لا يقدر إلا الغنى الظريف متناسياً كل ما فيه من رذيلة ولؤم أصل وسوء خلق، ويتجنى على الإنسان الذى لا يترجح فى ميزانه مهما كثرت مواهبه وطاب عنصره وسما جوهره، ويلمح وقد يصرح بأن الفقير لا يستحق الحياة، ويعامله معاملة الدواب والحمير والكلاب، فيرغم الإنسان - إذا لم يكن ثائراً على المجتمع - على أن يخضع لشريعة مجتمعه، وأن يتجمل ويتظرف لمجتمعه، فلا يلبس إلا لغيره ولا يتأنق إلا لغيره.

وهذا المجتمع لا تزال مقاييسه للشرف والظرافة تتغير ومعاييره للإنسانية تتبدل وتتحوّل ومطالبه تتنوع وتكثر، حتى يضيق الإنسان بها ذرعاً ويلجأ إلى طرق غير شريفة لتحصيل المال وإلى كدح وكد فى الحياة، وهناك هموم تتوالى ولا تنتهى ومتاعب تتسلسل ولا تنقطع.

وزاد الطين بلة تنافس المصانع والمنتجين والصناع، ففى كل صباح يتدفق على المدينة سيل جديد من أحدث المنتجات وأحدث طراز من السيارات والسجائر والأزياء والقبعات والأحذية والأدهان والأطعمة وأسباب الزينة والزخارف والأجهزة ولا يجلب منها شيء قياماً بالواجب وسداً للعوز، بل كله فى سبيل الاستغلال الصناعى والاحتكار التجارى، ولا تلبث هذه المنتجات التى هى من فضول الحياة أن تدخل فى أصول المعاش ولوازم المدنية، والذى لا يتحلى بها لا يعد من الأحياء.

ولهذه الأسباب ولغيرها ارتفعت قيمة المال فى عيون الناس ارتفاعاً لم تبلغه فى الزمن السابق، وبلغ من الأهمية والمكانة مبلغاً لم يبلغه - على ما نعرف - فى دور من أدوار التاريخ المدون، وأصبح المال هو الروح السارى فى جسم المجتمع البشرى والحافز الأكبر للناس على أعمالهم ونشاطهم المدنى، وقد يدفع المخترع إلى الاختراع والصانع إلى صناعته والسياسى إلى مقالته والمرشح إلى انتخابه والعالم إلى تأليفه، حتى القادة إلى الحرب، فهو

القطب الذى تدور حوله رعى الحياة العصرية كما يقول الأستاذ «جود» معلم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن: «إن النظرية المهيمنة السائدة على هذا العصر هى النظرية الاقتصادية، وأصبح البطن أو الجيب ميزاناً لكل مسألة فبمقدار اتصالها بالجيب وتأثيرها فيه يقبل الناس عليها ويعنون بها».

إذا حكمت على عصرك وطبائعه وأذواقه وأنت بمعزل عن الحياة، وبنيت حكمك على مؤلفات ومقالات إنما تكتب فى زاوية من زوايا المكتب فإنك تغالط نفسك، وقد تقرأ فى هذه الكتب الفلسفية أو المقالات العلمية التحليلية كأنك فى عصر متمدن راق تتحكم فيه معايير الأخلاق وتسود فيه المثل العليا ويغشاه سحاب الفضيلة والنبل، وتخلق عليه روح الديانة والعلم، ولكن الواقع غير ذلك، فإن هذه الكتب إنما ألقت فى عالم الخيال الذى يعيش فيه مؤلفوها، وإن أهواءهم وأذواقهم هى التى خلقت لهم عالماً خيالياً يصفونه ويصورونه فى كتبهم، حتى يخيل إلى القارئ أنه هو العالم المحيط به . . . وللأهواء عجائب وخوارق.

ولكنك إذا اتصلت بالحياة عن كثب، لا عن كتبٍ وخالطت الناس ودرست أحوالهم وأصغيت إلى حديثهم فى البيت وفى القطار والبستان وعلى المائدة وفى السمر، رأيت (الذهب) حديث النوادى وشغل الألسنة وهوى القلوب والبداية والنهاية فى كل موضوع، والقطب الذى تدور حوله رعى الحياة.

إن شاعراً عريباً يلعن الصعلوك الذى لا يتعدى نظره ولا يسمو فكره عن لباس وطعام ويقول:

لحاً الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقي لبوساً ومطعماً

فكيف إذا أشرف هذا الشاعر على هذه المدنية وهى تجرى بفلاسفتها وسياسيها ونوابغها وعلمائها وكتابها وأشرافها وأغنيائها وفقرائها وراء غاية لا تتعدى لبوساً ومطعماً مهما تنوعت أشكالها وتضخمت ألقابها؟! فالحياة كلها جهاد فى سبيل اللباس والطعام.

• التدهور فى الأخلاق والمجتمع:

احتل الأجانب الشرق الإسلامى وقد أصاب المجتمع الشرقى الإسلامى انحطاط فى الأخلاق والاجتماع، وسبقت إليه أدواء خلقية واجتماعية كانت أهم أسباب انهيار الدول الإسلامية وانهزام الأمم الشرقية.

ولكن مع ذلك لم يزل المجتمع الشرقى الإسلامى - على علته - محتفظاً ببعض المبادئ الخلقية السامية والخصائص الاجتماعية الفاضلة التى لا يوجد لها مثيل فى الأمم، وقد نضج واكتمل فن الأخلاق عند الشرقيين ووصل من الدقة والتفصيل واللطافة ورقة الحواشى ذروة لا يصل إليها ذهن العصر، ولا يتصورها الغربى إلا فى الشعر والأدب.

يقرأ الإنسان أو يسمع روايات عن استحكام الروابط والأواصر بين أعضاء المجتمع العام وأفراد الأسرة، وتغلغلها فى الأحشاء واستمرارها إلى الأحقاب والأجيال وخلوها من كل مصلحة ومتعة مادية، ما لا يتصوره أبناء هذا العصر. وكذلك من حنو الآباء على الأبناء وبر الأبناء بالآباء، وتوقير الصغير للكبير وحذب الكبير على الصغير، وعن عفاف النساء ووفاء الحلائل وأمانة الخدم ووفائهم واستقامة الشبان وثباتهم على الأخلاق ومعاملة الأشراف بعضهم لبعض، والمحافظة على الرواتب والعادات والاطراد فى مسألة اللباس والشعائر والعشرة، والإيثار فى شأن الأصدقاء والنصح لهم، يسمع منها غرائب لا يكاد يصدق بها.

كان بر الأبناء للآباء وطاعتهم إلى حد التفانى فى سبيلهم والاضمحلال فى وجودهم متزعين من قول النبى ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»^(١).

وكان حب الأبناء لآبائهم وبرهم وحرصهم على أداء حقوقهم غير مقتصر على حياة الأبوين، بل كان يستمر إلى ما بعد وفاتهما بصلة

(١) رواه أبو داود - البيوع رقم ٣٥٣٠، وابن ماجه - التجارات رقم ٢٢٩١ و ٢٢٩٢.

أصدقائهما، وأهل أنسهما والإهداء إليهم والتجيب إلى أولادهم وعشيرتهم، وكان ذلك عملاً بقوله ﷺ: «إن من أبر البر بر الرجل بأهل ود أبيه بعد أن يولى»^(١).

وكان الأبوان مثلاً للنصح والإخلاص في حبهما للأولاد، وكانا يضحيان بجميع أهوائهما وميولهما وراحتهما وبلدة الأمومة والأبوة في سبيل تثقيفهم وتربيتهم وتعليمهم، ويتحملان في ذلك - حتى الرجل الأمي والمرأة الجاهلة - إجحاف المعلمين في ذلك وعسفهم وإضرارهم في بعض الأحيان بجسم الصغار، ويجرعان المرائر ويصبران على الغصص في سبيل الأولاد ونبوغهم، وقد تواضع على ذلك أهل السيوتات والشرف حتى أهل الطبقات الوضيعة، ويعدون من خالف ذلك رجلاً نذلاً لئماً، والذي روى عن هارون الرشيد في تنبيهه لولديه الأمين والمأمون ووصيته لهما بخدمة الكسائي معروف في التاريخ، ومن غرائب ما يروى في هذا الباب ويمثل الطبيعة الشرقية أن «تاج الدين آلدز» أمير الأفغان بعد السلطان شهاب الدين الغوري أسلم ولده إلى معلم وضرب المعلم الولد حتى مات، فلما علم بذلك «تاج الدين» أشار على المعلم بأن يهرب وقال: «لا آمن عليك من أم الولد فعسى أن ينالك منها مكروه».

وكانت الرابطة بين الصغير والكبير في المجتمع الإسلامي مؤسسة على تعاليم الشرع «من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا فليس منا».

ومن خصائص الحضارة الشرقية الاطراد في الحياة والمحافظة على لون واحد والتظاهر بمظهر واحد، فكان الرجل إذا شرع في أمر وتظاهر بمظهر واصله إلى غايته، وإذا اتخذ عادة أو شارة في اللباس أو عامل أحدًا نوع معاملة واطب عليه إلى آخر أنفاسه، لا تؤثر في ذلك الحوادث ولا غيره الفصول ولا انحراف الصحة ولا الكسل ولا المصالح.

(١) رواه مسلم - رقم ٢٥٥٢، والترمذي - البر رقم ١٩٠٤، وأبو داود - الأدب رقم ٥١٤٣.

ولم يكن العملة في حياة الأسرة والقبائل ولم يكن الميزان في التوقيع والشرف هو كثرة المال فيختلف المستوى المالى فى أسرة اختلافاً كبيراً، ويتفاوت الرجال فى قبيلة أو قوم تفاوتاً عظيماً فى المال والجاه، فهذا ثرى مثر وذلك فقير معدم، ولم يكن يستطيع أحد أن يفرق بينهم ويرفع بعضهم فوق بعض لأجل التفاوت الاقتصادى فى مجتمعات الأسر والبيوتات والمآثم (بمعناها اللغوى) فإذا شم أحد رائحة الفرق أو نظرة الازدراء، ثار كالليث، أو إذا بدرت بادرة من المضيف تنم عن هذا الفصل انسحبت الأسرة كلها من الضيافة وقاطعوا أهل الضيافة، وكانوا يداً واحدة مع أخيهم المهضوم.

وكان الفقير الصعلوك فى قبيلة يواجه الأغنياء والملوك من تلك القبيلة بجرأة وهو معتز بنفسه معتد بشرفه لا يرى فى نفسه معتد بشرفه لا يرى فى نفسه نقيصة لأجل فقر، وكان الغنى أو الملك يكرمه ويحله المجل اللائق بشرفه ونسبه وفضيلته الذاتية، بصرف النظر عن رثاثة هيئته وتبذله، والأزمة الاقتصادية الطارئة على كرم عنصره وصفاء معدنه وطيب منبته ومتانة دينة ووفور علمه.

وكان الفقير فى ذلك يبالغ كثيراً فى إخفاء عسرتة وضمنك معيشتة ويتحمل ويتجلد، ويسوؤه أن يفتن أحد إلى فاقتة ورقة حاله.

وكان ضمير الحر عزيزاً محترماً كدينه وعرضه، لا يساوم عليه ولا يباع بأى ثمن، وكان الواحد يفضل الموت الأحمر على كذبة أو خيانة يخلص بها نفسه من الموت.

وقد روى لنا التاريخ الهندى طرائف فى هذا الباب لا بد أن تكون أمثلتها متوافرة فى تاريخ جميع البلاد الإسلامية: منها أن الشيخ رضى الله البداونى اتهم بالاشتراك فى الثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧ وحوكم أمام حاكم إنجليزى كان من تلاميذه، فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه، ولكن الشيخ أبى وقال: قد اشتركت فى الخروج على الإنجليز فكيف أجحد واضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام، ولما قدم

للشئق بكى الحاكم وقال له: حتى فى هذه الساعة لو قلت مرة: إن القضية مكدوبة على، وإنى برىء لاجتهدت فى تخليصك، فغضب الأستاذ وقال: أترى أن أحبط عملى بالكذب على نفسى، لقد خسرت إذاً وضل عملى، بل قد اشتركت فى الثورة فافعلوا ما بدا لكم وشئق الرجل!!.

ولم يكن صدقهم واعترافهم بما يعلمون ويعتقدون مقتصرًا على ما يتصل بأنفسهم، بل كانوا صادقين فيما يتصل بالأمة والشعب، فلم يكونوا يعرفون العصبية الجنسية والوطنية والجنف القومى الذى أصبح اليوم من واجبات الجنسية والوطنية، وكانوا يعدون الكذب وشهادة الزور لأجل الأمة والوطن والملة رذيلة وإثمًا كبيرًا. وكانوا يعتقدون أن أحكام الشرع تعم الفرد والأمة والأمور الشخصية والاجتماعية وكانوا متمسكين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (١) الآية، وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (٢) وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (٣) وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (٤).

ومما يروى لنا الشيوخ من ذلك: أنه وقع نزاع بين الهنادك والمسلمين فى قرية كاندهلة من مديرية «مظفر نكر» فى الولايات المتحدة الهندية على أرض، فادعى الهنادك أنها معبد لهم، والمسلمون أنها لهم مسجد، وتحاكموا إلى حاكم البلد الإنجليزى، فسمع الحاكم القضية ودلائل الفريقين ولم يطمئن إلى نتيجة، فسأل الهنادك: هل يوجد فى القرية مسلم تثقون بصدقه وأمانته أحكم على رأيه؟ قالوا: نعم، فلان، وسموا شيخًا من علماء المسلمين وصالحهم، فأرسل إليه الحاكم وطلبه إلى المحكمة فلما جاءه الرسول قال:

(١) آية: ١٣٥ النساء.

(٢) آية: ٨ المائدة.

(٣) آية: ٥٨ النساء.

(٤) آية: ١٥٢ الأنعام.

قد حلفت أن لا أرى وجهه إفرنجي، ورجع الرسول فقال الحاكم: لا بأس، ولكن احضر وأدل برأيك في القضية، فحضر الشيخ وولى دبره إلى الحاكم وقال: الحق مع الهنادك في هذه القضية، والأرض لهم. وبذلك قضى الحاكم وخسر المسلمون القضية، ولكن كسبوا قلوب الهنادك وأسلم منهم جماعة.

وكذلك كان الناس يعدون العلم عارية مقدسة ووديعة من الله لا يبيعونه كسلعة في السوق، ولا يتعاونون به على إثم آثم وعدوان معتد، وكانوا لا يرضون أن يستعين به نظام جائر أو حكومة غير إسلامية.

ومما حكى لنا الثقات وقرأناه في التاريخ أن الشيخ عبد الرحيم الرامبوري (م ١٢٣٤هـ) كان يعمل في بلدة رامبور براتب زهيد يتقاضاه كل شهر من الإمارة الإسلامية لا يزيد على عشر روبيات (أقل من جنيه مصري)، فقدم إليه حاكم الولاية الإنجليزي المستر هاكنس وظيفة عالية في كلية بريلي راتبها مائتان وخمسون روبية (تسعة عشر جنيهًا مصريًا)، وذلك يساوي خمسين جنيهًا في هذا العهد، ووعد بالزيادة في الراتب بعد قليل، فاعتذر الشيخ عن قبوله وقال: إنني أتقاضى عشر روبيات وإنها ستقطع إذا تحولت إلى هذه الوظيفة، فتعجب الإنجليزي وقال: ما رأيت كاليوم: أنا أقدم راتبًا يزيد على راتبك الحالي بأضعاف أضعاف، وتترك الأضعاف المضاعفة وتقتنع بالنزر اليسير! فتعلل الشيخ بأن في بيته شجرة سدر وهو مغرم بثمرها وأنه سيحرمها إذا أقام في بريلي، ولم يفتن الإنجليزي بعد إلى مقصود الشيخ. فقال: أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليك من رامبور إلى بريلي، فتشبت ثلاثة بأن حوله طلبة وتلاميذ ويقرؤون عليه في بلده فلو انتقل إلى هذه الوظيفة انقطعت دروسهم. ولم يأس الإنجليزي المناقش من إقناعه فقال: أنا أجرى لهم جريات في بريلي ويواصلون دروسهم هناك، وهنا أطلق الشيخ آخر سهامه الذي أصمى رميته فقال: وماذا يكون جوابي غدًا إذا سألتني ربي: كيف أخذت الأجرة على العلم؟ وهنا بهت الإنجليزي وسقط

فى يديه وعرف نفسية العالم المسلم، وقضى الشيخ حياته على أقل من جنيه يأخذه كل شهر.

قارن هذه الروح السامية والنفس الكبيرة التى تربأ بالعلم أن يباع بيع السلع، وتغار على العقيدة والكرامة أن تشتري بمال أو منفعة، بهذا التبذل والإسفاف الذى وصل إليه أهل العلم والعقل والصناعة فى هذا الزمان، فقد عرض كثير من علمهم وعقلهم وما يحسنونه كالسلع فى الأسواق، يبيعونها بالمناداة (المزاد العلنى) ليشتريها من يزيد فى الثمن كائنًا من كان، فليس الشأن عندهم فى العقيدة ولا فى الغرض والنتيجة ولا فى الملاءمة والذوق، إنما الشأن عندهم فى الثمن الذى يدفعه المشتري.

وكل يوم نطلع على مضحكات مبكيات فى هذا الباب، فهذا الأستاذ كان أمس فى معهد إسلامى يدرس العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامى، وقدمت إليه الكلية الكاثوليكية الفلانية وظيفة تدريس براتب يزيد على راتبه السابق بخمسة جنيهات فانتقل إليها، وهذا السيد فلان كان فى وزارة المعارف سابقًا، وكان شابًا مثقفًا وعالمًا له هوى فى التحقيق والدراسة، تقرأ له مقالات علمية فى المجلات الراقية فإذا به ينتقل فجأة إلى مصلحة الطيران أو الإذاعة، وسألناه: ماذا حدث له حتى غير طريقه وقلب تيار حياته؟ فأخبرنا أن ذلك لأجل أن يربح فى مركزه الجديد عشرة جنيهات، وهذا البحاث الفلانى كتب مقالة عن التصوف الإسلامى ونال بها ثناء أهل العلم قد تحول إلى وزارة الخارجية أو أصبح ترجمان دولة أوربية، وما هو إلا لأجل زيادة بمقدار بضعة جنيهات، أو ليس هذا لأن الربح المالى قد أصبح كل شئ ولأن الذهب اللماع أصبح المتصرف الوحيد فى مناهج الحياة والمسيطر الوحيد على الأرواح والعقليات؟!.

قرأنا فى التاريخ الإسلامى أن المنصور الخليفة العباسى المشهور طلب من ابن طاوس فى مجلس أن يناوله الدواة ليكتب شيئًا فامتنع، فسأله الخليفة عن سبب امتناعه وعدم امثاله أمر خليفة المسلمين، فقال: أخاف أن تكتب

بها معصية فأكون شريكك فيها ومتعاونًا على الإثم والعدوان. إلى هذا الحد وصل بهم تمسكهم بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] أما امتناعهم عن قبول منصب القضاء في نظام لا يرضونه ولا يرتاحون إلى سيره وتفاصيله فرواياته بلغت حد التواتر، اطردت في أدوار الحياة الإسلامية الأولى.

قارن هذا الاحتراس من التعاون على الإثم والعدوان، وهذا التعفف عن المشاركة في نظام غير صحيح، والامتناع من أدنى مساعدة لهدف لا يتفق ومصالح الأمة الإسلامية أو يعود عليها بالضرر أو فيه غش وخديعة للأمة، قارن كل ذلك بهذه المساعدة والتعاضد الذي تتمتع به الحكومات الأوربية من المسلمين، وهذا الذكاء واللباقة والقلم البليغ واللسان الذلق الذي ينتفع به الأجانب منهم في مصالحهم وإداراتهم.

فهناك شبان مسلمون وكتاب بارعون يتولون تحرير الصحف والمجلات التي تصدرها الحكومات الأجنبية لنشر دعايتها في بلاد المسلمين والتأثير في عقليتهم ونفسياتهم وتمويه الحقائق بمقدرة المأجورين من المسلمين أنفسهم.

وهناك جماعة من «الأفاضل» ينحدرون من أصول عربية صميمة، وينتمون إلى بيوتات عريقة في المجد والإخلاص والإسلام، قد جاهد آباؤهم في سبيل الحق ومحق الباطل، وبقيت نسبتهم في أسمائهم تروى لنا تاريخًا مجيدًا عن آبائهم حافلاً بجلال الأعمال، وجرى دمهم في عروقهم، وظهر في ملامح وجوههم وتقاطيعها، يشتغلون اليوم في الحكومات الأجنبية، ويستعملون تلك اللغة المضرة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، والتي تكلم بها رسل المسلمين في مجالس ملوك فارس والروم، فأدوا بها رسالة الإسلام، وألقوا المهابة في قلوبهم، والتي ألقى بها القواد المسلمين خطب الجهاد، بهذه اللغة الكريمة التي لا تليق إلا للبطولة الإسلامية، وبتلك الكلمات الفصيحة الرائعة التي لا تجمل إلا في مواضع الحق والجهاد، ينشر هؤلاء دعاية الحكومات الأجنبية التي تعبت بالمسلمين عبث اللاعب بالكرة،

أو عبث الوليد بجانب القرطاس، وقد رزأتهم في سياستهم واستقلالهم وإيمانهم وعقلهم واقتصادهم، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون.

قد سمعنا منهم أن هذه الحكومات تقوم بجهود نبيلة لخير العروبة والإسلام ورفع شأنهما. وأنها «نور الحرية الوضاء في عالم ساد الظلام الدامس»، وقد سمعناهم يشيدون «بالخدمات الجليلة والمساعدات العظيمة التي تقدمها الإذاعة البريطانية في سبيل نهضة الأقطار العربية وتوحيد تفكيرها وثقافتها وتوثيق الروابط بينها، وما تقوم به من نشر الثقافة العربية الإسلامية، وتعريف المسلمين بتاريخهم المجيد ومدنيتهم الزاهرة، وإطلاع العالم العربي على حقائق الأمور، وسير الحوادث في نزاهة وتجرد وصدق»^(١) ولطالما سمعناهم وقرأنا لهم إشادة بإيمان هذه الحكومات بالديمقراطية الصحيحة وجهادها لتوطيد الأمن العام وسلام العالم وحرية الأمم المستضعفة والبلاد المهضومة، ورفعها لراية العدل والمساواة، والأخذ للمظلوم من الظالم، وقيامها للحق... إلخ.

فإذا كان هؤلاء المتحدثون لا يرضى ضميرهم بما يقولون، ويعرفون أن هذه الكلمات في غير محلها، وإنما هو كله لمصالحهم المالية، فيالانحطاط النفس الشريفة، وبالأخص السلعة الغالية، وبإضيعة الكلمات العامرة بالمعاني، وبإشقاء اللغة العربية بأهلها! وإذا كان ذلك عن اعتقاد وثقة وفهم للمعنى، فيا جهلاً بالحقائق، ويا إنكاراً للمحسوس، ويا مسخاً للقلوب!

وهذا عصر التناقش فيكتب أديب أو صحافي اليوم كتاباً حماسياً في سيرة بطل من أبطال الجهاد الإسلامي، أو مجدد من مجددى الإسلام، ولا يجف مداد مقالته أو كتابه ذلك حتى يكتب بقلمه تقريراً أو ثناء على خائن من خونة الأمة، أو صنعة من صنائع الأجانب لمصلحة سياسية ومنفعة مالية، ولا يرى في ذلك تناقضاً.

(١) الكلمات التي بين القوسين منقولة لفظاً.

طلب ملك من ملوك العرب من شاعر عربى فرسه، فاعتذر أن يعطيها بأى ثمن كان وقال:

أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباع

ولكن كأن الضمير عند هؤلاء الذين يشتغلون فى الحكومات الأجنبية، أو يذيعون من محطاتها ما لا يرضى به ضميرهم ولا يصدق علمهم، أو يصدرن صحفًا، أو يؤلفون كتبًا على جعالة أو راتب شهرى، أذل وأرخص من جواد الجاهلى فهو يعار ويباع، وذلك لم يكن ليعار ولا ليبيع.

وكانت الروابط والأواصر فى الشرق - فى الغالب - قائمة على أساس غير مادية إما عقلى وإما روحى ووجدانى، وكان للأثرة والأنانية فيها نصيب ضئيل، وكان نتيجة ذلك وجود روابط وأواصر لا يمكن تحليلها بالمادة وجر النفع إلى أصحابها، وكانت هذه الروابط متغلغلة فى الأحشاء، فمن ذلك أن علاقة التلميذ بأستاذه وإخلاصه وحبه له فى العهد السابق، يزرى بعلاقة الولد بوالده وحبه له فى هذا العصر.

اشتهر نبأ وفاة الأستاذ الشهير العلامة نظام الدين اللكهنوى (م ١١٦١هـ) صاحب منهاج الدرس النظامى الجارى تطبيقه فى الهند وخراسان، فلما أتى النعى تلميذه السيد كمال الدين العظيمابادى، مات من شدة الحزن، وعمى تلميذه الآخر «ظريف العظيمابادى» من كثرة البكاء، وتحقق بعد ذلك أن الإشاعة كانت غير صحيحة^(١)، ولعل ذهن هذا العصر لا يسيغ هذه الرواية، ولكن الذى عرف طبيعة الشرق ومدى اتصال التلميذ هنالك بأستاذه وحبه له لم يستغرب هذه الرواية ولم يكذبها.

يعلم المطلع على تاريخ الأخلاق وفلسفتها أنه قد ظهرت مدرسة فى أوربا قبل المسيح بأربعة قرون، وكان لها أنصار من كبار الفلاسفة والأخلاقين إلى القرن التاسع عشر المسيحى، تدين باللذة البدنية وتعتقد أنها

(١) نزهة الخواطر للشيخ عبد الحى الحسنى (المجلد السادس).

ميزان الأخلاق ومعيار الأعمال، وتشير على أتباعها بأن يهتبلوا فرص التمتع بالحياة الدنيا ويغتنموا فلتات الدهر.

وافترق أصحاب هذه المدرسة فرقتين، فمنهم (أولو الأثرة) الذين يقولون: ينبغي أن لا يحول بين الإنسان وشهواته حائل حتى لا يدع حاجة في نفسه إلا قضاها، فينال بذلك النصيب الأكبر من اللذة والهناء وقالوا: السعادة هي إرضاء الشهوة وقضاء مآرب النفس واقتطاف المسرة واللذة باليدين.

والفرقة الثانية هم (النفعيون) ويرى أهل هذا المذهب أن الواجب هو تحصيل المنفعة التي ينال بها أكبر عدد من أفراد البشر أوفر قسط من اللذة والهناء، ولا وزن للأفعال الخلقية في نظرهم إلا بما تأتي به المسرة لغالب بنى النوع، ويرى هؤلاء أن السعادة هي أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعد عنهم الآلام.

ويرى القارئ ويلمس الروح المادى المتعشق للذة والهناء فى آراء هذا المذهب ونزعاته من أحطها وأكثرها إسفافاً إلى أرقاها وأكثرها تحليقاً، وهذا يختلف عن طبائع الشرق وشرائع السماء اختلافاً بيناً، وقد أثرت هذه النزعة المادية فى فلسفة الغرب وأخلاقه وأدبه وحضارته تأثيراً عميقاً، ولا تزال مهيمنة على الحياة الغربية وآدابها حتى اليوم.

ثم نزعوا دائماً فى تشخيص المنفعة ووزنها إلى المادية لأنهم احتكموا فيها إلى أذهانهم وعقولهم، وقد أصبحت مادية بحتة، لأنها بحقيقة لا تأتي تحت الحس أو المساحة أو العد أو الوزن، ولا تؤمن بمنفعة لا تجلب لذة وهناء، حتى مؤسس هذا المذهب (أبيقور م ٢٧١ ق.م) صرح بأن مناط الحكم على الأعمال هي المنفعة، وأن المنفعة لا قيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتباطاً، فكيف وقد تدرجت العقول والطبائع الغربية ومردت على النزوع المادى على تعاقب الأجيال والعصور؟!.

فكان نتيجة ذلك أن الذهن الغربى والمنطق العصرى أصبحا عاجزين عن الاهتداء إلى منفعة غير محسوسة لا تجلب لذة واغتياباً، وأصبح العقل الأوروبى محامياً عن المادية لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية، وبحسب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذة والهناء، والأفراد من الاغتياب والرخاء، فأصبح الربح المادى هو الميزان للأخلاق والفارق بين الشر والخير وأصبحت الأخلاق التى لا وزن لها فى ميزان المادة، ليس لها قيمة إلا القيمة الدينية أو الخلقية فى المصطلح القديم ينتقص كل يوم سلطانها على القلوب والعقول، وتعدم أنصاراً وتصبح من شعائر القديم وذكريات العهد الماضى كحنان الأبوين وحبهما للأولاد، ووفاء الأزواج وحفظهن للغيب، وتحل محل هذه الأخلاق المقدرة الصناعية والاختراع والإنتاج والوطنية والجنسية ولا تزال ترتفع قيمتها ويرجح وزنها.

ولا يزال المجتمع العصرى يستغنى عن الروابط المنزلية والأرحام الدموية والشرائع الخلقية بتنظيمات اجتماعية شعبية على الخطوط السياسية والصناعية والاقتصادية. ولا يهم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده أو الزوجة زوجها إذا كان هؤلاء الأفراد لا يزالون فى الدائرة المدنية التى اختطها المجتمع حول أفرادهم، وما دام لا يحدث عملهم هذا اضطراباً فى المجتمع وثورة على النظام ولا يعرقل سير المدنية فلا بأس إذا كان هنالك عقوق من ولد أو فرك من قرينة أو جفاء من زوج أو دعارة من امرأة أو فسق من رجل أو خيانة من زوجة.

الباب الخامس

قيادة الإسلام للعالم

الفصل الأول

نهضة العالم الإسلامي

• اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية:

لأسباب تاريخية عقلية، طبيعية قاسرة، ذكرناها في البحوث السابقة، تحولت أوروبا النصرانية جاهلية مادية، تجردت من كل ما خلفته النبوة من تعاليم روحية، وفضائل خلقية، ومبادئ إنسانية، وأصبحت لا تؤمن في الحياة الشخصية إلا باللذة والمنفعة المادية، وفي الحياة السياسية إلا بالقوة والغلبة، وفي الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية المعتدية، والجنسية الغاشمة، وثارَت على الطبيعة الإنسانية والمبادئ الخلقية، وشغلت بالآلات، واستهانت بالغايات، ونسيت مقصد الحياة، وبجهادها المتواصل في سبيل الحياة وبسعيها الدائب في الاكتشاف والاختبار مع استهانتها المستمرة بالتربية الخلقية وتغذية الروح وجحودها بما جاءت به الرسل، وبإمعانها في المادية، وبقوتها الهائلة مع فقدان الوازع الديني والحاجز الخلقى، أصبحت فيلاً هائجاً، يدوس الضعيف، ويهلك الحرث والنسل، وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة، وتنازلهم عن قيادة العالم وإمامة الأمة، وبتفريطهم في الدين والدنيا، وجنائتهم على أنفسهم وعلى بنى نوعهم، أخذت أوروبا بناصية الأمم، وخلفتهم في قيادة العالم، وتسيير سفينة الحياة والمدنية التي اعتزل ربانها، وبذلك أصبح العالم كله - بأعمه وشعوبه ومدنياته - قطاراً سريعاً تسير به قاطرة الجاهلية والمادية إلى غايتها، وأصبح المسلمون - كغيرهم من الأمم - ركاباً لا يملكون من أمرهم شيئاً، وكلما تقدمت أوروبا في القوة والسرعة، وكلما ازدادت

وسائلها ووسائلها، ازداد هذا القطار البشرى سرعة إلى الغاية الجاهلية حيث النار والدمار والاضطراب والتناحر والفوضى الاجتماعية والانحطاط الخلقى والقلق الاقتصادى والإفلاس الروحى، وها هى أوربا تستبطن الآن أسرع قطار، وتريد أن تصل إلى غايتها بسرعة الطائرة بل بسرعة القوة الذرية.

• استيلاء الفلسفة الأوربية على العالم؛

وليس على وجه الأرض اليوم أمة أو جماعة تخالف الأمم الغربية فى عقائدها ونظرياتها وتزاحمها فى سيرها، وتعارضها فى وجهتها، وتناقشها فى مبادئها وفلسفتها الجاهلية، ونظام حياتها المادى لا فى أوربا ولا فى أمريكا، ولا فى أفريقية وآسيا، والذى نرى ونسمع من خلاف سياسى ونزاع بين الأمم فإنما هو تنافس فى القيادة، وتنازع فيمن يكون هو القائد إلى هذه الغاية المشتركة، فحول المحور إنما كانت تكره أن يبقى الحلفاء مستبدين بالقيادة العالمية منذ زمن طويل، مستأثرين بموارد الأرض وخيراتها وأسواقها ومستعمراتها، وبشرف السيادة على العالم وحدهم مع أنها لا تقل عنهم فى القوة والعلم والنظام والنبوغ والذكاء، بل ربما تفوقهم، أما إنها كانت تريد أن تسير إلى غاية أخرى وأن تقوم بدعوة المسيح، وتقيم فى الأرض القسط، وأن تقود الأمم إلى الدين والتقوى وتنصرف بها وتتجه من المادية إلى الروحانية والأخلاق فهيهات هيهات.

أما روسيا الشيوعية فليست إلا ثمرة الحضارة الغربية، قد أينعت وأدركت، ولا تمتاز عن الشعوب والدول الأوربية إلا أن روسية قد خلعت جلباب النفاق والزور ونفذت ما تزوره وتبطنه الأمم الغربية منذ زمن طويل، وتعتقد منذ قرون فى الأخلاق والاجتماع، وقد استبطأت روسية سير هاتيك الأمم والدول فى سبيل الإلحاد واللادينية والإباحة والمادية البهيمية، فهى تريد أن تتولى قيادة العالم، وتسير بالأمم الإنسانية سيراً حثيثاً إلى ما وصلت إليه.

• الشعوب والدول الآسيوية؛

أما الشعوب والدول الآسيوية والأمم الشرقية فهي فى طريقها إلى الغاية التى وصلت إليها شعوب أوربا فى الحضارة والسياسة، وتدين بما تدين به هذه الشعوب فى الأخلاق والآداب والاجتماع وتعتقد ما تعتقده عن الحياة والكون، وتتحدى به من سيرة وخلق وتهذيب، إلا أنها لا ترضى أن يتولى أمرها النزلاء الأجانب ويقيموا عليها الحجر كما يقام على السفیه، وأن تكون للأوربيين عليها دول وإمبراطوريات ينعمون فى ظلها ويرتعون فى جنباتها، ولا يكون لها مثلها فى الشرق وأفريقية وآسية ولا تستمتع حتى فى داخل بلادها بما استمتع به الأوربيون طويلاً حتى فى خارج بلادهم. أما إنها تنكر على الأوربيين ماديتهم وتنقم منهم أخلاقهم وسيرتهم وتنعى عليهم فلسفتهم ومبادئهم فلعل ذلك لا يخطر منها على بال، بل قد زين لها كل ما تتصف به الأمم الأوربية فحلاً فى عينها.

وكلما سنحت لهذه الأمم فرصة الاستقلال وملكت زمام أمورها تجلت أخلاقها ومبادئها وظهرت سيرتها الجاهلية فى صورتها الطبيعية الحقيقية، فإذا هى أفظع صورة وأبشعها فى التاريخ، قساوة قلب وضراوة بالدم الإنسانى وهتكاً للأعراض ونهباً للأموال وقتلاً وتدميراً، وقد ظهرت من بعض هذه الشعوب الآسيوية على أثر استقلالها من الحكم الأجنبى فظائع ومنكرات تستبشعها الوحوش والسباع وتصتك منها الأسماع، فقد عاملت بعض الشعوب المواطنة بعصبية دينية وسياسية، معاملة عز نظيرها فى التاريخ، رضعاء يقتلون ويقطعون إرباً إرباً ونساء تهتك أعراضهن ثم يقتلن من غير رحمة ولا حياء، وآبار تسمم وبيوت تهدم ونيران تشعل وقنابل تقذف، وإذا دخلوا قرية فاتحين منتشرين أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ووضعوا فيها السيف، وعاث الوحوش فى الدماء والأعراض حتى أقفرت القرى وامتلأت الآبار بالسيدات اللاتى آثرن الموت على هتك الأعراض، هذا عدا نساء قتلن بهمجية وطرق فظيعة لم تسبق فى التاريخ،

إلى غير ذلك من الأفاعيل التي يشك فيها الناس في البلاد الإسلامية والمتحضرة .

هذا غير ذلك الاضطهاد الدينى والمقاطعة الاجتماعية التي تلقاها تلك الطوائف فى بلادها، وما تلقى ثقافتها وديانيتها من مطاردة ومهاجمة من تلقاء هذه الشعوب فتحرم الحرية الثقافية واللسانية وترغم على لغة مصطنعة دائرة، ويحاول الأقوياء أن يمحوا كل أثر من آثار حضارتها وثقافتها ويختلقوا عليها الأكاذيب والجنايات، ويمثلوا قصة الحمل والذئب كل يوم، فيعزل رجالها من الوظائف وتسد فى وجوههم أبواب المعاش والتجارة والحرف، وتقفل دكاكينهم ومحالهم التجارية وتصادر أملاكهم وأموالهم بعلل واهية مضحكة.

ثم إن هذه الأمم أفلست إفلاسًا شائنًا فى الدين والأخلاق، وقد أشربت فى قلوبها حب المال والمادة، وتسلبت عليها شيطان الأثرة والجشع حتى ضجت منها الحكومات وتعبت، فقد ارتفعت الأسعار ارتفاعًا فاحشًا، فلما التجأت الحكومة إلى التسعير اختفت السلع والأموال، وأصبح الناس لا يجدون كسوة ولا طعامًا ولا حاجة إلا بالسعر الذى يريده التاجر، فنفتت السوق السوداء، وشاعت الجنايات والخيانات والارتشاء والتهريب، وأصبحت الحكومة والتجار كفرسى رهان أو قرنى ميدان، كل يريد أن يغلب صاحبه وينتهز غرته، وأصبح الناس حبة بين حجرى الرحى لا يدرون كيف يفعلون.

وقد حاول رجال الإصلاح والديانة أن ينفخوا فى هذه الأمم حياة جديدة ويبنوا فيها روح الأخلاق والفضيلة والأمانة والاقتصاد فأخفقوا إخفاقًا تامًا، وعلموا أن خلق أمة بأسرها أهون من إصلاح هذه الأمم وتهذيبها وقد انقطعت مادتها وانقضى أجلها.

وهكذا أصبح العالم شرقًا وغربًا فى أزمة روحية وخلقية واجتماعية واقتصادية تطلب حلا سريعًا عاجلاً.

• الحل الوحيد للأزمة العالمية:

والحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية وانتقال دفة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التي أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة.

إن تحول القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعاً إلى روسيا لا يغنى غناء ولا يغير من الموقف شيئاً، فإن هذا التحول ليس إلا نقل المجذاف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس، فما دام المجذاف واحداً فلا فرق بين يمينه وشماله، وليست بريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدي رجل واحد تتداول دفة الحياة، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد إلى جهة واحدة.

إن التحول المؤثر الواضح هو تحول القيادة من أوربا - بالمعنى الواسع الذى يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية - التى تقودها المادية والجاهلية، إلى العالم الإسلامى الذى يقوده سيدنا محمد ﷺ برسالاته الخالدة ودينه الحكيم.

هذا هو التحول الذى يغير وجه التاريخ، ويحول مجرى الأمور وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التى ترقبه.

إن حقاً على العالم الإسلامى أن يبنى نفسه بهذا المنصب الخطير، ويطمح إليه وإن حقاً على كل بلد إسلامى وشعب إسلامى أن يشد حيازيمه لذلك، وإن حقاً على كل مسلم أن يجاهد فى سبيله ويبذل ما فى وسعه، فهذه هى المهمة الشريفة التى نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود ويوم ظهرت نواتها فى جزيرة العرب.

• العالم الإسلامى على أثر أوربا:

من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا فى الزمن الأخير فى كثير من نواحي الأرض حتى فى مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوربية وجنوداً متطوعين لها، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية

يرى فى الشعوب الأوربية التى تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون ونفخت فيها روحاً جديدة، وركزت أعلامها على الشرق والغرب، ناصراً للمسلمين، حامياً لدمار الإسلام المستضعف، حاملاً لراية العدل فى العالم قوامة بالقسط .

ورضى عامة المسلمين بأن يكونوا ساقية عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامى، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوربية سريان الماء فى عروق الشجر والكهرباء فى الأسلاك، فترى المادية الغربية فى البلاد الإسلامية فى كثير من مظاهرها وآثارها، ترى تهافتاً على الشهوات ونهماً للحياة، نهم من لا يؤمن بالآخرة، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة، ولا يدخر من طيباتها شيئاً، وترى تنافساً فى أسباب الجاه والفخار وتكالباً عليها فعل من يغلو فى تقويم هذه الحياة وأسبابها، وترى إثارة للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق، شأن من لا يؤمن بنبى ولا بكتاب، ولا يرجو معاداً، ولا يخشى حساباً وترى حباً للحياة وكراهة للموت، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته ومنتهى أمله ومبلغ علمه، وترى افتتاناً بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم المادية التى ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية وترى خضوعاً للإنسان، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبداء الأصنام.

• المسلمون على علاقاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل؛

ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض، التى تعد خصيم الأمم الغربية وغريماتها ومنافستها فى قيادة الأمم، ومزاحمتها فى وضع العالم، والتى يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة، وتحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من القوة والتى يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تتحول أمة جاهلية.

هذه هي الأمة التي يمكن أن تعود في حين من الأحيان خطراً على النظام الجاهلي الذي بسطته أوربا في الشرق والغرب وأن تحبط مساعيها .

وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم «محمد إقبال» في قصيدته البديعة : (برلمان إبليس) على لسان إبليس ، ذكر فيها أن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدثت بهم وهددت نظامهم وجللوا خطبها وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ، إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك . إن الملوكية لا تنحصر في وجود شخص تتركز فيه الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالاً على غيره مستشرقاً إلى متاع غيره ، سواء في ذلك الشعب والفرد . أما رأيت نظام الغرب الجمهوري وجه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان ؟ .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي يدعى كارل ماركس ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعدته ، وأثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مباني الإمارة والسيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة ، إن سحرة أوربا ، وإن كانوا يريدونك المخلصين ولكني لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامري اليهودي الذي هو نسخة من مزدك (الزعيم الفارسي الاشتراكي) قد كاد يأتي على العالم بقواعده فاستنسر البغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون

الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحا) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية وما هي قد استفحلت وتفاقم شرها، وما هي الأرض ترجف بهول فتنة الغد، يا سيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينقض عليك، إذ ينقلب نظام العالم ظهراً لبطن.

فتكلم رئيس المجلس (إبليس) وقال: إنى أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء، وسيرى العالم عجباً إذا حرشت بين الأمم الأوربية فتهاارشت تهاارش الكلاب، واقترس بعضها بعضاً فعل الذئاب، وإذا همست فى آذان القادة السياسيين وأساقف الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم.

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطق المزدكى (الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء.

إن كنت خائفاً فإنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل، ليست الاشتراكية.

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً، وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم، أنا خبير أن ليل الشرق داج مكفهر، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ويضىء لها العالم، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزته ستقضى مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة (محمد ﷺ) إنى أحذركم وأنذركم من دين (محمد) حامى الذمار، حارس الذمم والأعراض، دين الكرامة والشرف، دين الأمانة والعفاف، دين المروءة والبطولة، دين الكفاح والجهاد يلغى كل نوع من أنواع الرق، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان، لا يفرق بين مالك ومملوك، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً، ويجعل

أصحاب الثورة والملاك مستخلفين فى أموالهم^(١) أمناء لله وكلاء على المال، وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلاطين.

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس، وليهينكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه، فخير لنا أن يبقى مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات، اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلاسـم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطىء سحره، اشغلوه يا إخوانى عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان فى العالم. خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه، واستخفافاً لخطره، يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التى يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعهـه^(٢).

• رسالة العالم الإسلامى:

لا ينهض العالم الإسلامى إلا برسالة التى وكلها إليه مؤسسـه ﷺ والإيمان بها والاستماتة فى سبيلها، وهى رسالة قوية واضحة مشرقة، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمـن للبشرية منها.

وهى الرسالة نفسها التى حملها المسلمون فى فتوحهم الأولى، والتى لخصها أحد رسلهم فى مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة حرف، فهى منطبقة تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحى، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية.

(١) إشارة إلى جزء من الآية: ٧ الحديد.

(٢) روائع إقبال للمؤلف ص: ١٢١.

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم - من أوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة - ولا تزال عبادة الله وحده مغلوقة غريبة، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق، ولا يزال إله الهوى يعبد، ولا يزال الأحرار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله تقرب لها القرايين وينصب لها الجبين.

وكذلك العالم اليوم رغم اتساعه وتوفر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض أضيق بأهله منه بالأمس، قد ضيقته المادية التي لا تنظر إلا إلى قدمها ولا تؤمن إلا بفائدة صاحبها، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة الذات، وقد خنقته الأثرة التي لا تسمح لاثنين بالعيش في إقليم واسع، والوطنية الضيقة التي تنظر إلى كل أجنبي شزراً وتجد له كل فضل وتحرمه كل حق.

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت، يضيقون هذه الحياة لمن شاؤوا ويوسعونها لمن شاؤوا ويسيطون الرزق - زعموا - لمن شاؤوا ويقدرونه لمن شاؤوا، فأصبحت المدن الواسعة أضيق من جحر ضب، وأصبح الناس في بلادهم في شبه حَجَرٍ كَحَجَرِ السفية واليتيم، وضائق على الناس الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم، وأصبح الناس في أغلال وأصفاد من المدينة والمملكة مهددين في كل وقت بمجاعات مصطنعة وحقيقية، وحروب خارجية وداخلية، وإضرابات واضطرابات أسبوعية ويومية.

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام! ولا تزال في هذا العصر المتنور الواعي المثقف أديان تعبت بعقول الناس وتسخرهم كالحمير والبقر، وتزين لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت في عيد الأضحى، أو شجرة مقدسة عضدت في قرية من القرى.

وهناك أديان بغير اسم الأديان لا تقل في نفوذها وسلطانها، ولا تقل في جورها وعدوانها وعبثها بعقول أتباعها وفي عجائبها عن الأديان القديمة، وهى النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التى يؤمن بها الناس كدين ورسالة، كالجنسية والوطنية، والديموقراطية والاشتراكية، والدكتاتورية والشيوعية، وهى أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها، وأضيق عطفاً من الأديان الجاهلية، والاضطهاد السياسى اليوم أفظع من الاضطهاد الدينى فى القرون المظلمة، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادئ السياسية، أو انتصر فريق على فريق فى الانتخاب، سد فى وجه منافسه الأبواب وعذبه أشد العذاب، وما حرب أسبانيا الأهلية التى دامت مدة طويلة، وسفكت فيها دماء غزيرة، وما حرب الصين التى قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين، وحرب «كوريا» التى قامت بين الجنوبيين والشماليين، إلا نتيجة اختلاف فى العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية.

فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر، وجائزته الخروج من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها فى هذا العصر أكثر من كل عصر، فقد افتضحت الجاهلية وبدأت سوائتها للناس واشتد تدمير الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ولو نهض العالم الإسلامى، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة، ودان بها كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال.

• الاستعداد الروحى:

ولكن العالم الإسلامى لا يؤدى رسالته بالمظاهر المدنية التى جادت بها أوروبا على العالم، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التى ليست من نهضة

الأمم في شيء إنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد أوربا كل يوم إفلاسًا فيها، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنة، والزهد في حطام الدنيا وتحمل الأذى في ذات الله صابرًا محتسبًا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. فقرة المؤمن وسر انتصاره في إيمانه بالآخرة ورجائه لثواب الله، فإذا كان العالم الإسلامي لا يرمى إلا إلى ما تراه أوربا من العرض القريب، ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوربا من حطام الدنيا، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوربا من المحسوسات والماديات، كانت أوربا بقوتها المادية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامي الذي يتخلف عنها في القوة المادية تخلفًا شائنًا ولا يفوقها في القوة المعنوية.

لقد أتى على العالم الإسلامي حين من الدهر وهو مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها، ولا يحتفظ بالبقية منها، ولا يغذيها، حتى نضب معينها في قلبه، فلما خاض العالم الإسلامي في المعارك التي تحتاج إلى الإيمان، والصبر والثبات، وتحمل الشدائد والنكبات، وزلزل بعض الزلزال، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها، وبحث في جعبته فلم يجد شيئًا يسد مكانها ويغني غناها.

وخاض العالم الإسلامي في معارك حاسمة، وهو يرى أن المسلمين تقوم قيامتهم، وسوف يهرعون للدفاع عن الإسلام وحماية بلادهم المقدسة، ويغضبون لله ورسوله وحرماته، وإن الأقطار الإسلامية تشتعل نارًا وتتوقد حمية وحماسة، فإذا الحادث لم يؤثر في العالم الإسلامي التأثير المنتظر، وإذا النظر ضئيل والسخط خافت، وإذا العالم الإسلامي كعادته - في غدواته وروحاته - منهمك في لذاته وشهواته، كأن لم يحدث كبير شيء، فعرف أن

الحمية الدينية قد ضعفت في العالم الإسلامي، وأن شعلة الجهاد قد انطفأت أو كادت وهناك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي وخذلانه وهوانه على أنفسهم.

فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامي، وجمعياته وهيئاته الدينية وللدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين وإشعال العاطفة الدينية، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى، لا تدخر في ذلك وسعاً، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة، وطرق النشر والتعليم كتجوال الدعاة في القرى والمدن، وتنظيم الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، ومدارس كتب السيرة، وأخبار الصحابة، وكتب المغازي والفتوح الإسلامية، وأخبار أبطال الإسلام وشهداء، ومذاكرة أبواب الجهاد، وفضائل الشهداء، وتستخدم لذلك الراديو والصحافة وكتب الأدب، وجميع القوى والوسائل العصرية.

والقرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلنا من أمة مستسلمة، متخاذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيره وحنقا على الجاهلية وسخطا على النظم الجائرة.

إن علة علل العالم الإسلامي اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة، فلا يقلقه فساد، ولا يزعجه انحراف، ولا يهيجه منكر، ولا يهمله غير مسائل الطعام واللباس، ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية - إن وجدا إلى القلب سبيلا - يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين والشك، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة، وبين راحة الجسم ونعيم القلب، وبين حياة البطالة وموت الشهادة، صراع أحدثه كل نبي في وقته، ولا يصلح العالم إلا به، حيث يقوم في كل ناحية بلد إسلامي ﴿فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٣) وربطنا على

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٣﴾ [الكهف: ١٣، ١٤].

هنالك تتجدد ذكرى بلال، وعمار، وخباب، وحبيب، وخبيب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن مظعون، وأنس بن النضر، هنالك تفوح رائحة الجنة، وتهب نفحات القرن الأول، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم فى شىء.

• الاستعداد الصناعى والحربى:

ولكن مهمة العالم الإسلامى لا تنتهى هنا، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالمقدرة الفائقة، والاستعداد التام فى العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب، ويستغنى عن الغرب فى كل مرفق من مرافق الحياة، وفى كل حاجة من الحاجات، يقوت ويكسو نفسه، ويصنع سلاحه، وينظم شؤون حياته، ويستخرج كنوز أرضه ويتنفع بها ويدير حكوماته برجاله وماله، ويمخر بحار المحيط به بسفنه وأساطيله، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته وأسلحة بلاده، وتزيد صادراته على وارداته، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب، ولا يضطر إلى أن يلجأ إلى راية من راياته وينضم إلى معسكر من معسكراته.

أما ما دام العالم الإسلامى خاضعاً للغرب فى العلم والسياسة والصناعة والتجارة، يمتص الغرب دمه، ويحفر أرضه فيستخرج منها ماء الحياة، وتغزو بضائعه أسواق العالم الإسلامى وبيوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شىء، وما دام العالم الإسلامى يستدين من الغرب الأموال، ويستعير منه الرجال، ليديروا حكومته، ويشغلو الوظائف الخطيرة ويدربوا جيوشه ويستورد منه البضائع ويجلب منه الصنائع، وينظر إليه كأستاذ ومرب، وسيد ورب، لا يبرم أمراً إلا بإذنه ولا يصدر إلا عن رأيه، فلا يستطيع أبداً أن يواجه الغرب فضلاً عن أن يناهضه ويغالبه.

هذه هى الناحية العلمية والصناعية التى أدخل بها العالم الإسلامى فى الماضى فعوقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة، وابتلى العالم الإسلامى

بالسيادة الأوربية الجائرة التى ساقط العالم إلى النار والدمار والتناحر والانتحار، فإن فرط العالم الإسلامى مرة ثانية فى الاستعداد العلمى والصناعى والاستقلال فى شئون حياته كتب الشقاء للعالم وطالت محنة الإنسانية وبلاؤها .

● تبوء الزعامة فى العلم والتحقيق؛

وقد تنازل العالم الإسلامى - بما فيه العالم العربى - منذ زمن طويل عن مكانته فى القيادة العلمية والتوجيه، والاستقلال الفكرى، وأصبح عيالاً على الغرب متطفلاً على مائدته حتى فى اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها، وحتى فى علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين فى البحث والتحقيق، والدراسة والتأليف، وهم المنتهى والمرجع والحجة فى الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية، وهم الأسوة فى النقض والإبرام، وعدد كبير منهم قسوس وإرساليون ويهود ومسيحيون متعصبون، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته ﷺ العداوة والبغضاء، وللحضارة الإسلامية السخرية والاستهزاء، ويخونون فى النصوص والنقول، ويحرفون الكلم عن مواضعه ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ولم يبرع فيها وهم يخطئون فى فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة، وقد تغلغلت أفكارهم ودعاياتهم فى الأوساط العلمية الحديثة فى العالم الإسلامى وتجلت بصورة واضحة فى الدعوة إلى فصل الدين عن السياسة، وأن الدين قضية شخصية لا شأن له بالمجتمع، وأن الدين عقيدة وعبادة وخلق لا شأن له بالسياسة والحكم، وفى الدعوة إلى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامى على أساس الحضارة الغربية وفلسفتها . . إلى غير ذلك من الأفكار التى يدعو إليها تلاميذ المستشرقين والخاضعون لهم فى الشرق الإسلامى .

وقد عجز كتاب الشرق المسلمون والمفكرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربية وجهًا لوجه ونقد أسسها وقيمها نقداً حراً جريئاً، فيه الابتكار، وفيه الاستقلال، وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير، والإغراق

فى التقليد منزلة رأى فيها أن الحضارة الغربية هى آخر ما وصل إليه العقل البشرى وأنه لا منزلة وراءها، ومنهم من دعا إلى تطبيق الحضارة الغربية برمتها، وعلى علاتها فى الشرق، ودعا بعض الأقطار الإسلامية العربية إلى اعتبار نفسها جزءاً لا يتجزأ من القارة الأوربية وإذابتها فيها واختيار الثقافة اليونانية التى هى أصل الثقافات الأوربية.

وندر فى هذه الطبقة وجود «عملاق» يكفر بالحضارة الغربية وفلسفة حياتها وقيمها ويشرح الحضارة الغربية وأسسها التى قامت عليها فى ثقة واعتداد وعلم وبصيرة. ونستثنى من هذه الكلية بعض الأفراد الأفذاذ كالعلامة «محمد إقبال» من المسلمين القدامى، والاساذ «محمد أسد» من الأوربيين المهدين بالإسلام.

ولابد - إذا أراد العالم الإسلامى أن يقوم على قدميه ويفكر بعقله - أن يقاوم هذا الخضوع ويكون فيه علماء عماليق وكتاب جهابذة يتناولون الحضارة الغربية بالنقد والتشريح، وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجرح والتعديل. ويتبحرون فى العلوم الإسلامية ويتعمقون فيها حتى يفيد منهم كبار المستشرقين فى أوربا وأمريكا ويصححون بهم آراءهم وأخطاءهم، ويتوجه رواد العلم والتحقيق والدراسات العالية إلى عواصم العالم العربى وحواضر العالم الإسلامى، كما اعتادوا أن يتوجهوا إلى عواصم أوربا وأمريكا، فهذه المدن الإسلامية أولى بأن تكون مركزاً للثقافة الإسلامية والعلوم الدينية وآداب اللغة العربية من العواصم الأوربية وجامعات أوربا، ومن سقوط الهمة والقناعة بالدون أن تتخلى هذه العواصم العريقة فى العلم والدين عن زعامتها العلمية ومكانتها الرئيسية.

• التنظيم العلمى الجديد:

ولابد للعالم الإسلامى من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه ورسالته. وقد ساد العالم الإسلامى على العالم القديم بزعامته العلمية، فتسرب بذلك فى عقلية العالم وثقافته، وتغلغل فى أحشاء الأدب والفلسفة،

وظل العالم المتمدن قرونًا يفكر بعقله ويكتب بقلمه ويؤلف بلغته، فكان المؤلفون في إيران وتركستان وأفغانستان والهند لا يؤلفون كتابًا له شأن إلا باللغة العربية، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالي في: «كيمياء السعادة».

وإن كانت هذه الحركة العلمية التي ظهرت في صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامى النقى والروح الإسلامى، وإن كانت فيها مواضع ضعف من الناحية العلمية والدينية، ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها، وازمحت أمامها النظم العلمية القديمة.

وجاءت نهضة أوروبا فنسخت هذا النظام القديم باختباراتها ونقدها العلمى، ووضعت منهاجًا للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعقليتها ونفسياتها المادية، فلا يخرج منه الطالب إلا وهو متشبع بهذه الروح، وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمى، وخضع له العالم الإسلامى بطبيعة الحال - إذ كان مصابًا بالانحطاط العلمى والشلل الفكرى من زمان، وكان لا يجد المدد والغوث إلا فى أوروبا - فقبل هذا النظام التعليمى على علاته، فهو النظام السائد اليوم فى أنحاء العالم الإسلامى.

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية، صراعًا بين النفسية الإسلامية - إن كانت لا تزال فى الشباب لم تقتلها البيئة - وبين النفسية الجديدة، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية ووجهة الأخلاقية الأوروبية، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها، وكانت نتيجة هذا النظام حديث الشك والنفاق فى الطبقة المثقفة، وقلة الصبر ونهامة الحياة وترجيح العاجل على الآجل، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوروبية.

فإذا أراد العالم الإسلامى أن يستأنف حياته، ويتحرر من رق غيره وإذا كان يطمح إلى القيادة، فلا بد إذن من الاستقلال التعليمى، بل لابد من الزعامة العلمية وما هى بالأمر الهين، إنها تحتاج إلى تفكير عميق،

وحركة التدوين والتأليف الواسعة، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه، إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة، إنما هي من شأن الحكومات الإسلامية، فتنظم لذلك جمعيات، وتختار لها أساتذة بارعين في كل فن فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام وبروح الإسلام وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم ويستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم، وينظمون مالية البلاد الإسلامية، ويديرون حكوماتها على تعاليم الإسلام بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد، وتنظيم الشئون المالية على النظم الأوربية، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوربا عن حلها.

وبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدده. فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجد، فتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد، واستعداد أي استعداد:

كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

الفصل الثانى

زعامة العالم العربى

• أهمية العالم العربى:

إن العالم العربى له أهمية كبيرة فى خريطة العالم السياسية، وذلك لأنه وطن أمم لعبت أكبر دور فى التاريخ الإنسانى، ولأنه يحتضن منابع الثروة والقوة الكبرى: الذهب الأسود الذى هو دم الجسم الصناعى والحربى اليوم، ولأنه صلة بين أوربا وأمريكا، وبين الشرق الأقصى، ولأنه قلب العالم الإسلامى النابض يتجه إليه روحياً ودينياً ويدين بحبه وولائه، ولأنه عسى - لا قدر الله - أن يكون ميدان الحرب الثالثة، ولأن فيه الأيدى العاملة، والعقول المفكرة، والأجسام المقاتلة، والأسواق التجارية، والأراضى الزراعية، ولأن فيها مصر ذات النيل السعيد بتاجها ومحصولها وخصبها وثروتها ورقبها ومدنيتها، وفيه سورية وفلسطين وجاراتها، باعتدال مناخها وجمال إقليمها وأهميتها الاستراتيجية، وبلاد الرافدين بشكيمة أهلها ومنابع البترول فيها، والجزيرة العربية بمركزها الروحى وسلطانها الدينى، واجتماع الحج السنوى الذى لا مثيل له فى العالم وآبار البترول الغزيرة. كل ذلك قد جعل العالم العربى محط أنظار الغربيين، وملتقى مطامعهم وميدان تنافس لقيادتهم، وكان رد فعله أن نشأ فى العالم العربى شعور عميق بالقومية العربية، وكثر التغنى «بالوطن العربى» و «المجد العربى».

• محمد رسول الله روح العالم العربى:

ولكن المسلم ينظر إلى العالم العربى بغير العين التى ينظر بها الأوربى، وبغير العين التى ينظر بها الوطنى العربى، إنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة العالمية، ويعتقد أن سيدنا محمداً العربى هو روح العالم العربى وأساسه وعنوان مجده، وأن العالم

العربى - بما فيه من موارد الثروة والقوة وبما فيه من خيرات وحسنات - جسم بلا روح، وخط بلا وضوح إذا انفصل - لا سمح الله بذلك - عن سيدنا رسول الله ﷺ وقطع صلته عن تعاليمه ودينه، وأن سيدنا رسول الله ﷺ هو الذى أبرز العالم العربى للوجود، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة، وقبائل متناحرة، وشعوباً مستعبدة، ومواهب ضائعة، وبلافاً تتسكع فى الجهل والضلالات، فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية والفارسية ولا يخطر ذلك منهم على بال، ولا يصدقون بذلك إذا قيل لهم فى حال من الأحوال، وكانت سورية التى تكون جزءاً مهماً من العالم العربى مستعمرة رومية تعاني الملكية المطلقة والحكم الجائر المستبد، لا تعرف معنى الحرية والعدل، وكان العراق مطية لشهوات الدولة الكيانية مثقلة بالضرائب المجحفة والإتاوات الفادحة، وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوباً ركوباً، يجزون صوفها ويظلمونها فى علفها، ثم إنها تعاني الاضطهاد الدينى مع الاستبداد السياسى، فما لبث هذا العالم المفكك المنحل، المظلوم المضطهد، أن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ، أدرك رسول الله من هذا العالم وهو ضائع هالك وأخذ بيده وهو ساقط متهالك، فأحياء بإذن الله وجعل له نوراً يمشى به فى الناس، وعلمه الكتاب والحكمة وزكاة، فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام، ورسول الأمن والسلام، ورائد العلم والحكمة، ومشعل الثقافة والحضارة. كان غوثاً للأمم، غيثاً للعالم، هنالك كانت الشام وكان العراق، وكانت مصر، وكان العالم العربى الذى نتحدث عنه، فلولا محمد ﷺ، ولولا رسالته، ولولا ملته، لما كانت سورية، ولا كان العراق، ولا كانت مصر، ولا كان العالم العربى، بل ولا كانت الدنيا كما هى الآن حضارة وعقلاً، وديانة وخلقاً، فمن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربى وحكوماته، وولى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولى، أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودهساتيره أو أسس حياته على العنصرية أو العروبة التى لا شأن لها بالإسلام، ولم يرض برسول الله ﷺ قائداً ورائداً وإماماً وقُدوة، فليرد على

محمد بن عبد الله ﷺ نعمته ويرجع إلى جاهليته الأولى، حيث الحكم الرومانى والإيراني، وحيث الاستعباد والاستبداد، وحيث الظلم والاضطهاد، وحيث الجهل والضلالة، وحيث الغفلة والبطالة، وحيث العزلة عن العالم، والخمول والجمود، فإن هذا التاريخ المجيد، وهذه الحضارة الزاهية، وهذا الأدب الزاخر، وهذه الدول العربية، ليست إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام.

• الإيمان هو قوة العالم العربى:

فالإسلام هو قومية العالم العربى، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربى وإمامه وقائده، والإيمان هو قوة العالم العربى التى حارب بها العالم البشرى كله فانتصر عليه، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس، به يقهر أعداءه، ويحفظ كيانه ويؤدى رسالته، إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الصهيونية أو الشيوعية أو عدواً آخر بالمال الذى ترضخه بريطانيا أو تصدق به أمريكا، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود، إنما يحارب عدوه بالإيمان والقوة المعنوية، وبالروح التى حارب بها الدولة الرومية والإمبراطورية الفارسية فى ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعاً. إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ويكره الموت، وبجسم يميل إلى الدعة والراحة، وعقل يخامره الشك وتتنازع فيه الأفكار والأهواء، أو بيد مضطربة وقلب متشكك ضعيف الإيمان وقوة متخاذلة فى الميدان، فالهم لأمرء العرب وزعمائهم وقادة الجامعة العربية أن يغرسوا الإيمان فى الشعوب العربية، وجماهير الأمة وأولياء الأمور، والجيش العربى والفلاحين والتجار، وفى كل طبقة من طبقات الجمهور، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد فى سبيل الله، والتوق إلى الجنة، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء وزخارف الدنيا، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس ومألوفات الحياة، وكيف يتحملون الشدائد فى سبيل الله، وكيف يستقبلون الموت بثغر باسم، وكيف يتهافون عليه تهافت الفراش على النور.

• تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية؛

بعث رسول الله ﷺ وقد بلغت شقاوة الإنسانية غاية ما وراءها غاية، وكانت قضية الإنسانية أعظم من أن يقوم لها أفراد متنعمون لا يتعرضون لخطر ولا لخسارة ولا محنة، لهم النعيم الحاضر والغد المضمون، إنما تحتاج هذه القضية إلى أناس يضحون بإمكانياتهم ومستقبلهم في سبيل خدمة الإنسانية وأداء رسالتهم المقدسة، ويعرضون نفوسهم وأموالهم ومعائشهم وحظوظهم من الدنيا للخطر والضياع، وتجاراتهم وحرفهم ومكاسبهم للتلف والكساد، ويخيبون آمال آبائهم وأصدقائهم فيهم، حتى يقولوا للواحد منهم كما قال قوم صالح: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢].

إنه لا بقاء للإنسانية ولا قيام لدعوة كريمة بغير هؤلاء المجاهدين، وبشقاء هذه الحفنة من البشر في الدنيا - كما يعتقد كثير من معاصريهم - تنعم الإنسانية وتسعد الأمم، ويتحول تيار العالم من الشر إلى الخير، ومن السعادة أن يشقى أفراد وتنعم أمم وتضيق أموال وتكسد تجارات لبعض الأفراد، وتنمو نفوس وأرواح لا يحصيها إلا الله من عذاب الله ومن نار جهنم.

علم الله عند بعثه الرسول ﷺ أن الروم والفرس والأمم المتحضرة المتصرفة بزمام العالم المتمدن لا تستطيع بحكم حياتها المصطنعة المترفة أن تتعرض للخطر وتحمل المتاعب والمصاعب في سبيل الدعوة والجهد وخدمة الإنسانية البائسة، ولا تستطيع أن تضحي بشيء من دقائق مدنياتها في الملبس والمأكّل وأن تنزل عن حظوظها ولذاتها وزخارفها فضلاً عن حاجاتها، وأنه لا يوجد فيها أفراد يقوون على قهر شهواتهم، والحد من طموحهم، والزهد في فضول الحياة ومطامع الدنيا، والقناعة بالكفاف، فاختر لرسالة الإسلام وصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام أمة تضطلع بأعباء الدعوة والجهد وتقوى على التضحية والإيثار، تلك هي الأمة العربية القوية السليمة التي لم

تبتلعها المدنية ولم ينخرها البذخ والترف وأولئك أصحاب محمد ﷺ أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً.

قام الرسول بهذه الدعوة العظيمة فأدى حقوقها: من الجهاد في سبيلها وإيثارها على كل ما يقف في وجهها، والعزوف عن الشهوات ومطامع الدنيا فكان في ذلك أسوة وإماماً للعالم كله، وفد قريش عرض عليه كل ما يغري الشباب ويرضى الطامحين من رئاسة وشرف ومال عظيم وزواج كريم، فرفض كل ذلك في صرامة وصراحة، وكلمه عمه وحاول أن يحد من نشاطه في سبيل الدعوة فقال: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» ثم كان أسوة للناس في عصره وبعد عصره بقيامه بأكبر قسط من الجهاد والإيثار، والزهد وشظف العيش وأقل قسط من العيش وأسباب الحياة، فقد أوصد على نفسه الأبواب وسد في وجهه الطرق وتعدى ذلك إلى أسرته وأهل بيته والمتصلين به، فكان أكثر الناس اتصالاً به وأقربهم إليه أقلهم حظاً في الحياة، وأعظمهم نصيباً في الجهاد والإيثار، فإذا أراد أن يحرم شيئاً بدأ ذلك بعشيرته وبيته، وإذا سن حقاً أو فتح باباً لمنفعة قدم الآخرين وربما حرمه على عشيرته الأقربين. أراد أن يحرم الربا فبدأ بربا عمه عباس بن عبد المطلب فوضعه كله وأراد أن يهدر دماء الجاهلية فبدأ بدم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فأبطله، وسن الزكاة وهي منفعة مالية عظيمة مستمرة إلى يوم القيامة فحرمها على عشيرته بنى هاشم إلى آخر الأبد، وكلمه على ابن أبي طالب يوم الفتح أن يجمع لبنى هاشم الحجابة مع السقاية فأبى وطلب عثمان بن طلحة وناولته مفتاح الكعبة وقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، وقال خذوها خالدة تالدة فيكم لا ينزعها منكم إلا ظالم، وحمل أزواجه على الزهد والقناعة وشظف العيش وخيرهن بين عشرته مع الفقر وضيق العيش، ومفارقتها مع السعة والرخاء وتلا عليهن قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة

فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴿ فاخترن الله والرسول، وتأتيه فاطمة تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى وبلغها أنه جاءه رقيق فيوصيها بالتسبيح والتحميد والتكبير ويقول لها إنه خير لها من خادم. . وهكذا كان شأنه مع أهل بيته والمتصلين به فالأقرب ثم الأقرب.

وآمن به رجال من قريش في مكة فاضطربت حياتهم الاقتصادية اضطراباً عظيماً، وكسدت تجارتهم وحرم بعضهم رأس ماله الذي جمعه في حياته، وحرم بعضهم أسباب الترف والرخاء وأناقة اللباس التي كان فيها مضرب المثل، وكسدت تجارة بعضهم لاشتغاله بالدعوة وانصراف الزبائن عنه وحرم بعضهم نصيبه في ثروة أبيه.

ثم لما هاجر الرسول إلى المدينة وتبعه الأنصار تأثرت بذلك بساتينهم ومزارعهم فلما أرادوا أن يقبلوا عليها بعض الوقت ويصلحوها لم يسمح لهم بذلك وأنذرهم الله به فقال: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾.

وهكذا كان شأن العرب والذين احتضنوا هذه الدعوة منهم فقد كان نصيبهم من متاعب الجهاد وخسائر النفوس والأموال أعظم من نصيب أي أمة في العالم وقد خاطبهم الله بقوله: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ وقال: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ لأن سعادة البشرية إنما كانت بتوقف على ما يقدمونه من تضحية وإيثار ما يتحملون من خسائر ونكبات فقال: ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ وقال: ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ﴾^(١) وكان إحجام العرب عن هذه

(١) آية: ٢ العنكبوت.

المكرمة وترددتهم فى ذلك امتداداً لشقاء الإنسانية واستمراراً للأوضاع السيئة فى العالم فقال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^(١).

وقد وقف العالم فى القرن السادس المسيحى على مفترق الطرق أما أن يتقدم العرب ويعرضوا نفوسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يعز عليهم للخطر ويزهدوا فى مطامع الدنيا ويضحوا فى سبيل المصلحة الاجتماعية بأنانيتهم فيسعد العالم وتستقيم البشرية وتقوم سوق الجنة وتروج بضاعة الإيمان، وإما أن يؤثروا شهواتهم ومطامعهم وحظوظهم الفردية على سعادة البشرية وصلاح العالم فيبقى العالم فى حمأ الضلالة والشقاء إلى ما شاء الله، وقد أراد الله بالإنسانية خيراً وتشجع العرب - بما نفخ فيهم محمد ﷺ من روح الإيمان والإيثار وحب إليهم الدار الآخرة وثوابها - فقدموا أنفسهم فداء للإنسانية كلها وزهدوا فى مطامع الدنيا طمعاً فى ثواب الله وسعادة النوع الإنسانى وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، وضحوا بكل ما يحرص عليه الناس من مطامع وشهوات وآمال وأحلام وأخلصوا لله العمل والجهد فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين.

وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الرسول ووقف العالم على مفترق الطرق مرة ثانية إما أن يتقدم العرب - وهم أمة الرسول وعشيرته - إلى الميدان ويغامروا بنفوسهم وإمكانياتهم ومطامعهم ويخاطروا فيما هم فيه من رخاء وثراء ودنيا واسعة وفرص متاحة للعيش وأسباب ميسورة فينهض العالم من عثاره وتبذل الأرض غير الأرض، وإما أن يستمروا فيما هم فيه من طمع وطموح وتنافس فى الوظائف والمرتبات فى كثرة الدخل والإيراد وزيادة غلة الأملاك وريح التجارات والحصول على أسباب الترف والتنعم فيبقى العالم فى هذا المستنقع الذى يتردى فيه منذ قرون.

إن العالم لا يسعد وخيرة الشباب فى العواصم العربية عاكفون على شهواتهم تدور حياتهم حول المادة والمعدة لا يفكرون فى غيرهما ولا يترفعون

(١) آية: ٧٣ الأنفال.

عن الجهاد فى سبيلهما ولقد كان شباب بعض الأمم الجاهلية الذين ضحوا بمستقبلهم فى سبيل المبادئ التى اعتنقوها أكبر منهم نفساً، وأوسع منهم فكراً، بل كان الشاعر الجاهلى «امرؤ القيس» أعلى منهم همة، إذ قال:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثـل وقد يدرك المجد المؤثـل أمثالى

إن العالم لا يمكن أن يصل إلى السعادة إلا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها الشباب المسلم. إن الأرض لفى حاجة إلى سماد، وسماد أرض البشرية الذى تصلح به وتنبت زرع الإسلام الكريم هى الشهوات والمطامع الفردية التى يضحى بها الشباب العربى فى سبيل علو الإسلام وبسط الأمن والسلام على العالم وانتقال الناس من الطريق المؤدية إلى جهنم إلى الطريق المؤدية إلى الجنة.

إنه لثمن قليل جداً لسلعة غالية جداً.

• العناية بالفروسية والحياة العسكرية؛

من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها العسكرية، ورزئت فى فروسياتها التى كانت معروفة بها فى العالم، فكانت رزية كبيرة وخسارة فادحة، وكانت سبباً من أسباب ضعفها وعجزها فى ميدان الجهاد، فقد اضمحلت الروح العسكرية، وضعفت الأجسام ونشأ الناس على التنعم، وقد حلت السيارات محل الجياد حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية، وهجر الناس المصارعة والمناضلة وسباق الخيل وأنواع الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية، واستبدلوا بها ألعاباً لا تفيدهم شيئاً، فالمهم لرجال التعليم والتربية قادة الشعوب العربية أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية، وعلى البساطة فى المعيشة وخشونة العيش والجلادة وتحمل المشاق والمتاعب والصبر على المكروه!.

وقد كتب الربى الكبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى بعض عماله العرب وهم فى بلاد العجم: «إياكم والتنعيم وزى العجم، وعليكم بالشمس

فإنها حمام العرب، وتمعدوا^(١)، واخشوشنوا^(٢)، واخشوشبوا^(٣)، واخلولقوا^(٤)، وأعطوا الركب أسنتها وانزوا نزوا، وارموا الأغراض^(٥).

وقد قال النبي ﷺ: «ارموا بني إسماعيل فإن آباكم كان رامياً»^(٦)، وقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»^(٧).

ومن واجب رجال التربية وولاة الأمر أن يحاربوا بكل قوتهم ما يضعف روح الرجولة والجلادة ويبعث على التخث والتعجز، من عادات وأدب وصحافة وتعليم، ويأخذوا على يد الصحافة الماجنة والأدب الخليع الملحد، الذي ينشر في الشباب النفاق والدعارة والفسوق، وعبادة اللذة والشهوات، ولا يسمحوا لهؤلاء التجار الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا أن يدخلوا في معسكر محمد ﷺ الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ويفسدوا على الناشئة الإسلامية قلبها وأخلاقها، ويزينوا لها الفسوق والعصيان وحب الفحشاء بثمان بخرس دراهم معدودة، وقد شهد التاريخ بأن كل أمة أصيب رجالها في رجولتهم وغيبتهم، ونساؤها في أنوثتهن وأمومتهم، طغى فيهن التبرج، ومزاحمة الرجل في كل شيء، والزهد في الحياة المنزلية، وحب إليهن العقم، أفل نجمها وكسفت شمسها، فأصبحت أثراً بعد عين.

هذه كانت عاقبة اليونان والرومان والفرس، وإن أوروبا لفي طريقها إلى هذه العاقبة، فليحذر العالم العربي من هذا المصير الهائل.

(١) تمعدد الغلام: شب وغلظ، وقيل معناه: تشبهوا بعيش معد بن عدنان، وكان ذا غلظ وتقشف.

(٢) اخشوشن: تخشن في المطعم والملبس.

(٣) اخشوشب: صار صلباً كالخشب في أحواله وصبره على الجهد.

(٤) تبذلوا في الملابس.

(٥) رواه البغوي عن أبي عثمان النهدي.

(٦) رواه البخاري.

(٧) رواه مسلم.

• محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغنى والصعول:

وقد اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدعة والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير، والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة.

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير، جوع وعري وفقر فاضح يرى الناظر مناظره الشائنة في عواصم البلاد العربية فتدمع العين ويحزن القلب وينتكس الرأس حياءً وخجلاً، فيينا هنالك رجل عنده فضول الثياب وزائد الطعام والشراب لا يعرف كيف يستهلكه، إذ يبدو لا يجد قوت يومه وكسوة جسمه، وبينما أمراء العرب وأغنيائهم على سيارات تبارى الريح وتثير النقع، إذا بفوج من النساء والأطفال عليهم ثياب سوداء قد أصبحت خيوطاً من طول اللبس يعدو لأجل فلس أو قرص، فما دامت المدن العربية تجمع بين القصور الشامخة والسيارات الفاخرة، وبين الأكواخ الحقيبة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة، وما دامت التخمّة والجوع يزخران في مدينة واحدة، فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية والثورات والاضطراب والقلق لا تقفها دعاية ولا قوة، وإذا لم يسد النظام الإسلامى فى بلاده بجماله واعتداله يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره عقاباً من الله كرد فعل عنيف.

• التخلص من أنواع الأثرة:

اقد أتى على العالم العربى عهد فى التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد - وهو شخص الخليفة أو الملك - أو حول حفنة من الرجال - هم الوزراء وأبناء الملك - وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد، ويتحكم فى أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم، ولم تكن الأمة التى كان يحكم عليها إلا ظلاً لشخصه، ولم تكن حياتها إلا امتداداً لحياته.

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها، فإذا استعرض أحد تاريخ هذا العهد أو أدب تلك الفترة

من الزمان، وجد هذه الشخصية تسيطر على الأمة أو المجتمع، كما تسيطر شجرة باسقة على الحشائش والشجيرات التي تنبت في ظلها وتمنعها من الشمس والهواء، كذلك تضمحل هذه الأمة في شخص هذا الفرد وتذوب فيه وتصبح أمة هزيلة لا شخصية لها ولا إرادة، ولا حرية ولا كرامة.

وكان هذا الفرد هو الذى تدور لأجله عجلة الحياة، فلأجله يتعب الفلاح ويشغل التاجر ويجتهد الصانع ويؤلف المؤلف وينظم الشاعر، ولأجله تلد الأمهات وفي سبيله يموت الرجال وتقاتل الجيوش، وبلى ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ويقذف البحر نفائسه وتستخرج كنوز الأرض خيراتها.

وكانت الأمة - وهى صاحبة الإنتاج وصاحبة الفضل فى هذه الرفاهية كلها - تعيش عيش الصعاليك، أو الأرقاء المماليك، وقد تسعد بفتات مائدة الملك وبما يفضل عن حاشيته فتشكر وقد تحرم ذلك أيضاً فتصبر، وقد تموت فيها الإنسانية فلا تنكر شيئاً بل تتسابق فى التزلف وانتهاز الفرص.

هذا هو العهد الذى ازدهر فى الشرق طويلاً وترك رواسب فى حياة هذه الأمة ونفوسها وفى أدبها وشعرها، وأخلاقها واجتماعاتها، وخلف آثاراً باقية فى المكتبة العربية، ومن هذه الآثار الناطقة كتاب «ألف ليلة وليلة» الذى يصور ذلك العهد تصويراً بارعاً، يوم كان الخليفة فى بغداد أو الملك فى دمشق أو القاهرة، هو كل شىء وبطل رواية الحياة ومركز الدائرة، إن هذا العهد الذى يمثله كتاب «ألف ليلة وليلة» بأساطيره وقصصه، وكتاب الأغاني بتاريخه وأدبه، لم يكن عهداً إسلامياً، ولا عهداً طبيعياً معقولاً، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل، بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذى بغث فيه محمد ﷺ فسماه الجاهلية ونعى عليه وأنكر على ملوكه - ككسرى وقيصر - وعلى أثرتهم وترفعهم أشد الإنكار.

إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار فى أى مكان وفى أى زمان ولا سبيل إليه إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مضابة فى عقلها أو فاقدة الوعى والشعور أو ميتة النفس والروح.

إن هذا الوضع لا يقره عقل ، ومن الذى يسوغ أن يتخم فرد أو بضعة أفراد بأنواع الطعام والشراب ويموت آلاف جوعاً ومسغبة ، ومن الذى يسوغ أن يعيث ملك أو أبناء ملك بالمال عبث المجانين ، والناس لا يجدون من القوت ما يقيم صلبهم ومن الكسوة ما يستر جسمهم ، ومن الذى يسوغ أن يكون حظ طبقة - وهى الكثرة - الإنتاج وحده والكدح فى الحياة والعمل المضنى الذى لا نهاية له ، وحظ طبقة - وهى لا تتجاوز عدد الأصابع - إلا التلهى بشمرات تعب الطبقة الأولى من غير شكر وتقدير وفى غير عقل ووعى ، ومن الذى يسوغ أن يشقى أهل الصناعة وأهل الذكاء وأهل الاجتهاد وأهل المواهب وأهل الصلاح ، وينعم رجال لا يحسنون غير التبذير ولا يعرفون صناعة غير صناعة الفجور وشرب الخمر؟ ومن الذى يسوغ أن تُجفى أهل الكفاية وأهل النبوغ وأهل الأمانة ويقصوا كالمنبوذين ويجتمع حول ملك أو أمير فوج من خساسة النفوس وسخفاء العقول وفاقدى الضمائر ممن لا هم لهم إلا ابتزاز الأموال وإرضاء الشهوات ، ولا يحسنون فناً من فنون الدنيا غير التملق والإطراء والمؤامرة ضد الأبرياء ، ولا يتصفون بشيء غير فقدان الشعور وقلة الحياء .

إنه وضع شاذ لا ينبغى أن يبقى يوماً فضلاً عن أن يبقى أعواماً .

إنه إن سبق فى عهد من عهود التاريخ وبقي مدة طويلة فقد كان ذلك على غفلة من الأمة أو على الرغم منها ، وبسبب ضعف الإسلام وقوة الجاهلية ولكنه خلى بأن ينهار ويتداعى كلما أشرقت شمس الإسلام واستيقظ الوعي وهبت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها .

فالذين لا يزالون يعيشون فى عالم «ألف ليلة وليلة» إنما يعيشون فى عالم الأحلام ، إنما يعيشون فى بيت أوهن من بيت العنكبوت ، إنما يعيشون فى بيت مهدد بالأخطار لا يدرون متى يكبس ، ولا يدرون متى تعمل فيه معاول الهدم ، وإن سلموا من كل هذا فلا يدرون متى يخر عليهم السقف من فوقهم فإنه بيت قائم على غير أساس متين وعلى غير دعائم قوية .

ألا إن عهد ألف ليلة وليلة قد مضى فلا يخدعن أقوام أنفسهم ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت، إن الملوكية مصباح - إن جاز هذا التعبير - قد نفذ زيته واحترقت فتيلته، فهو إلى انطفاء عاجل ولو لم تهب عاصفة.

أنه لا محل في الإسلام لأي نوع من أنواع الأثرة، إنه لا محل فيه للأثرة الفردية أو العائلية التي نراها في بعض الأمم الشرقية والأقطار الإسلامية ولا محل فيه للأثرة المنظمة التي نراها في أوروبا وأمريكا وفي روسيا، فهي في أوروبا أثرة حزب من الأحزاب، وفي أمريكا أثرة الرأسماليين، وفي روسيا قلة آمنت بالشيوعية المتطرفة وفرضت نفسها على الكثرة وهي تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة ووحشية ربما لا يوجد لها نظير في تاريخ السخرة الظالمة^(١).

إن الأثرة بجميع أنواعها تنتهي وإن الإنسانية ستثور عليها وتنتقم منها انتقاماً شديداً، إنه لا مستقبل في العالم إلا للإسلام السمو العادل الوسط وإن طال أجل هذه «الأثرات» وأرخی لها العنان وتمادت في غيها وطغيانها مدة من الزمان.

إن الأثرة - فردية كانت أو عائلية أو حزبية أو طبقية - غير طبيعية في حياة الأمة وإنها تتخلص منها في أول فرصة، إنه لا محل لها في الإسلام ولا محل لها في مجتمع واع بلغ الرشد ولا أمل في استمرارها، فخير للمسلمين وخير للعرب وخير لقادتهم وولاة أمورهم أن يخلصوا أنفسهم منها ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تغرق فيغرقوا معها.

• إيجاد الوعي في الأمة:

إن أخوف ما يخاف على أمة ويعرضها لكل خطر ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة للعابثين هو فقدان الوعي في هذه الأمة، وافتتانها بكل دعوة

(١) اقرأ في ذلك كتاب: Forced Labour Russia

لمؤلفه: Professor Ernest Tallgren

واندفاعها إلى كل موجة وخضوعها لكل متسلط وسكونها على كل فظيعة وتحملها لكل ضيم، وأن لا تعقل الأمور ولا تضعها في مواضعها ولا تميز بين الصديق والعدو وبين الناصح والغاش وأن تلدغ من جحر مرة بعد مرة ولا تنصحها الحوادث، ولا تروعها التجارب، ولا تنتفع بالكوارث، ولا تولى قيادها من جربت عليه الغش والخديعة والخيانة والأثرة والأنانية، ولا تزال تضع ثقتها فيه وتمكنه من نفسها وأموالها وأعراضها ومفاتيح ملكها وتنسى سريعاً ما لاقت على يده الخسائر والنكبات فيجترئ بذلك السياسيون المحترفون، والقادة الخائنون ويأمنون سخط الأمة ومحاسبتها ويتمادون في غيهم ويسترسلون في خياناتهم وعبثهم ثقة ببلاهة الأمة وسذاجة الشعب وفقدان الوعي.

إن الشعوب الإسلامية والبلاد العربية - مع الأسف - ضعيفة الوعي، إذا تخرجنا أن نقول: فاقدة الوعي - فهي لا تعرف صديقها من عدوها ولا تزال تعاملهما معاملة سواء أو تعامل العدو أحسن مما تعامل الصديق الناصح وقد يكون الصديق في تعب وجهاد معها طول حياته بخلاف العدو، ولا تزال تلدغ من جحر واحد ألف مرة ولا تعتبر بالحوادث والتجارب، وهي ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان تنسى ماضى الزعماء والقادة، وتنسى الحوادث القريبة والبعيدة، وهي ضعيفة في الوعي الدينى والوعى الاجتماعى وأضعف في الوعي السياسى، وذلك ما جر عليها ويلاً عظيماً وشقاء كبيراً وسببط عليها القيادة الزائفة وفضحها فى كل معركة.

إن الأمم الأوربية - برغم إفلاسها فى الروح والأخلاق وبرغم عيوبها الكثيرة التى بحثنا عنها فى هذا الكتاب - قوية الوعي - الوعي المدنى والسياسى - قد بلغت سن الرشد فى السياسة، وأصبحت تعرف نفعها من ضررها، وتميز بين الناصح والخادع، وبين المخلص والمنافق، وبين الكفو والعاجز، فلا تولى قيادها إلا الأكفاء الأقوياء الأمناء، ثم لا توليهم أمورهم إلا على حذر، فإذا رأت منهم عجزاً أو خيانة أو رأت أنهم مثلوا دورهم وانتهوا من أمرهم استغنت عنهم وأبدلت بهم رجالاً أقوى منهم وأعظم كفاءة

وأجدر بالموقف، ولم يمنعها من إقالتهم أو إقصائهم من الحكم ماضيهم الرائع وأعمالهم الجليلة وانتصارهم في حرب، أو نجاحهم في قضية، وبذلك أمنت السياسيين المحترفين، والقيادة الضعيفة أو الخائنة، وخوف ذلك الزعماء ورجال الحكم وكانوا حذرين ساهرين يخافون رقابة الأمة وعقابها وبطش الرأي العام.

فمن أعظم ما تخدم به هذه الأمة وتؤمن من المهازل والمآسى التي لا تكاد تنتهى هو إيجاد الوعي فى طبقاتها ودهمائها وتربية الجماهير التربوية العقلية والمدنية والسياسية، ولا يخفى أن الوعي غير فشو التعليم وزوال الأمية وإن كانت هذه الأخيرة من أنجح وسائلها، وليعرف الزعماء السياسيون والقادة أن الأمة التي يعوزها الوعي غير جديرة بالثقة ولا تبعث حالتها على الارتياح وإن أطرت الزعامة والزعماء وقبستهم فإنها - ما دامت ضعيفة الوعي - عرضة لكل دعاية وتهريج وسخرية كريشة فى فلاة تلعب بها الرياح ولا تستقر فى مكان.

● استقلال البلاد العربية فى تجارتها ومالياتها،

وكذلك لابد للعالم العربى - كالعالم الإسلامى - من الاستقلال فى تجارتها وماليته وصناعته وتعليمه، لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبت أرضه وتنسجه يده، وتستغنى عن الغرب فى جميع شئون حياتها، وفى كل ما تحتاج إليه من كسوة وطعام، وبضائع ومصنوعات، وأسلحة وجهاز حربى، وآلات وماكينات، وأدوية فلا تكون كلاً على الغرب وعيلاً عليه فى معيشتها ومتطفلة على مائدته.

إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الغرب - إذا احتاج إلى ذلك ودعت إليه الظروف - وهو مدين له فى ماله، عيال عليه فى لباسه وبضائعه، لا يجد قلمًا يوقع به على ميثاق مع الغرب إلا القلم الذى صنع فى الغرب، ولا يجد ما يقاتل به الغرب، إلا الرصاص الذى أفرغ فى الغرب، إن عاراً على الأمة العربية أن تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها

وقوتها، وأن يجرى ماء الحياة في عروقها وشرائنها إلى أجسام غيرها وأن يدرّب جيوشها وكلاء الغرب وضباطه، ويدير بعض مصالح حكومتها رجاله، فلا بد للعالم العربى أن يقوم هو نفسه بحاجاته: تنظيم التجارة والمالية، وحركة التوريد والتصدير والصناعة الوطنية، وتدريب الجيش، وصنع الآلات والماكينات وتربية الرجال الذين يضطلعون بجميع مهمات الدولة ووظائف الحكومة فى خبرة ومهارة فنية، وأمانة ونصيحة.

• تقدم مصر فى ميدان التجارة والصناعة والعلم:

ولابد هنا من الاعتراف بأن مصر قد أثبتت كفايتها واستعدادها الكبير فى ميدان العلم والصناعة، وتربية الرجال، ونشر الثقافة، ونقل العلوم العصرية إلى اللغة العربية، وبواسطتها إلى الأمة العربية، وعنايتها بالصناعة الوطنية، وتنظيم شئون دولتها ومالياتها على أساس العلم العصرى، أما فضلها على اللغة العربية وإحيائها للكتب العربية، وتقديم الصحافة والطباعة وحركة النشر فيها فمن المآثر والمفاخر التى سيسجلها التاريخ، ويردد صداها المستقبل، ويدين بفضلها العرب جميعاً.

• رجاء العالم الإسلامى من العالم العربى:

والعالم العربى بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافى وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامى، ويزاحم أوربا بعد الاستعداد الكامل، وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله ويحول العالم من الشر إلى الخير ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام.

• إلى قمة القبلية العالمية:

ما أعظم التطور الذى حدث فى تاريخ العرب على إثر بعثة محمد ﷺ ونادت به سورة الإسراء وقصة المعراج فى لغة صريحة بليغة وفى أسلوب مبين مشرق^(١) وما أعظم النعمة التى أسبغها الله على العرب. نقلهم من

(١) تضم سورة الإسراء وقصة المعراج إعلانات بأن محمداً ﷺ هو نبي القبلتين وإمام المشرقين والمغربين ووارث الأنبياء قبله وإمام الأجيال بعده.

جزيرتهم التى يتناحرون فيها إلى العالم الفسيح الذى يقودونه بناصيته، ومن الحياة القبلية المحدودة التى ضاقوا بها إلى الإنسانية الواسعة التى يشرفون عليها ويوجهونها، وأصبحوا بفضل هذا التطور العظيم الذى فاجأ العرب وفاجأ العالم يقولون بكل وضوح وشجاعة لإمبراطور المملكة الفارسية العظيمة وأركان دولته: «الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

نعم لقد خرجوا من ضيق الدنيا أولاً إلى سعتها ثم أخرجوا الأمم من ضيق الدنيا إلى سعتها آخرًا، وهل أضيق من الحياة القبلية والجنسية، وأوسع من الحياة الإنسانية الآفاق؟ وهل أضيق من الحياة التى لا يفكر فيها إلا فى المادة الزائلة والحياة الفانية ولا يجاهد إلا فى سبيلها من الحياة الإيمانية الروحانية التى لا نهاية لها ولا تحديد؟!.

لقد خرجوا من ضيق جزيرة العرب، ومن ضيق الحياة فيها، ومن ضيق التفكير فى مسائلها ومصالحها ومن ضيق التناحر على سيادتها، ومن ضيق التكالب على حطامها القليل وملكها الضئيل وعيشها الدليل، إلى عالم جديد من السيادة الروحية والخلقية والعلمية والسياسية، ليس الدانوب الفائض والنيل السعيد والفرات العذب والسند الطويل إلا سواقي حقيرة وترعا صغيرة فيه، وليست جبال الألب والبرانس وعقاب لبنان وقمم همالايا إلا تلالا متواضعة وسدوداً صغيرة، وليست البلاد الواسعة كالهند والصين وتركستان إلا أحياء ضيقة وحارات صغيرة، ونقطاً مغمورة فى هذا العالم، وليست هذه الأرض كلها إذا نظر إليها من ارتقى إلى قمة هذه السيادة - إلا خريطة صغيرة ملونة يراها الطائر المحلق فى السماء، وليست الأمم الكبيرة - مع ثقافتها وحضاراتها وآدابها - إلا أسراً صغيرة فى أمة كبيرة.

لقد قام العالم الكبير على أساس العقيدة الواحدة، والإيمان العميق والصلة الروحية القوية، وكان أوسع عالم عرفه التاريخ، وكانت الشعوب التى تكون هذا العالم أقوى أسرة عرفها التاريخ. تنصهر فيها الثقافات

المختلفة، والعبقريات المختلفة فتكون منها ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية، التي لم تزل تظهر في نوابع الإسلام الذين لا يحصيهم عدد وفي المآثر الإسلامية - بين علمية وعملية - التي لا يستقصيها التاريخ.

لقد كانت - ولا تزال - قيادة هذا العالم بجدارة واستحقاق أشرف قيادة وأعظمها وأقواها في تاريخ الزعامة والقيادة وقد أكرم الله بها العرب لما أخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية وتفانوا في سبيلها، فأحبهم الناس في العالم حباً لم يعرف له نظير، وقلدوهم في كل شيء تقليداً لم يعرف له نظير، وخضعت ل لغتهم اللغات، ولثقافتهم الثقافات، ولحضارتهم الحضارات، فكانت لغتهم هي لغة العلم والتأليف في العالم المتمدن من أقصاه إلى أقصاه، وهي اللغة المقدسة الحبيبة التي يؤثرها الناس على لغاتهم التي نشأوا عليها، ويؤلفون فيها أعظم مؤلفاتهم وأحب مؤلفاتهم، ويتقنونها كأبنائها وأحسن، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون في العالم العربي، ويقر بفضلهم وإمامتهم أدباء العرب ونقادهم.

وكانت حضارتهم هي الحضارة المثلى التي يتمجد الناس ويتظرفون بتقليدها، ويبحث علماء الدين على تفضيلها على الحضارات الأخرى ويطلقون على كل ما يخالفها من الحضارات - اسم «الجاهلية» و «العجمية» وينهون عن اتخاذ شعائرها ومظاهرها.

وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدة طويلة والناس لا يفكرون في ثورة عليها، وفي التخلص منها، كما هي عادة المفتوحين والأمم المغلوبة على أمرها في كل عهد، لأن صلتهم بهذه القيادة ليست صلة المفتوح بالفاتح أو المحكوم بالحاكم أو الرقيق بالسيد القاهر، إنما هي صلة المتدين بالمتدين، وصلة المؤمن بالمؤمن، وعلى الأكثر إنما هي صلة التابع بالمتبوع الذي سبقه بمعرفة الحق والإيمان بالدعوة والتفاني في سبيلها، فلا محل للثورة، ولا محل للتدمير، ولا محل لنكران الجميل، إنما اللائق أن يعترفوا لهم بالفضل، وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء، وأن يقولوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ

سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾
[الحشر: ١٠].

وهكذا كان، فقد ظلت هذه الأمم المفتوحة تعتبر العرب المنقذ من الجاهلية والوثنية، والداعى إلى دار السلام، والقائد إلى الجنة، والمعلم للحضارة، والأستاذ فى الأدب.

هذه هى القيادة العالمية التى هياتها البعثة المحمدية، وهى القيادة التى يجب أن يحرص عليها العرب أشد الحرص، ويعضوا عليها بالنواجذ، ويسعوا إليها بكل ما أوتوا من مواهب ويتواصى بها الآباء والأبناء، ولا يجوز لهم - فى شريعة العقل والدين والغيرة - أن يتخلوا عنها فى زمن من الأزمان، ففيها عوض عن كل قيادة مع زيادة، وليس فى غيرها عوض عنها وكفاية، وهى القيادة التى تشتمل جميع أنواع القيادة والسيادة، وهى تسيطر على القلوب والأرواح، أكثر من سيطرتها على الأجسام والأشباح.

إن الطريق إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب، وهى الطريق التى جربوها فى عهدهم الأول «الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها وتبنيها والتفانى فى سبيلها وتفضيل منهج الحياة الإسلامى على جميع مناهج الحياة».

وبذلك - من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبويها - تخضع لهم الأمم الإسلامية فى أنحاء العالم، وتتهالك على حبهم وإجلالهم وتقليدهم، وبذلك تفتح لهم أبواب جديدة وميادين جديدة فى مشارق الأرض ومغاربها، الميادين التى استعصت على غزاة الغرب ومستعمره وثارت عليه، وتدخل أمم جديدة فى الإسلام أمم فتية فى مواهبها وقواها وذخائرها، أمم تستطيع أن تعارض أوربا فى مدنيته وعلومها إذا وجدت إيمانًا جديدًا، ودينًا جديدًا، وروحًا جديدًا، ورسالة جديدة.

إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التى فتحت بها العالم القديم فى ميادين ضيقة محدودة؟ وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم - الذى جرف بالأمس بالمدينيات والحكومات - فى حدود هذا الوادى الضيق.

تصطرع أمواجه ويلتهم بضعها بعضا؟ إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذي اختاركم الله لقيادته واجتباكم لهدايته، وكانت البعثة المحمدية فاتحة هذا العهد الجديد في تاريخ أمتكم وفي تاريخ العالم جميعاً، وفي مصيركم ومصير العالم جميعاً فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد وتفانوا في سبيلها وجاهدوا فيها ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ١٧٨].

فهرست

الموضوع	الصفحة
كليمه كتذكرة بقلم د. مصطفى أبو سليمان الندوى تلميذ المؤلف	٣
مقدمة بقلم الباحث الإسلامى سيد قطب	١١
صورة وصفية بقلم فضيلة الأستاذ: أحمد الشرباصى	١٧
مقدمة الطبعة الثالثة عشرة القانونية	٢٣
الباب الأول: العصر الجاهلى	٣٣
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	٣٥
نظرة فى الأديان والأمم	٣٦
المسيحية فى القرن السادس المسيحى	٣٦
الحرب الأهلية الدينية فى الدول الرومية	٣٧
الانحلال الاجتماعى والقلق الاقتصادى	٣٩
مصر فى عهد الدولة الرومية ديانة واقتصاداً	٤٠
الحبشة	٤٢
الأمم الأوربية الشمالية الغربية	٤٢
اليهود	٤٣
بين اليهود والمسيحيين	٤٣
إيران والحركات الهدامة فيها	٤٥
تقديس الأكاسرة	٤٧
التفاوت بين الطبقات	٤٨
تمجيد القومية الفارسية	٤٩
عبادة النار وتأثيرها فى الحياة	٥٠
الصين: دياناتها ونظمها	٥١
البوذية تطوراتها وانحطاطها	٥١
أمم آسيا	٥٣
الهند ، ديانة، اجتماعاً، وأخلاقاً	٥٣

الصفحة	الموضوع
٥٣	الوثنية المتطرفة
٥٥	الشهوة الجنسية الجامحة
٥٦	نظام الطبقات الجائر
٥٧	امتيازات طبقة البراهمة
٥٧	المنبوذون الأشقياء
٥٨	مركز المرأة في المجتمع الهندي
٥٩	العرب خصائصهم ومواهبهم
٥٩	وثنية الجاهلية
٦٠	أصنام العرب في الجاهلية
٦١	الآلهة عند العرب
٦١	اليهودية والنصرانية في بلاد العرب
٦٢	الرسالة والإيمان بالبعث
٦٢	الأدواء الخلقية والاجتماعية
٦٥	المرأة في المجتمع الجاهلي
٦٦	العصبية القبلية والدموية في العرب
٦٨	ظهر الفساد في البر والبحر
٦٨	لمعات في الظلام
٧١	الفصل الثاني
٧١	النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي
٧٢	الحكم الروماني في مصر والشام
٧٣	نظام الجباية والخراج في إيران
٧٤	كنوز الملوك ومدخراتهم
٧٤	الفصل التاسع بين طبقات المجتمع
٧٥	الفلاحون في إيران
٧٥	الاضطهاد والاستبداد
٧٦	المدنية المصطنعة والحياة المترفة

الصفحة	الموضوع
٧٨	الزيادة الباهظة فى الضرائب
٨٠	شقاء الجمهور
٨٠	بين غنى مطغ وفقر منس
٨٠	تصوير الجاهلية
٨٢	الباب الثانى: من الجاهلية إلى الإسلام
٨٢	الفصل الأول: منهج الأنبياء فى الإصلاح والتغيير
٨٣	نواحي الحياة الفاسدة
٨٤	لم يكن الرسول رجلاً إقليمياً أو زعيماً وطنياً
٨٥	لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل
٨٦	قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها
٨٧	الفصل الثانى: رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام
٨٧	دفاع الجاهلية عن نفسها
٨٧	فى سبيل الدين الجديد
٨٩	التربية الدينية
٨٩	فى مدينة الرسول ﷺ
٩٠	انحلت العقدة الكبرى
٩١	أغرب انقلاب وقع فى تاريخ البشر
٩١	تأثير الإيمان الصحيح فى الأخلاق والميول
٩٣	وخز الضمير
٩٤	الثبات أمام المطامع والشهوات
٩٥	الأنفة وكبر النفس
٩٥	الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء
٩٦	الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة
٩٧	من الأنانية إلى العبودية
٩٩	المحكّمات والبيّنات فى الإلهيات
١٠٠	الفصل الثالث: المجتمع الإسلامى

الصفحة	الموضوع
١٠٠	طاقة زهر
١٠٠	ليس منا من دعا إلى عصبية
١٠١	كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته
١٠٢	لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق
١٠٢	حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع
١٠٣	نوادير الحب والتفاني
١٠٥	عجائب الانقياد والطاعة
	الفصل الرابع: كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب
١٠٨	الإنسانية
١١٠	كتلة بشرية متزنة
١١٢	الباب الثالث: العصر الإسلامي
١١٢	الفصل الأول: عهد القيادة الإسلامية
١١٢	الأئمة المسلمون وخصائصهم
١١٦	دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة
١١٨	تأثير الإمامة الإسلامية في الحياة العامة
١٢١	المدنية الإسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري
١٢٨	الفصل الثاني: الانحطاط في الحياة الإسلامية
١٢٨	الحد الفاصل بين العصرين
١٢٨	نظرة في أسباب نهضة الإسلام
١٢٩	شروط الزعامة الإسلامية
١٣١	الاجتهاد
١٣١	انتقال الإمامة من الأكفاء
١٣٢	تحريفات الحياة الإسلامية
١٣٢	فصل الدين عن السياسة
١٣٢	التزعات الجاهلية في رجال الحكومة
١٣٣	سوء تمثيلهم للإسلام

الصفحة

الموضوع

١٣٣	قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة
١٣٥	الضلالات والبدع
١٣٥	إنكار الدين على المسلمين وإهأبته بهم
١٣٦	حسن بلاء العالم الإسلامى فى القرن السادس
١٤٠	فقر القيادة فى العالم الإسلامى بعد صلاح الدين
١٤٠	نتاج القرون المنحلة
١٤٠	انهيار صرح القوة الإسلامية
١٤٢	الفصل الثالث: دور القيادة العثمانية
١٤٢	العثمانيون على مسرح التاريخ
١٤٢	تفوق محمد الفاتح فى فن الحرب
١٤٣	مزايا الشعب التركى
١٤٥	انحطاط الأتراك فى الأخلاق وجمودهم فى العلم وصناعة الحرب
١٤٦	الجمود العلمى فى تركية
١٤٨	الانحطاط الفكرى والعلمى العام
١٤٩	معاصرو العثمانيين فى الشرق
١٥٠	نهضة أوروبا الجاهلية وسيرها الحثيث فى علوم الطبيعة والصناعات
١٥١	تخلف المسلمين فى مرافق الحياة
١٥١	تخلفهم فى صناعة الحرب
١٥٣	الباب الرابع: العصر الأوروبى
١٥٣	الفصل الأول: أوروبا المادية
١٥٣	طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها
١٥٤	خصائص الحضارة الإغريقية
١٥٨	خصائص الحضارة الرومية
١٦١	الانحطاط الخلقى فى الجمهورية الرومية
١٦٢	تنصر الروم
١٦٢	خسارة النصرانية فى دولتها

الصفحة	الموضوع
١٦٣	الرهبانية العاتية
١٦٤	عجائب الرهبان
١٦٥	تأثير الرهبانية في أخلاق الأوروبيين
١٦٥	عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة
١٦٧	بين الرهبانية العاتية والمادية الجامحة
١٦٧	الفساد في المراكز الدينية
١٦٨	تنافس البابوية والإمبراطورية
١٦٩	شقاء أوروبا برجال الدين
١٦٩	جناية رجال الدين على الكتب الدينية
١٧٠	اضطهاد الكنيسة للعلم
١٧١	ثورة رجال التجديد
١٧٢	تقصير الثائرين وعدم تثبتهم
١٧٢	اتجاه الغرب إلى المادية
١٧٣	افتضاح المادية في الدور الأخير
١٧٤	جنود المادية ودعاتها
١٧٥	نسخة صادقة من الحضارة اليونانية
١٧٥	ديانة أوروبا اليوم المادية لا النصرانية
١٧٩	مظاهر الطبيعة المادية في أوروبا
١٨٣	الغايات المادية للحركات الروحية والعلمية
١٨٤	التصوف المادي
١٨٥	نظرية دارون وتأثيرها في الأفكار والحضارة
١٨٧	إقبال الجمهور على نظرية الارتقاء
١٨٨	من جنايات المادية
١٩٠	الفصل الثاني: الجنسية الوطنية في أوروبا
١٩٠	انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية
١٩١	طوائف العصبية الجنسية في أوروبا

الموضوع	الصفحة
عدوى الجنسية فى الأقطار الإسلامية	١٩٢
الديانة القومية الأوروبية وأركانها	١٩٥
الحل الإسلامى لمعضلة الحروب والمنافسات الشعبية	١٩٧
دعاية القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة	٢٠٠
مطامح الدول الكبيرة	٢٠٠
منافسة الشعوب فى المستعمرات والأسواق	٢٠١
الفرق بين حكم الجباية وحكم الهداية	٢٠٣
الفصل الثالث: أوربا إلى الانتحار	٢٠٦
عصر الاكتشاف والاختراع	٢٠٦
الغاية من الصناعات والمخترعات وموقف الإسلام منها	٢٠٦
إنما طأثركم معكم	٢٠٨
التخليط بين الوسائل والغايات	٢٠٩
عدم تعادل القوة والأخلاق فى أوربا	٢١٠
قوة الآلهة وعقل الأطفال	٢١١
ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم	٢١٢
أوربا فى الانتحار	٢١٥
القنبلة الذرية وفضائنها	٢١٥
والذى خبت لا يخرج إلا نكدا	٢١٧
الفصل الرابع: رزايا الإنسانية المعنوية فى عهد الاستعمار الأوروبى	٢٢٠
بطلان الحاسة الدينية	٢٢٠
ما لجراح بميت إيلام	٢٢٢
زوال العاطفة الدينية	٢٢٥
طغيان المادة والمعدة	٢٣٢
التدهور فى الأخلاق والمجتمع	٢٣٦
الباب الخامس: قيادة الإسلام للعالم	٢٤٧
الفصل الأول: نهضة العالم الإسلامى	٢٤٧

الصفحة	الموضوع
٢٤٧	اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية
٢٤٨	استيلاء الفلسفة الأوروبية على العالم
٢٤٩	الشعوب والدول الآسيوية
٢٥١	الحل الوحيد للأزمة العالمية
٢٥١	العالم الإسلامي على أثر أوربا
٢٥٢	المسلمون على علاقتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل
٢٥٥	رسالة العالم الإسلامي
٢٥٧	الاستعداد الروحي
٢٦٠	الاستعداد الصناعي والحربي
٢٦١	تبوء الزعامة في العلم والتحقيق
٢٦٢	التنظيم العلمي الجديد
٢٦٥	الفصل الثاني: زعامة العالم العربي
٢٦٥	أهمية العالم العربي
٢٦٥	محمد رسول الله ﷺ روح العالم العربي
٢٦٧	الإيمان هو في قوة العالم العربي
٢٦٨	تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية
٢٧٢	العناية بالفروسية والحياة العسكرية
٢٧٤	محرابة التبذير والفرق الهائل بين الغنى والصعلوك
٢٧٤	التخلص من أنواع الأثرة
٢٧٧	إيجاد الوعي في الأمة
٢٧٩	استقلال البلاد العربية في تجارتها ومالياتها
٢٨٠	تقدم مصر في ميدان الصناعة والتجارة والعلم
٢٨٠	رجاء العالم الإسلامي من العالم العربي
٢٨٠	إلى قمة العالمية
٢٨٥	الفهرس



Bibliotheca Alexandrina



0659560